سعيد الوهابي

سور جدّة

رواية



الفارابي

سور جدة

سعيد الوهابي

سور جدة

رواية

دار الفارابي

الكتاب: سور جدة
المؤلف: سعيد الوهابي
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2009
ISBN: 978-9953-71-423-3

إهداء

احترت إلى من أهدي
إلى أبي...
إلى وطني...
واكتشفت أنني أفتقدهما جداً

ما كُتب بالخط الأسود المائل مقال نشر في العام 2004 في العام الأول للطالب بسام العامر في جامعة الملك عبد العزيز بجدة.

السطر الأول

"خمسة آلاف سنة.. ونحن في السرداب...
ذقوننا طويلة.. نقودنا مجهولة.. عيوننا مرافئ الذباب...
يا أصدقائي جربوا أن تكسروا الأبواب...
أن تغسلوا أفكاركم، وتغسلوا الأثواب...
يا أصدقائي جربوا أن تقرأوا كتاب.. أن تكتبوا كتاب...
أن تزرعوا الحروف والرمان والأعناب...
أن تبحروا إلى بلاد الثلج والضباب...
فالناس يجهلونكم... في خارج السرداب...
الناس يحسبونكم نوعاً من الذباب".

نزار قباني

1

استيقظ في صبيحة يوم شتوي كئيب، كان يعتقد أن الشتاء هو الوداع والهجرة والحزن والكآبة، وأن الصيف هو

الفرح والبهجة والألوان؛ كانت ليلته قلقة، ترددت إلى مسامعه شجارات جيرانه العمال، وصراخ أولاد الشوارع وآهاتهم وأحياناً مؤامراتهم، أيضاً أهازيج من يسميهم الأشرار فرحاً بفوز فريقهم الليلة الفائتة بكأس الملك، لعن ليلتها الكرة ومن اخترعها. فكر بحنق وهو يحدث نفسه وكأننا بتفوقنا (رغم فشلنا فيها بجدارة) سنعانق أمجاد الأمم. يحلم بغازي القصيبي، لا يدري لماذا، لكنه يظهر في الحلم بشعر يكسو رأسه، يبدو رشيقاً وقد فقد أرطالاً من وزنه، يتجنب الأحلام السياسية، حتى الأحلام، حينما يستيقظ يبتسم في غباء فالابتسام يدعوه أحياناً للتفاؤل وأحياناً للبكاء. تسلل من فراشه نحو الحمام، تجاهل كالعادة نداء الماء له فهو يكرهه في الشتاء، تأمل وجهه في المرآة وقد نبتت بعض البثور بألوانها البيضاء والسوداء بدلاً من الشعر(هذا ما غرس أبي!) وبدأ موسم الحصاد اليومي لتلك البثور. عاود الابتسام مرة أخرى، نظر إلى الحمام وراود نفسه على مغامرة خوض الماء البارد في ذلك الصباح فأبت، نثر الماء هنا وهناك، لبس ثوباً واعتمر عمامته وتطيب بعطره الوحيد لأثير 212، وما أن ارتكز العقال حتى أخذ يردد دعوات تمتم قولها بسرعة، نظر إلى السجادة فنطق عقله، "صلاة الفجر" صلى على عَجل، وهمَّ بالخروج.

نصحه موظف الاستقبال في ذلك الفندق القديم، المثير

في توسطه الكثير من الأسواق والمكتب وبيوت الدعارة أحياناً، بأحد المطاعم اليمنية المجاورة، تناول إفطاره على عجل، واستقل إحدى سيارات الأجرة، تحدث كثيراً مبتهجاً إلى السائق، كان باكستانياً اسمه عبد الحق، ودّعه بعد أخذ رقم جواله، لحظات وهو الآن أمام مبنى الصحيفة المشهورة والأولى في جدة هذه الأيام، يعتقد أنها كذلك، راقه مبنى الصحيفة الحديث بقببه وسوره وألوانه الهادئة وزخارفه الإسلامية البسيطة، اقترب من واجهة المبنى الرئيسية الزجاجية وما أن رأى نفسه حتى ابتسم وقال بهمس: أهذا وجه صحفي؟

- حدق بكبر من تحت نظارته، تقدمت ابتسامته الصفراء كل جمله وحركاته وأخذ يسأل في كبر صارخ، هو الطاعم الكاسي: ما الذي أتى بك إلى هنا؟

أخذ خالد ينمق الكلام ويختار من المعاني أبهرها، ومن الحكم أجملها، ومن ذخيرة سنته اليتيمة في الجامعة أنفس دررها، يظهر بعد كل ذلك مضرب المثل في الثقافة والمعرفة، مبرزاً همة الشباب وحبه للصحافة ودورها ومبادئها وفنونها؛ شعر أنه يبالغ قليلاً، خيل إليه وقتذاك وكأنه شيخ قد اعتلى المنبر في أيام الجمعة، مستهلاً خطبته العصماء بفضل الصدق والأمانة والإحسان، تنكس الرؤوس فيحسبها كثيرون علامة خشوع ومحاسبة، ويحسبها هو وقلة آخرون

إعلاناً لموسم الغفوة السريعة، وما آن بخرجوا حتى يغشوا باعة رصيف المسجد ويغشهم، وقلة آخرون ينتظرون في غيظ كثيرين أوقفوا سياراتهم بعجلة لإدراك الصلاة ولا يمنع تأخير الآخرين وبدون اعتذار منهم فلم يتعود على ذلك من قبل...

فجأة قطع هذا الهذيان، ترك مقعده الوثير واقترب من إحدى اللوحات الكثيرة في مكتبة بخطى عسكرية موسيقية وتوقف، كانت اللوحة عبارة عن قارب كبير راسٍ في أحد الموانئ وقد امتدت مرساته على شكل ساعة بعقارب كبيرة واضحة، حدق فيها ثم قال: إعلم يا بني أن الفنون كل الفنون في العالم خدعة: الرسم والصحافة والأدب والسياسة والإدارة والرقص والموسيقى وأغلب الأشياء حولك هي خدعة إلا ثلاثة أشياء - هي مرتكز كل الأشياء، وهدفك أنت وغيرك من الأشياء أوو عفواً، الأشخاص - هي حقائق: المال والسلطة وشيء آخر أستحي أن أصرّح به (ونظر بخبث وهو يردد جملته الأخيرة).

ساد صمت كان يحسبه خالد إعلاناً بانتهاء المقابلة ولكن استمر مباغتاً: أنت وآلاف من شبابنا العاطلين ولدتم في وقت يتسم فيه مجتمعكم وأنتم أيضاً بفقر ثقافي وغنىً بلطجي تستمدون فيه أفكاركم من أسوإ الأمثلة لديكم، وأنت الآن أمامي تغلف حبك للحقائق الثلاث بإبداء براءة حبك للفنون وفن الصحافة بالذات. ولو كنت في مكان كالجيش مثلاً

لأبديت براعتك في القتال داخل الحواري ولأنشدت قصائد الوطن كلها، ولكن صدقني صدقني الحقيقة غير ذلك فعلاً.

تجرع كل المهانات وبالطبع كل الاتهامات بكل دعة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بلا معنى أثارت في ذلك الثور كل الحماقات وكأنه يلوح له بالقماش الأحمر فقال في انطلاقة: أنت من أين؟

تحركت شفتاه في تلقائية معلنة انطلاق صوته المبحوح: من الجنوب طال عمرك.

عضّ على شفتيه مبرزاً طقم أسنانه العلوي باحتقار: طلبك بالالتحاق بالصحيفة مرفوض قطعاً؛ وبصراحة أنا أنصحك بالأعمال الحرة وأنتم فالحون في مثل هذه الأعمال، سوق الخضار فرصة جيدة لشاب مثلك وكذلك سيارات الأجرة، لقد أطلقوا برامج أخيراً لسعودة تلك الوظائف، أطلق بعدها ضحكة ثورية مجلجلة كتلك التي يطلقها أصحاب الأدوار الشريرة في المسلسلات المصرية.

امتدت يد خالد نحو لوحة اسمه /قاسم هاشم الإسكندراني/ فانحنى ذلك الثور بعدما اندفعت نحوه تلك اللوحة في قطعة زجاجية فاخرة وتناثرت في المكتب فانطلقت صرخاته "يا همجي يا حمار يا جزمه.................... طلعوه برا".

قذف به رجال الأمن خارج مبنى الصحيفة، نظر نظرة

شاب في العشرين من عمره، كان يعي قبل نصف ساعة أن ذلك المبنى مناراً للمجتمع، سلطة يحكى عن أهميتها في سياسات الدول والدول الديموقراطية بالأخص، كان يؤكد أن مبنى مثل هذا إنما هو تجسيد لسياسة البلد الشهيرة (سياسة الباب المفتوح)، سيكون حافلاً ومحتفلاً بأفكار الشباب ومتسعاً للإبحار، بحر فيه نغرق ونصطاد ونلهو ونتعلم، نستطيع من خلاله سلمياً أن نثبت الذات ونثبت العدالة، أن نسلط أضواءنا على الفاسدين، لا أن تسلط علينا الأعين وقليل من الأنظمة وكثير من الأعراف، تقيدنا بعيداً عن المروج الواسعة وتدفعنا نحو الحظيرة النتنة الضيقة.

أي قيم دخل بها ذلك الشاب المبنى، وأي مبادئ تعلم عند الخروج، وأي روح هي قبل دخوله، وأي مسخ هو الآن، كان في طريق العودة إلى الفندق يسأل نفسه سؤالاً واحداً لماذا؟

ازدادت عينه إصراراً على نبذ دموع القلب، كأنه تعود أسلوب النبذ متجاهلاً بذلك انكسار الرجال، هو أعظم الانكسارات وأشدها خطراً. أخذ يتسلى بشريط الذكريات فهو يعتقد أن الإنسان مجنون بلا ذكريات وبلا روح، روح الإنسان هي أخلاقه وقيمه وذكرياته هي أيامه، حاكم كل ذلك علو جنونه عقله.

أحس بحرارة هل هي غليان جوفه أم حرارة شمس الظهيرة؟ شمس ذلك الصباح طاغية في دفئها قاسية في

حرارتها، واضحة في حضورها المبهج ورحيلها الحزين، يحبها الناس والبسطاء كثيراً ويكرهها الأغنياء.

حسناً! حسناً! كان يقول إن أمه تذكره بالشمس، هو يراهما كل صباح في نفس الوقت حتى إنه قال لها ذات يوم إنها تكره الشمس عند الشروق حين تصرخ لتوقظه في هلع حنون، وفي لهجة جنوبية صرفة طريفة: 'قوموا بقعا تصوعكم شرقت الشمس'، يردد ولا يزال يردد بعض الكلمات دون معنى، بل يملأ بها فراغات جمله دون معرفة (بقعا) (تصوعكم) أشياء غريبة كانت تخطر في باله تلك اللحظات.

سأل موظف الاستقبال: أريد أن أخلي غرفتي في الحال؟

فرد بكل همة: 'حاضر سعاتك اللي تأمر بيه'.

تناول الصحيفة اليومية في بهو الفندق الصغير، وأخذ يقرأ إحدى المقالات التي عنونها صاحبها بـ 'عين الحقيقة'، قرأ المقال كاملاً. يصرخ في داخله 'كذب... كذب..'.

في ثورة غضب الإنسان يصرخ، في قمة فرحه يصرخ أيضاً، وحينما يولد وحينما يموت يصرخون عليه، وآباء يصرخون فينا، صراخنا تعبير مجازي فطري لمشاعر إنسانية كثيرة ومختلفة نجسدها أحياناً بالصمت أو الكتابة أو الحديث أو الغناء، أثناء تمزج هذه الفكرة انبعث صوت يعرفه من مذياع مكتب الاستقبال في سلطنة:

'اسأل روحك.. اسأل قلبك

قبل ما تسأل إيه غيرني
أنا غيرني عذابي في حبك
بعد ما كان أملي مصبرني
غدرك بيه أثر فيه
وتغيرت شويه شويه
وتغيرت مش بيديه
وبديت أطوي حنيني إليك
وأكره ضعفي وصبري عليك
واخترت ابعد وعرفت اعند
حتى الهجر قدرت عليه
شوف شوف القسوة بتعمل إيه*.

انتشى وأخذ يردد مطلعها في زهو يشوبه ألم ولذة وحزن، تداخلت المشاعر في فوضى وتواصل مسلسل الذكريات وعادت به مخيلته شهوراً قبل ذلك اليوم.

حينها توقف ذلك الجنوبي بحزم أهل الجنوب، توقف عملية الكلام عن العزف، نشط سلوك النظر فملأ فضاء تلك الجبال المحيطة، شجرة العرعر اليتيمة، سهول تهامة السحيقة، ألحاناً غريبة عما اعتاد سماعها من هذين العاشقين، فلتتشحي بالسواد ولتذكريه ولتمطري يا سماء واغسلي عارهما، إن قريته لا تغفر ذلك له لكنها تغفر أن ينقض ذلك الشيخ الهرم على فتيات القرية الواحدة تلو

الأخرى، فالبقاء للأنوى، سلمى.. وأي أرض وطأتها قدميك. يتذكر ذلك الجبل حينما تطلعت عيناها البريئتان الشقيتان في تحد، حتى أسقط عليهما صخرة من إحدى جوانبه. قال لها حينها وهي في أحضانه كطائر إن صخرة ذلك الجبل هي دمعته، لطالما تمنى لو أنه مثلنا ليعشقها، فابتسمت ابتسامتها المغرورة لتكشف دقة أسنانها الظريف لشهي. كانت تفاخر بأصولها التركية الممتدة قروناً مضت، ويشهد بذلك بياض جسدها الشاهق وصدرها الصغير تزينه رمانتان واقفتان في كبرياء، وتقلص خصر وكأنه قطع ثلج عذبة اقتطفتها من أعالي تلك الجبال، كان يرتوي حين يلقاها من عسل عينيها وتفاح خدودها، كانت في قمة الأدب وسلطانة دلع بنات زمانها، تتمايل ولكن بثقة وتسحر ولكن بعقل. كانا على طرفي نقيض في كل شيء ولكنهما أحبا كل شيء، يتذكر مراسم صلحهما الغريبة حينها كانا يلصقان أطراف سبابتيهما ثم يقبل كل منهما سبابته معلنين رجوع المياه إلى مجاريها، كانت إذا أرادت همست وإذا غنت عذبت وإذا فرحت تراقصت الطيور حولهما في ذلك الوادي وإذا غضبت صغر أمامها كطفل بريء حتى تبتسم ويقيما نفس المراسم، يتذكر جدالهما في اختيار أسماء أبنائهما وعددهم ومكان بيتهما حتى عدد قبلاته الأولى على الجسد الطاهر وأماكنها.

لعن ليلة زفافها كل الحياة وجميع التقاليد وهمجية العادات، رجا الرب أن تتحقق الدعوات فينام تلك الليلة نوم

أهل الكهف أو أن تتملكه الشجاعة ملقياً بنفسه على سفوح تلك الجبال، فقد تكون "أرحم عليّ" من أي شيء آخر وهي من شهدت كل شيء منذ البداية، حينها تتصدر أخبار انتحاره هذه الصحيفة، ومعه أزمة معاناته النفسية في كل صحف البلد، بعد سلمى نسي الحب، تشوه مفهوم القلب، دفن كل المشاعر.

أخذت كوكب الشرق تشدو مرة أخرى:

"أنا ما نسيت الحب وعهده ولا أيامه ولا لياليه
أما إن كان على الحب لوحده من غير هجرك
أهلاً بيه أهلاً بيه
دنا لوعني هواك وأنا عشان أنساك
أنا جبرني هواك وأنا عشان أنساك
يبعد عن كل مكان رحتو ولو مره معاه
وأغرب من أقرب ناس يعرفوا قصتي وياه
وأغير أي كلام يجيب سيرة ذكراه".

قطع خيالاته موظف الاستقبال ذو ملامح الرجل الطيب بتودد: ممكن أن أسألك سؤالاً يا أستاذ؟

ردد بفرح غامض أثاره من تلك الأجواء المصرية: تفضل، تفضل.

– يا باشا ولا مؤاخذة يعني، اللي يشوف سعاتك في الصباح منور وباين على وجهك فرحان واللي يشوفك دلوقتي ما يعرفك أيه في حاجة مضايقتك؟!

لا يسترجع الذكريات كثيراً ولكنه يتذكر ذلك المقهى بالقرب من عمارة الملكة في جدة القديمة، جلسا متقابلين هو ومصطفى بعد دعوته لخالد للعشاء، أبناء النيل يقدرون العيش والملح ويكرهون الجوع الكافر، تحدثا كثيراً تلك الليلة حتى ملّ المكان من حديثهما، نحب الغرباء لأننا نحملهم مهمة حفظ أسرارنا أو نشرها، هكذا يخيل له.

"هنا في المدن العظمى، جحيم الأفكار السامية، حيث تتهرأ كل عاطفة شريفة، هنا مقام الرذائل والشهوات! إن الذي يجري في عروق المدينة إنما هو دم فاسد! فابصق على المدن الكبيرة لأنها مزبلة تتراكم فيها الأقذار، ابصق على مدن النفوس الضعيفة، والصدور الضيقة، والعيون الحاسدة، مدن الطامعين، والوقحين والفجار والتجار المعربدين، المدن التي يتكدس فيها من يأكلهم سوس الفساد، ابصق على هذه المدن، وعد أدراجك".

نيتشه

2

جدة عروس البحر الأحمر، عاصمة السعودية الاقتصادية

ودرتها السياحية ترتدي كل ليلة من فساتين الزمن ما يناسبها، فهي الساحرة وهي العجوز وهي الفتنة وهي القبيحة وهي الجمال أحياناً وأحيناً القذارة، تسحر أثئلة زائريها عن نتانة كواليسها.

يمتد عمرها التاريخي ثلاثة آلاف سنة، قال الرواة إن الأم حواء دفنت فيها وأنه وجدت مقبرة باسمها في منطقة القشلة، وسكنها الصيادون ثم الجاهليون القدماء. ثم تتابعت الدول الإسلامية المتابعة (أموية، عباسية، أيوبية، مماليك، عثمانيون، أشراف). أهلها أهل شجاعة تصدوا لغارات الأساطيل البرتغالية والقراصنة الهولنديين وثاروا ضد حكامها المفسدين، وهم أهل تجارة عريقة أيضاً. منها آلاف البيوت التجارية المؤثرة إلى وقتنا الحاضر ومنها انطلق العديد من القوافل والأساطيل حول العالم. قال عنها الرحالة الفارسي ناصر خاسرو في العام 1050م "كانت مدينة كثيرة الخيرات مزدهرة بالتجارة باسقة العمران وأسواقها نظيفة وجيدة وعدد سكانها لا يزيد عن خمسة آلاف نسمة".

قام حسين الكردي الحاكم المملوكي بأوامر من آخر سلاطين مصر المماليك قانصوه الغوري ببناء السور القديم ممتداً بما يقارب الكيلومتر، زوده بالعديد من القلاع والأبراج والمدافع، وله بابان من جهة مكة وآخر من جهة المدينة ثم فتحت أبواب شريف وجديد والبنط والمغاربة وصريف

والنافعة والبابور والطابية ثم أخيراً باب الصبة، حتى تم هدم السور بعد خمسة قرون في العام 1947.

في بدايات القرن الرابع عشر الميلادي حاصرت الأساطيل البرتغالية بقيادة لوبو وارس جدة، لكي تستولي عليها باعتبارها من أهم الموانئ المطلة على البحر، لكن الحامية العثمانية تصدت لهم بقيادة سليمان باشا.

تضم جدة القديمة حارات أربع شهيرة والتي لا تزال إلى اليوم تزخر بعبق روحاني عظيم تجده في أزقتها وشوارعها وقصور كبرائها ودور الصعاليك، في مساجدها وكتاتيبها ومقاهيها وساحاتها ومدارسها، حارة الشام كانت أرقى الحارات كما هي عادة الشمال في الطبيعة، حارة اليمن وسكنها حضارمة اليمن التجار حيث يرتمي في إجلال دار آل نصيف، المتحف الآن، وغرباً حارة البحارة والصيادية حارة البحر وسكنها آل رضوان، وأخيراً حارة المظلوم وفيها مسجد الشافعي، وللأخيرة قصص تروى، فالمظلوم قيل إنه ابن أحد الأشراف، وقيل ابن أحد الملوك المتأخرين، ولكن الراجح أنه شخص يدعى عبد الرحمن البرزنجي، أحد علماء المدينة المنورة اتهم زوراً وظلماً في زمن جهالات الحكومة العثمانية وموتها في مطلع القرن العشرين، حكم عليه من غير محاكمة شنقاً، وفي ذلك اليوم تجمع العديد في ساحة حارة المظلوم، سال دمه على الساحة مشكلاً كلمة (مظلوم)، تناقل الناس

تلك الحادثة يومها حتى وصل صداها عنان السماء. هناك في إستانبول حيث يرقد السلطان في قصره الأوروبي، استدعي حاكم جدة وشلة الحكم الفاسدة من أغوات ومعاونين، وتشاء الأقدار مرة أخرى أن تغرق السفينة التي أقلتهم في منطقة تسمى (بركة فرعون) حيث غرق فرعون وجيشه.

بتوقيع اتفاقية 1925 بين الملك عبد العزيز آل سعود والشريف علي بن الحسين واتفاقية جدة 1927 بين الملك أيضاً وبين الإنجليز، دخلت جدة عصراً جديداً احتوت من خلاله نشأة الدولة السعودية الحديثة، حيث كانت مقراً شبه رسمي لها، ومنها رسخت العديد من الاتفاقيات والقرارات، وضمت أيضاً العديد من السفارات والإدارات الحكومية المركزية، كل هذا حثّ ملايين الأشخاص على الهجرة والاستقرار فيها خلال القرن الماضي.

كل هذا التاريخ في جعبة رجل ما، في بدايات السبعينيات الميلادية من تلك الحقبة ظهرت فجأة نحو السطح شخصية كانت غارقة في الغموض، تشع حولها رهبة جامحة، يستمد صاحبها كل ذلك من منصبه المرموق في مديرية الأمن العام في جدة، كان يدعى منصور عبد العزيز، يقارب الأربعين من العمر، أقرب إلى الطول منه إلى القصر، تكسوه ملامح رجولية لا تخلو من الوسامة، وبرونزية جسد مشدود جذّاب يبرز آثار مجهود سنيّ ماضيه، يتحدث بلغة محببة تميل إلى الحجازية أو المصرية ومقتطفات من لهجة أهل نجد،

كان شديد العناية بنفسه متردداً على أرقى صالونات الحلاقة التي أخذت تنتشر في مظهرها الذي نراه اليوم. وعلى الرغم من ثقافة المجتمع الضحلة تلك الأيام وثقافة العسكريين بصفة خاصة إلا أنه أوجد لنفسه الحظوة في هذا المجال، من خلال اطلاعه على العديد من مناهل الفكر الحجازي تلك الأيام وعما تصدره القاهرة خاصة وبيروت والعراق.

اتخذ منصور من البغدادية سكناً له، حين كانت أولى الضواحي التي تمردت على السور، حينما أسسها أول ساكنيها عائلة البغدادي، ثم تواصل الاتساع من عشرين بيتاً إلى مسافات تجاوزت ستة كيلومترات مربعة، انقسمت إلى قسم غربي يطل بسحره على بحيرة الأربعين وتمساحها الخطير، وهو الجزء الأروع والأحدث بقصوره وساحاته وكنائسه ومباني الحكومة التي لا تزال تشهد بأرستقراطية أيام مضت، وقسم شرقي سكنه العديد من شباب الأسر الغنية داخل السور فأوجدوا لهم مناخ حياة بعيداً عن عيون آبائهم وحديث أمهاتهم.

كانت البغدادية تعيش فلسفة ثقافية منفتحة إلى حد ما، ومثالاً جيداً لما يدور في خلد التيارات المتداخلة، من قوميين عرب وشيوعيين وإسلاميين متعنتين وإسلاميين متوسطين وناصريين وبعثيين ومتحررين وعلمانيين وجماعات تؤيد الحكومة آنذاك وآخرين يعارضون وكثيرين يقفون على الحياد، تجدها في صالونات أغنياء البلد الجدد كل حسب

توجهاته وميوله ومن خلال حديث العامة وصحف الشارع المحظورة وسجالات الكثير من الأدباء ومنهم أبناء البغدادية في صحف الدولة المراقبة.

كان لتبخّر الحلم العربي بالوحدة، ونكسة الجيوش العربية ثم نكسة شعوبها فيما بعد منذ العام 1967م الأثر الكبير في رسم أيديولوجيا الفكر العربي وبالتالي فكر الحجاز والسعودية في تلك الحقبة، كان وعلى الرغم من النشاط فتور ويكثير من الحماسة تجد الخنوع وانقلبت نشوة وحب الستينيات كرهاً في بداية السبعينيات الميلادية.

منصور أحد هؤلاء، يبدأ يومه في المديرية فيؤديه بصرامة ودقة وعنف أحياناً، وكأنه يرتدي قناعاً مغايراً لما يتفاعل داخله، وكان يعتقد أن بدائية المجتمع وجهله تريحه حينما تعرض عليه القضايا فتضحكه في تفاهتها وظرفها، فهذا يسبّ عبد الناصر والآخر يشتكيه، وهذا يريد سرقة سيارة جاره المتطفل ولكنه لا يعلم كيف يقودها فيبيعها ـ وبكل بساطة ـ من أحد البدو مقابل بقرة وقطعة سجاد شيرازي، وتبكيه في مأساتها حينما تطل عليه امرأة في هلع فطري مولولة عذاب زوجها لها، أو حين تكشف عن عصابة الاستعباد والرق للجاليات الإفريقية بعد تحريم الرق بقرار ملكي أصدره الملك سعود في عهده.

كانت ثورات الدول في العالم تروق للكثير حينها وتداعب عقولهم وعواطفهم، في آن واحد، مصر وليبيا

والعراق وسوريا واليمن ولبنان والجزائر والمغرب ودول الاتحاد الروسي الاشتراكية وحركات التحرر المدني الأميركية ودول أميركا الجنوبية وحتى الصين ودول الشرق الأقصى تناولت مشروب الثورة بنكهات متعددة، ولكن بهدف واحد بلا شك، القليل منهم حقق جزءاً منه وهو تحقيق العدالة لكل أفراد الشعب، ولكن العدالة كمال والكمال لا يتحقق قطعاً ولكننا دوماً نفني حياتنا نحو تحقيقه.

منصور بعزوبيته الفريدة كان مثار إعجاب وميزة له، ملكة النحل تختار من الخلية من يروق لها، وهو كان كذلك، في فترة بسيطة من قدومه إلى جدة كوّن لنفسه علاقات مع الجنس الآخر من قمة الهرم الاجتماعي حتى بؤساء الشارع فارتبط اسمه في عصاري سيدات التجار المخملي وأسباتهم وبنات مسؤولي الدولة الكبار وزوجات كثير من الموظفين سمعوا به أو رأوه وبنات الليل أجدن فيما بينهن قصص سهرات حمراء مفبركة وحقيقية معه.

بدأت الشائعات تحوم حوله، وهي تنشأ ولا تتوقف ولكنها تزداد شراهة، كلما ازداد الغموض، ومنصور بشخصيته غامض يميل إلى السكوت منه إلى الكلام. في أحد الأيام وبينما يهم منصور بمغادرة المديرية ليبدأ إجازة نهاية الأسبوع استأذنه مدير مكتبه بوجود شخص يريد مقابلته فتردد قليلاً ثم أمره أن يدخله:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقف منصور مندهشاً: وعليكم السلام يا أهلاً ويا مرحبا أبو فيصل منورة جدة.

– منورة جدة بأهلها كيف حالك يا منصور؟

– بخير توقعت أنك نسيتني فالحياة تعذب من يحبها وأنا أكرهها ولكنني لا زلت أتعذب أليست تلك حكمتك؟

– ذاكرتك كما هي نشيطة ملهمة كما هي صورتك لم تتغير منذ عشر سنوات.

– هل ما زلت في أمن الرياض؟

– حسناً لقد تركت العمل العسكري منذ سنتين وبلا رجعة، فالعسكري يعمل أشياء يكرهها دائماً وأنا الحمد لله أحب الحياة كما كنت أردد فوجدت أن العسكرية تعارض حب الحياة وتوصلت أن أقدم استقالتي مشفوعة بأسباب طبية لتبرير قرار الاستقالة وها أنذا أمامك أعيش حياتي بكل ما فيها...

– قطع كلامه منصور: في أي وزارة التحقت إذاً؟

– وزارة العقارات هههههه.

– ها أسمع أن سوق العقارات بدأت تجتذب العديد من الناس من التجار والمغامرين.

– بيني وبينك أصدقك القول. البلد مقبل على طفرة أساسها العقارات ولسوف يأتي هذا اليوم قريباً.

– سوف أصدقك إذا أتيت معي للبيت لنتناول طعام الغداء سوياً.

- اعذرني يا صديقي فمواعيد أحم أحم! رجال الأعمال مثلي دقيقة ولكنني أعدك أن آتيك هذا المساء.

- حسناً أنا أسكن في البغدادية اسأل أي شخص هناك سيرشدك إلى بيتي.

- أي شخص! لما هل أصبحت مشهوراً إلى هذه الدرجة!؟

- إلى حد ما، فقط حاول الليلة وستعرف هذا بنفسك.

- حسناً إلى اللقاء.

- لا تتأخر إلى اللقاء.

وفي المساء، أعد منصور العدة للاحتفال بصديق العمر أبو فيصل، تحدث إلى زعرور العبد صاحب محل الأدوات الموسيقية وملك العود ليحيي تلك الأمسية، جاره السيد حسين جمجوم الثلاثيني الرحال وقد استغرب وجوده في جدة فهو دائم التنقل حول العالم على الرغم من تدهور تجارته التي يزعم هو توسعها، ابن العمدة مروان الذي كان شرهاً في أكله وشربه ونسائه وبذخ ملابسه وحديثه بدرجة مفرطة ومضحكة، وزميله الملازم تركي القادم للتو من الرياض، وما أن اقتربت الساعة من الثامنة مساءً حتى تكامل العقد، العديد من أصحاب منصور وقد تأهبوا لاستقبال صديقه، أملوا أن يخرجوا بنور يبدد ظلام منصور، ويعرفوا هذا الغريب المحبوب المرهوب في نفس الوقت، فقد تآلفت النفوس على

الحذر معه والخوف منه، رغم تبسطه وتواضعه، ولكنهم يرون في ذلك تمسكن المسكين لا تواضع المسالمين.

اقترب أبو فيصل من إحدى وكالات الأقمشة سائلاً عن منزل منصور، نظر إليه البائع وقد أبدل ابتسامة التاجر المصطنعة بابتسامة ارتباك، يشير بالتفصيل وموضحاً له ما قد يجده في طريقه، همّ بالانصراف، يلتفت إليه في ريبة، انطلق أبو فيصل وقد أخذ الشك منه مأخذه، ينادي أحد الباعة المتجولين بجودة بضاعته بلهجة صنعانية قحة جذبت أبو فيصل لشراء بعض قطع صوفية منه ثم بادره بالسؤال عن منصور فرد عليه في براءة:

- صاحب البلد!
- نعم أتعرفه؟
- ومن لا يعرفه الله يخلي الحكومة!
- ماذا تعرف عنه؟
- والله أعرف أنه رجل مثله مثلي ولكنه مخيف!
- لماذا؟
- الكل يحذر منه!
- أتعرف أين يسكن؟
- نعم هناك زقاق البحر اعبر من خلاله حتى تجد مسجداً كبيراً ثم تقدم باتجاه الشمال حتى تجد بيته منعزلاً يحيط به سور بلون أخضر.

وفعلاً كان البيت منعزلاً حديث البنيان، بدور واحد وقد

أحاط به سور أخضر مغاير لعادة الجداويين في تبييض بيوتهم، بدا له أن أحداً يراقب خطواته كلما شارف على الوصول. أخذ يتلفت حوله ويتوقف بسرعة لعله يمنع شكوكه تلك التي اعتقد أنها ستنتهي بمجرد وصوله إلى باب صديقه، طرقه حتى انقطع الصوت والصدى في الحي، وكأن ساكنيه يراقبونه حتى سمع خطوات خلف الباب، يد أخرى تحرك ضبة الباب.

"الناس يخافون أن تظهر سوءاتهم.. لكنهم ببساطة يخرجون لمشاهدة سوءات غيرهم ويتلذذون بذلك المشهد".

عبده خال

3

تقارب الساعة الرابعة فجراً في أحد شوارع جدة، (نيويورك العربية) لا تعرف النوم وإن أغلقت أسواقها ومراكز الترفيه. تتسلل من تحت الغطاء وتداعب آذان السهارى موسيقى صاخبة تارة وآسرة تارة أخرى، يصل شباب تلك المدينة ليلها بصباحها، ملحمة واحدة تروي لهم بطولات وتأوهات، مشاكل وصولات، ودعوات تشق عباب السماء رجاءً، ومشاهد تدمع عيون الملائكة أسى، وأحاديث تملأ الكون صدى، وأحلام تحرث بحرها ووعود تكتب شهادة

ميلادها ثم تدفن نفسها. يفخرون أن نمط ليلهم يمضي هكذا، لا يرون للنوم ليلاً رهبته المعتادة، ولا يحمّلون سكون الليل وزر تخيلاتهم اللذيذة، ولا آهات صرخاتهم اليتيمة، حتى تستقبلهم جامعاتهم ومدارسهم ووجوه رؤسائهم في تلقائية، وقد بلغوا قمة نشاطهم في أولى ساعات صباحهم ثم لا يلبثون أن يسدلوا ستار النشاط السـاعة 10 صباحاً وتبدأ المسرحية "قوم غسل وجهك". "إطلع يا زفت نام في بيت أمك لا تنام عندي". "يا كلب تعال اجلس قدامي تحت عيني". "شخص ما يبصق على آخر لأنه نائم في حضرة العلم والمعلم".

في الجامعة العتيقة الكبيرة الوحيدة تقريباً في جدة، كان بسام عبد المحسن العامر أحد الطلاب من أكبر العائلات في المنطقة، ينطلق بسيارته الفارهة كل صباح من أحد القصور في أحد الأحياء الفخمة في شمال المدينة، نحو الجامعة في الجنوب متخذاً الطريق الشرقي السريع سبيلاً للذهاب والعودة، كان يسلي نفسه بالذهاب للجامعة، فهو ينظر إلى الشهادة الجامعية رتوشاً لتجمل سمعته، لتحسن من مظهر رئيس مجلس الإدارة القادم، وأيضاً وسيلة عملية للوصول إلى أغراض أخرى، يخبئها تحت ابتساماته المتعددة والمثيرة.

بسام شاب في مقتبل العشرين، مثال جيد لأبناء أبناء الطفرة، والده عصامي بنى ثروته بعد قدومه من أميركا، مبتعث من قبل الحكومة السعودية في بداية الثمانينيات

الميلادية، حاصلاً على الماجستير في العلاقات الدولية من جامعة جنوب كاليفورنيا، ابتدأ حياته العملية في مجال العقود والاستشارات القانونية، تهيئة لآلاف الشركات المتلهفة لدخول السوق السعودية الشرهة البكر قانونياً؛ واستقطب العديد من المحامين العرب وافتتح العديد من مكاتب المحاماة في أنحاء السعودية، حتى ارتبط اسمه بالمهنة، وأصبح خلال سنوات قليلة من أكبر رجال الأعمال في هذا المجال؛ وأخذ يحر بعلاقاته كالأخطبوط في مجال الماركات والوكالات من اتصالات وأغذية وتموين ومستلزمات الصناعة والطب وخبطات العقارات وحتى حقوق إصدار للعديد من المجلات العالمية بنسخ عربية، وامتد نشاطه مشاركاً في عدة مجالس إدارة لشركات أخرى وعشرات الجمعيات والمراكز.

تزوج عبد المحسن أثناء سنوات دراسته في أميركا بزميلة له في نفس جامعته تدعى كريستينا، بالرغم من معارضة أهلها وكذلك بالطبع أهله بعد ذلك لكن الزواج حصل، واستمر فأنجبت له بنتين وولداً هم على التوالي: سارة وجوري ويسام، ومضت بعد سنوات الحميمية الأولى سنوات المصالح بين الزوجين، هو بانشغاله بل انغماسه في توسعه المطرد، وهي في متابعة حوارات وموضات وسهرات سيدات الأعمال، وخصوصاً سلسلة مشاغل السيدات الراقية التي أطلقت عليها اسمها بعد إسلامها نسرين الجميلة.

قبل سنوات، وفي إحدى ليالي الخميس، توقفت سيارة

فارهة انبعثت منها موسيقى غربية كلاسيكية، وجلس خلف المقود فتى في السادسة عشرة من عمره، أخذ يقلب ناظريه ويتلفت في يقظة نحو مرتادي الشارع المظلم المهجور، وكلما مضت الدقائق ازداد خفقان قلبه الصغير، وتراقصت يداه الصغيرتان كلما عبث بجهاز التسجيل، دقت الساعة معلنة دخول ليلة أخرى ويوم آخر وبدا له أن للأيام صراخاً كصراخنا حين مولدنا، وأخذ يفقد الأمل وترددت أفكار غريبة وأخرى للذة دفعته وهي الأقوى ليمرر يديه نحو عنقوده الصغير أيضاً، راودته نفسه بالرجوع من حيث أتى أدار محرك السيارة، جالت عيناه العسليتان في المكان مستطلعاً وتقدم قليلاً ثم انطلق.

ما أن بدأت خدمة الإنترنت تعلن عن نفسها في السعودية في منتصف التسعينيات حتى عدت للكثيرين ترفاً محضاً، فمن يجرؤ على دفع أسعار ساعاتها النارية التي تفوق 10 دولارات للساعة الواحدة، ولكن بتقادم الخدمة وانتشار التقنية تهاوت أسعارها، وازداد مرتادو المنتديات واستقطبت وبكثافة العديد من مرتادي الشارع المنغلق، فغدّت متنفساً للبعض ومصدر ترفيه وانطلاق وإبداع وأشياء أخرى لكثيرين. كان اطلاعك على الشبكة مظهر حضارة وتقدم وحداثة، وأحياناً كفراً باعتبار أنه اختراع غربي قذر اخترعه المتآمرون لتدمير الأمة في أعز ما تملك وهم شبابها وفتياتها. كان الأغنياء أوائل المحتفلين بتلك التقنية فوفروها لأبنائهم بداعي المعرفة

والاطلاع ودواعٍ مخفية للمباهاة والمجاراة. كانت المدارس مراكز تعلم، كما هو المعتاد ولكن لتعلم أروع المواقع وأكثرها إباحية. ثارت نفوس وتكشفت أغطية، وانفتحت عيون وبكت قلوب، وكانت أمواج تعلو وأمواج تتلاطم وتغير شواطئ طالما اعتادت الهدوء والدعة والانكسار.

كان بسام وسيماً، أو بمعايير أكثر دقة آية في الحسن، بجسده الأبيض النحيل وعينيه الرائعتين، كعيني أمه الأنجلوسكسونية. شعر يخامره لون أحمر داكن يشع كلما سلطت الأضواء، أو الشموع عليه، وأسنان صغيرة دائمة الإغراء، وشفاه رقيقة يزمها ليظهر غمازتيه اللتين أعلنتا يوسفية بسام، وملامح دقيقة تزداد رونقاً وجذباً كلما نضجت رجولة تنتظم في جمل صارخ نحو الأطراف.

في مدرسته أثار إعجاب العديد من معلميه وأقرانه ومستخدمي المدرسة، كان الأول في كل شيء برغبته أو بدوافع يجهلها، أو يتجاهلها في الحقيقة، كان يشعر بحرارة الأجساد خلفه، عند اقترابها منه في أماكن الازدحام سواء أوقات الحضور أو الإفطار أو الانصراف، وأي مناسبة أخرى تستغل للاقتراب من جسده.

لا يعلم من كان وراء منهجية التعليم في تقدم الوسيمين من الطلاب الصفوف الأمامية في الفصول الدراسية وغيرهم (الشواكيش) في آخرها. كان معمل الحاسوب ثورة علمية حقيقة في مدرسة بسام، منه رأى الفحولة تشده من حيث لا

يدري، انتشار الأشرطة الإباحية المثلية التي تصور حياة المثلين الهائمة، وقد احتضن بعضهم صديقه وتلاصقت الشفاه والأيادي والأرجل، وحتى ضحكاتهم من فرط السعادة واللذة، كان كل هذا يحرك نشوة الجنس في مواضع مختلفة من تلك الأجساد الصغيرة، لا يلحظها أحد باستثناء قدامى الطلاب أو المعلمين وحينها تحيك العناكب الشباك لفرائسها، حتى تقع وترتفع الرايات الحمراء، معلنة احتفال المدرسة بميلاد مثلي جديد في شوارعنا.

كانت أروقة المدرسة وبهوها وفصولها ومكاتب معلميها ومعاملها ومسرحها المغلق ذو الستائر الحمراء مسرحاً للروايات المثيرة المتداولة، لا تخلو من أفكار المراهقة الحالمة، يزداد اشتعالها بدلائل استجابة الأطراف الأضعف للأقوى بإشارات متعارف عليها وكلمات كانت دستوراً للمثليين في الرفض أو الإيجاب أو حتى الانتظار، تختلف باختلاف الجيل والمجتمع، ولكن الجميع متفقون على انتشار بروتوكولاتها في أوساط المراهقين، بعيداً - وبكل أمانة وموثوقية - عن الأسرة وحرصها ونظرتها وفلسفتها، وأشد بعداً عن رجال الدين طبعاً.

في السنة الأولى الجامعية طلب أحد الأساتذة مقالاً حراً يكتب فيه الطلاب ما تخبئه صدورهم وما أثار عقولهم بعيداً عن تقليديته المعتادة باختيار المقالات الجافة عن الصدق والأمانة والتاريخ والشجاعة ليشير أنه الأستاذ المساعد

المتحضر المؤمن بشيء طارئ بدأ الاهتمام به يدعى الحوار، أمسك بسام قلمه وانزوى وبدأ يكتب وهو يتلفت، الموضوع سري إلى حد ما.

فن المثلية لعب في الممنوع، يشتهيه كثير من الأشخاص في السعودية، إما هواية أو احترافاً فالأحكام العامة والإسلامية تحرّم اللواط وتجرّمه وتستنكره ولا تستسيغ حدوثه، وأحياناً لا تتوقع حدوثه، ولكن أوهام الممنوع الخطير المهلك تنتشر انتشار النار في الهشيم، فلا يكاد يخرج من قصصه أحد شبان المدرسة أو الحي أو القرية ومراهقيهم وتندفع بهم فطرة الشهوة نحو بعضهم البعض، لتحرق تلك الطاقات ولتهدر الكثير من أفلام أحلام اليقظة المروية.

تتوعد الحكومة جميع هؤلاء بقوانينها بالقتل لارتكابهم فعلاً مشيناً، خالفوا فيه الفطرة وابتعدوا فيه عن طريق التفريغ الصحيحة عن طريق الزواج والزواج فقط، وتعلن بين الفينة والأخرى إقدام المدعو فلان على فعل الفاحشة المشينة بعلان، فيقتل الفاعل والمفعول فيه وتموت القضية، ولكن نيران الآخرين لا تخمد.

يصحب السائق الآسيوي بساماً وشقيقته كل صباح إلى المدرسة، ثم يبدأ رحلته المعتادة بالذهاب إلى إحدى الشقق المستأجرة من قبل أصدقائه، يعيش حياته قبل مجيئه إلى البلد، علاقات مع أشخاص يواعدهم كل مساء جمعة في

أحد المجمعات الشهيرة وسط البلد. وإذا أراد أن يكسب اللقاء طعمه الخاص، لا يمنعه إلا الذهاب إلى بار الشقة حتى يغرق قلبه من نبيذ وطني، عرق الشعب، ليعيد له أجواء وطنه. اعتاد الأصدقاء ترديد البعض وتغطية وجوههم بعمائمهم لحظة دخولهم الشقة، لا يبقى بعد دخولهم إحدى الغرف إلا غطاء الفراش، ليبرهن أن فلسفة الحياء لم تزل وتلك بعض آثارها تمضي ساعات وأياماً على ديدن السائق، حتى تتسع دائرة معارفه ويرى من خلال الشقة تضارب أفعال وأقوال، وتضاد ما يسمع وما يرى، وانكشاف الحقائق وسقوط أوراق التوت، يعم شره وتحتقر نظرة الخير في عينه.

أثناء المساء جلس السائق وحيداً في غرفته يسترجع تفاصيل ذكريات آخر فرسانه، استبد به الشبق وبلغت به الإثارة مبلغها وأخذ يطوف حول نفسه وحول الحمى، ويراودها للذهاب إلى الشقة فلن يلحظ أحد من الأسرة غيابه، غادر الغرفة وسار خلال حديقة القصر العامرة، فرأى بساماً يعوم في المسبح وقد لمع بياضاً وإشراقا وبلوغاً أيضاً، فهو يخطو للتو سنته الرابعة عشرة، بهرته جرأة شهوته، ولكنها طمأنينة عقله هي التي دفعته، إنه مجتمع يتشدق بالقيم في زمن الرذيلة. تسلل نحو المسبح مبتسماً ومتشجعاً ببراءة، انتهى الطفل الصغير من عبثه وفرحه، وامتدت يد السائق لتجفف بلل جسد بسام، وحينها بدأ الثعلب قصته الرائعة ناصحاً الحمل الوديع بالذهاب معه إلى غرفته، لمشاهدة

التلفاز معاً، ولم يتردد فهذا جوزيف لسائق الذي يوصل العائلة إلى أي مكان تريده، والأب لا يراه ولا يعرفه إلا أيام الجمعة.

فرحت العين الصغيرة بمشاهدة البرنامج الكرتوني، ولكنها اندهشت ببرنامج آخر تبعه يبتسم فيه الأبطال وقد تعروا تماماً، ثم ما لبث أن انفجر الطفل الصغير إثارةً، حين تسللت يد السائق نحو عنقوده الصغير.

"رفسة من فرس، تركت في جبيني شجاً،
وعلّمت القلب أن يحترس".

أمل دنقل

4

حدق الطبيب في وجه ذلك الخمسيني، أجواء صامتة قاتلة، يعد دقات ساعته وارد (صليب)، أهداها له العم مسعود حين عمل عنده قبل ثلاثين عاماً، وكأنها ملايين الأعوام، أعاد نظرة الأطباء التفحصية نحو أوراق أمامه، امتدت يده تحرث جبينه، بدأت نظرات ارتباك تنتشر في المكان، حاول ولكن بوضوح أن يدافع بابتسامة باهتة، ثم بدأ موسم الكلام، الكلام المؤثر، حيث يكون للحروف صدى، وللجمل قوة، وللأفكار معنى:

- عزيزي صالح لا أريد أن أخوفك وفي الوقت نفسه

أريد أن أصارحك القول إن حالة مثل حالتك مستعصية، كما تشير التقارير المخبرية وفحوصات الأشعة المقطعية وصور الرنين المغناطيسي أن السرطان خبيث وهو في طوره الأخير نتج بالطبع عن ما كنت تعانيه من تليف كبدي، المثير في الموضوع أن نشوء الالتهاب المسبب للسرطان لم يستغرق سوى أقل من سنة كما تثبت تقارير المستشفى.

بدأ صالح في الغليان حتى أحس الكون بانفعالات جوفه، وشطط عقله ودهشة عينيه، انكسر أبو اليتيمة، لم يكن يعي حينها لغة الطبيب الذي استمر مسلسله الدرامي المبكي في حلقته الثانية:

- أخي صالح، أنت رجل مؤمن أريد إخبارك أن استفحال السرطان أدى إلى وصوله الآن إلى مراحل متأخرة فعلاً، متأخرة جداً. وإن كنت حسن الطالع فإنك ستعيش بضعة أيام أو أسابيع في أحسن الأحوال.

أخذ صالح يردد أناشيد أمه وصويحباتها في صباحات أيام طفولته وكأنه عاد طفلاً فاقداً أحاسيس الرجولة، حتى خفت روحه وذهبت ذكرياته كلما ازداد صوته ونشيجه، أعاد الأناشيد مرات ومرات نزل السهول، سقى البلاد، رعى الأغنام، اختلس بعض الفاكهة وهو ينشد في زهو، عبث المرض بالذاكرة، احتضن الطبيب وصرخ، وكأنه البركان "وأين أتركها ومن سيرعاها؟؟".

وأغمي عليه.

بعد ساعات من تلك الإغماءة، استيقظ صالح وقد تملكه الذهول للتو وكأن كابوساً لعيناً قد حل به، وخلف صداعاً اعتاد عليه في أيامه الأخيرة، أخبرته الممرضة بما حدث فازداد ذهولاً. حسناً فلقد كان كابوسه اللعين حقيقة مرة.

تطلعت نحوه ساعته الصليب وكأنها تقول:

- يا صاحبي والله إنك خير مثال لاسمك، أتذكرني حين تقلدتني قبل ثلاثين عاماً، كنت فتية أرمز للغنى والأرستقراطية، لا أخفيك كنت أكره عمك أو من كنت تعمل عنده، حينما أطل بوجهه المتجعد عليّ في أحد الأسواق ودخل المحل وأخذني معه، كنت أريد فتى مثلك يحنو عليّ حين يراني وأرى العالم وروداً معه، أتعلم أن أختاً لي قد اشتراها أميركي، كان ذات صيف يزور صديقته الأوروبية، ومنذ ذلك الوقت كنت أحسدها، كانت تغمض عينيها في حياء كلما تبادلوا القبل والأحضان، كم كنت آه آه، كنت فعلاً مراهقة تلك الأيام، ولكنك أذهلتني دوماً، كنت الفارس العربي الذي كنت أسمع عنه، كلما تراءت فكرة العرب في أذهاننا، فلا تترجل. ويربك أين بهجتك؟ هل تخاف الموت أيها الشجاع؟ أرجوك فأنت بطلي، عرفتني صبية وتمرّغت في جنان حياتك المثيرة المحبة، هل أطربك بأبيات شاعرك الأثير؟ أواه ومن يعرفه أيها الجنوبي الصعلوك غيرك أنت؟ احم احم!

في اليوم الذي أموت فيه
ستمر جنازتي
لكن لا تظن أن قلبي سيبقى على الأرض
فلا تبكي ولا تترحم عليّ "آه كم هو مريع"
ستقع في فخ الشيطان للأسف إنه مريع
لا تبكي على قبري قائلاً: "وآسفاه رحل"
فإنه لي زمن اللقاء البهيج
ولا تقل وداعاً حينما أوضع في القبر
فهو ستار للرحمة الأبدية
أنت رأيت النزول فانظر الآن إلى الصعود
هل الغروب خطير على الشمس والقمر
إنه يبدو لك غروب ولكنه شروق
والكفن سجن لكنه يعني الحرية
أي بذرة سقطت على الأرض ولم تنمو هناك؟
فلماذا تشك في القدر، أن الإنسان بذرة؟
وأي دلو أتى فلم يمتلئ من الحوض؟
فلماذا تخشى روح يوسف هذه البئر؟
أغلق فمك والآن افتحها في ذلك العالم
كي يغدو لتسبيحك صوت
من حيث لامكان.

أعلم أنني زدتك أحزاناً فأنت رجل قدره الأحزان، اعتدت أن تنطلق أفراحك من قيعان آلامك، أن تقطف ثمار

سعادتك من حقول كآبتك، انهض جاداً، هناك فتاة رقيقة كرقة أيامي في شبابك تنتظرك.

تقدم نحو مركز الاستقبال في ذلك المستشفى الحكومي العتيد منهياً إجراءات الخروج، خرج وكاد يسقط عدة مرات من شدة الإعياء، قهره المرض واستبد به السرطان، فقد أرطالاً من وزنه ولكن ذاكرته أثقلته كثيراً حتى طغت عليه، تارة يهذي رغماً عنه بأيام خلت، وتارة تسلل الحروف دموعاً تسقي وجنتيه القاحلتين.

تهادى بخطوات واثقة في شارع المستشفى حتى تقدم نحوه أحد الأشخاص سائلاً:

- أتريد أن أقلك يا شيخ؟

- فرد بحزن: إلى أين؟ إلى بيتي؟ وماذا أقول لها؟

- إلى آخر العالم إذا أردت. وقد أحس أن البؤس رجل أمامه.

- إنني ذاهب إلى هناك لا محالة.

أمسك بيديه وقد كاد يسقط، فاندفع شخص آخر يساعدهما حتى انطلقا بالسيارة، وأخذ يهذي للغريب بقصص متداخلة كهذيان المجانين. تتقاذف اللاعنات، يتخلل الصمت خلال البوح، حتى اقترب من منزل أشار إليه في إحدى حارات جدة القديمة، مردداً عبارات الاستجداء لذلك الشهم بتشريفه، وردود الاعتذار، ينظر سائق التاكسي نحو الرجل،

وإحساس بالدفء يجذبه، أراد أن يعرف قصة الرجل البائس، فهو يعيش بالقرب منه.

منزل شعبي يحوي ثلاث غرف، واحدة له وأخرى لابنته الوحيدة وثالثة لضيوفه وضيوفها، تكاد تسكن البساطة بيتهم، تشاركهم الجدران المتصدعة، تظهر في كل شيء من سجاد غرفة الضيوف التقليدي وجلسته العربية إلى بساطي النوم الأرضيين، والمطبخ الصغير ذو الأطعمة اللذيذة، وبيت الخلاء العربي، إلى بهو المنزل الذي يستقبلك ماتور(*) الماء فيه بصوته الشادي معلناً قرع طبول حرب المياه في المدينة.

تقدمت الفتاة بلهفة نحو أبيها:

- أبي أين كنت؟ لقد أعددت لك أكلتك ومفاجأة أخرى سوف تفرحك.

- الأب وقد بدأت أساريره بالانفراج: حسناً أخبريني بالمفاجأة لعلها تفرحنا قبل...

- سألته الفتاة: قبل ماذا؟

- قبل العشاء.

- حسناً لقد أخبرتني صديقتي أنني حصلت على مرتبة الشرف الأولى في الكلية وأخيراً انتهيت...

كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير، لم تقتله ولكنها جعلته يتألم، ظهر لألمه صوت وأنين صارخ، وكادت وجنتاه

(*) ماتور: دينامو الماء.

أن تسقى مجدداً، تدارك كل هذا، وبحديث الأبوة الطاغي حناناً في مواقف كهذه باركها، أمر الفتاة أن تعد الطعام حتى يستعد، ذهب إلى الحمام ثم أخذ كعادته في فرحه وغضبه يعيد مراجعة نفسه وترتيب أوراقه هناك، انتعش بالماء وبدفء الحمام قليلاً ثم خرج، أخذت العصفورة تغرد في دعة وقد بلغ بها الفرح مبلغه، ولِمَ لا وقد حققت هدفها وأمل الأب الذي انتظره منذ سنين بشهادة البكلوريوس في الأدب الإنجليزي من كلية البنات المحلية، وأرضت غرورها بمرتبة الشرف الأولى لتبرهن لصديقاتها فلسفتها التي ظلت تجادلهم في أحقية المجتهد وليس غيره بأفضل الأشياء، قصة قديمة في مدرستها جعلتها تبني فلسفتها تلك، الإنسان حياته طفولته.

كان الأب كل الدنيا لتلك الفتاة، لم تعرف سواه أحداً ولم تحدث رجالاً غيره، باستثناء سائق الباص المسن ومرات تكاد تنسى رجالاً آخرين لا تذكرهم أو تحاول جهدها أن تتناسهم، بالرغم من وسطية الأب دينياً إلا أن حياء الفتاة طاغ على مناحي كثيرة من شخصيتها، هي وبالرغم من لطافة حديثها وطرافته وجاذبيته إلا أنها تنير خديها الحمراوين عندما تحرجها إحدى زميلاتها أو معلماتها، لا تحتمل أن تكون في مواجهة مع الآخر أياً كان، وإذا حصل فإنها تفترس عينيها فتنزف دموعاً تكسب وجهها الطاهر صفاء وبراءة. شخص واحد حل عقدة حبها أخيراً واستوطن بسلام في قلبها.

نورة متوسطة الجمال، شعر أسود فاحم ينسدل كالشلال

طولاً وغزارة، ليشهدنا أن للبياض معنى، شفاه مكتنزة تزينها بأحمر الشفاه بخفة ليظهر ملامح الإبداع البسيط، عينان واسعتان مثيرتان أحاطتهما بكحل قد اندثرت عادة استخدامه بين الفتيات، ولكنها تقليدية الأب في تعليمها وسائل الزينة وهي صغيرة يتيمة، ولا تزال متمسكة بالكحل، نقرة تتوسط ذقنها الأملس، رسم الرب جسدها، طالما استحسن البروز تمرداً، وعندما يراد له التقلص فهو يتكور في انسيابية، يظهر عقدها اللؤلؤي الأبيض دائماً في حال الصمت أو الحديث، تبهر الأشياء حولها بابتسامتها الجذابة، تهتم بنفسها بقدر المستطاع، وكم كانت سعيدة عندما ذهبت مع إحدى صديقاتها إلى الكوافير لأول مرة للتأهب لزفافها، محل الكوافير الأشهر، (نسرين الجميلة)، كانت مثارة فعلاً، فهذه اللبنانية هي السيدة الأولى هناك، تتحدث بدون تكلف، عن أمور تعتبرها نورة مخلة، لا تستطيع أن تتخيل حدوثها، وإن كانت بين سيدات فقط، أخرى قد نزعت عن جسدها الممتلئ كل ما أثقله من ملابس وحلي، أخذت تحادث رجلاً بالهاتف في خبث، حتى انتهت العاملات الآسيويات من عمليات نزع شعرها، كانت ترى أن حياء تلك السيدة نزع مع شعرها، تذكرت حديث إحدى معلماتها، أن الفتاة التي تنزع ملابسها خارج منزلها ولأي سبب فهي داعرة فاجرة.

إنها النقود حسناً، لم تفتها لوحة الأسعار لتقلص الرتوش إلى حدود نقودها القليلة، اقتصرت الكوافير - وقد

بدأت التأفف بعد محاولات لزيادة المبلغ - على الشعر وماكياج خفيف، فأموال الجميلات والقبيحات حولها تتساقط، وتزداد كلما أثارت اقتراحات الكوافيرات شغاف قلوبهن بذلك الشعار "دعنا نغيرك واستمتع بالحياة".

كان الأب معتاداً أن يحكي لابنته مواقفه اليومية في سرد تطرب له كل أذن، بأسلوب الحكواتي المندثر فيحول مقابلته مع صديق له إلى لقاء عظيم، وكأنه أثر في تكوين العلاقات الإنسانية، وشجار مر به في أحد الأزقة إلى حرب بسوسية أثارت غبار المدينة كاملة، وكثيراً ما أثرت تلك الحكايات في حياة الفتاة وطريقة تفكيرها، حتى أصبحت مرهفة لا تعرف لعراك الأيام مكاناً في عالمها الدافئ، أراد أن يخبرها الحياة في صورته هو، فالأيام لا تخبئ أحداً.

في تلك الليلة أنصتت الفتاة، ليبدأ الأب قصته حينها توقفت كلماته، تلعثمت حروفه وأخذ لسانه الثقيل يتحرك، دافعاً صراخ الآلام وذكرى الأيام ثم بدأ يروي القصة.

"الذكاء مشكلة.. والتفكير مرض".

ديستوفيسكي

5

- تبدو لي مثقفاً!
- نظر إليه مصطفى بخبث: لماذا؟
- حديثك وأسلوبك ونظرتك للحياة وللأحياء كذلك.
- مشكلتنا أننا لا نحاول أن نفهم أن الثقافة أسلوب حياة، الثقافة تمارس ولا تدّعى.
- كل إناء بما فيه ينضح.
- أحياناً نستعير آنية الآخرين كما يستعيرها الفقراء في مناسباتهم.
- هل تكره الفقراء؟
- أكره الفقر.

مصطفى، رفيق المقهى مكتشف خالد، مصري الجنسية فلسطيني الأصل من عرب 48 من مدينة الناصرة الفلسطينية الشمالية، التي تعتبر مدينة مقدسة في الفكر اليهودي في قصص ارض الميعاد، وفي الإنجيل ببشارة الملاك جبرائيل للسيدة مريم العذراء بولادة عيسى المسيح. أخذت اسمها من نصارى المسيح الذين نصروه. وعلى الرغم من حملات العبرية في المنطقة إلا أن اسمها لم يزل ولم يتغير.

هو ابن أحمد تحسين الشيخ، أحد صاغة المدينة الأوائل وأحد أعيان المدينة القديمة، كان أيضاً من كبار سماسرة العقارات، يبذل جهده في إغواء أهل القرى الفقراء لشراء مزارعهم ومنازلهم الخربة بمبالغ مرتفعة جداً، كانت فلسطين البسطاء قد سمعت عن هؤلاء السماسرة، عن غبائهم في تسابقهم لشراء المزارع والأديرة وأراضي المشاع، يتفانى بعضهم في التفاوض أثناء البيع، وأي وطن باعوا، وأي ثمن قبضوا. شعر أحمد تحسين تغير اللهجة من الود إلى الاحتقار، ومن الرجاء إلى الأمر، أوجس في نفسه رعباً من العميل الألماني الذي يتردد لمقابلته بين حين وآخر، تارة يحدث نفسه بوجوب كسب ود هذا العميل الذي يكسبه أضعافاً في كل ما يبتاعه منه، وتارة يشعر أيضاً بغباء هذا الإفرنجي، فيا طيور الغباء غردي لحن فلسطين المتواكل وأشعلي نيران الحروب في العرب وحولهم.

بعد هذه الحادثة وبعد عدة سنوات انطلقت سفينة من بيروت، تحمل على ظهرها رجلاً في منتصف العقد الخامس من عمره، طربوش أحمر وأناقة مفرطة. اتجهت السفينة نحو مصر الملوك آنذاك، وما كادت تطأ قدماه أرض الإسكندرية حتى أخذ يحث السير نحو القاهرة وفتح محلاً للذهب هناك.

في العام 1948 أعلنت الدولة الإسرائيلية على ثراء السهول والجبال والشواطئ والمدن والقرى التي بيعت، لتكتمل بعدها فصول مسرحية الغباء الهزلية، غير التاريخ مجرى أحداثه وفجأة وجد العرب أنفسهم وحيدين، وقد جزأتهم الحدود لأول مرة في مواجهة حقيقية مع أصدقائهم الإنجليز والفرنسيين والروس والأميركان، وقد اقتسموا الكعك العثماني بعد الحرب العالمية الثانية، استبد بهم الجوع، بدأ اللعاب بالسيلان، مزق الخبز العربي، تصدرت المنطقة أخبار العالم وأثرت وتأثرت بسياساته بعد غياب تجاوز قروناً مضت في ظل دولة المماليك والدولة العثمانية ومنتدبي الأخيرة المستبدين في سنين الضعف والموت.

تزوج المصري أحمد بعد النكبة بعامين، طليقة أحد الأمراء، سكنا ضاحية الزمالك ومرت بهما سنون الخمسينيات العاصفة، من حسن حظ أحمد أنه يكره السياسة، فهي بزعمه تقتل من يعشقها وتعذب من يتعاطاها، السياسة تقتل حس التاجر. لم يكن يبجل الملك وحاشيته كما بجلها آخرون كثيرون، ولم يعبد فرقة 23 يوليو/تموز وعبد الناصر كما

عبدها كثيرون، كان رجلاً بين الاهتمام واللامبالاة في نواحٍ كثيرة من حياته وعلاقاته، بعد ست سنوات أنجبا ناصرة نسبها هو إلى مسقط رأسه الذي أيقن أنه فقده وبكل أسى للأبد وهي إلى الزعيم عبد الناصر في سنين قمته وأنجبت مصطفى في بداية الستينيات.

بعد سنة من ولادة مصطفى اتهم والده بارتباطه بالحزب الشيوعي المحظور، كانت الوشاية من أشخاص دفعتهم غيرتهم من سطوع نجم هذا الفلسطيني الغريب الذي لم يتحمل عذابات المعتقل فعقره المرض بعد أيام من دخوله حتى مات حرقة وغيظاً.

- أحسن الله عزاءك، والبقية في حياتك.

- حياتك الباقية بعد أربعين سنة أتيت لتعزيني؟

- أيام العربي حزينة، يعشق المجد وينثره، ويشدو العز شعراً وهو غارق في وحول الذل والهوان.

- أحياناً تروقني أنفته وشكيمته فهي مدعاة للفخر بخصلة عربية جيدة.

- حسناً والرقص الشرقي؟

- بعد أن تطلع إليه مرتادو المقهى مستغرقاً في ضحك هستيري: هل جننت وما دخل ما نتحدث عنه والرقص الشرقي؟

- لا أدري فكرة طرأت فجأة، ولكن ألا يحق لنا. إننا مخترعو الرقص الشرقي الذي عجزت نقراوات الغرب عن

تلليل خصورهن له: لتموج ودقة فتياتنا، فهو خصلة عربية أخرى نفخر أننا الأوائل فيها وسنظل كذلك.

- لا أدري إن كنت هازئاً أو جاداً ولكنني تذكرت حادثة أخبرتني بها والدتي في صغري.

- تحدث فليلتنا طويلة.

- كانت محلات أبي العامرة قبل الثورة - وقد فقد كثيراً منها بعدها - تتشرف بأعيان القاهرة والمدن المجاورة لها لشراء بضاعة أبي الواصلة للتو من أرقى متاجر الصاغة والجواهر في لندن وجنيف وباريس. كان يستقبلهم أبي بلهجته الهجين، التي تميل إلى العربية الفصحى فيعتقدون أنه من الخواجات، عقدة الأجنبي، يقيناً أننا ما زلنا نفرط بثقتنا في تعاملنا مع الغربيين. في إحدى الأمسيات دخلت سيدة فصرخ أبي مرحباً ومهللاً. جلست تلك السيدة في صدر المحل وأخذ يعرض أمامها أروع ما يحويه محله ويتودد إليها بكبرياء ويقدم عروضه وكأنها هدايا حتى راقها عقد تتوسطه لؤلؤة صافية فأخذته وهمست عند خروجها مبتسمةً كهمس أحد عمال المحل في محادثته لأمي.

- أتعلم من تلك السيدة؟

- لا بالطبع لم أكن موجوداً حينها.

- تحية كاريوكا.

- آه! سمعت عنها.

الكل يعرف عنها جانبها المضيء كرائدة الرقص الشرقي

في مصر ولكنها في جانبها المظلم السري سياسية بعضويتها في العديد من النخب الشيوعية وأشهرها تنظيم حدتو(*). كانت بشخصيتها الكاريزمية تجذب الناس حولها كالمغناطيس ومن ضمنهم أبي حتى أثرت بفكرها على حياديته وهذا ما كانت تعتقد أمي أنه السبب الرئيس لدخول أبي السجن.

عاش مصطفى يتيماً، وتربى في ظل زوج والدته، حتى كبر والتحق بجامعة القاهرة كلية الحقوق، وتخرج منها في منتصف الثمانينيات، حينها عمل هو وأربعة من زملائه بفتح مكتب للمحاماة. يشعر أن كل إنسان يأتيه هلوعاً حقيراً هو ناتج لفساد المجتمع، عقوق أفراده لأخلاقهم، خوفهم مما يمارسونه وما يمارس عليهم هو سبب تلك اللهفة وهذه الحقارة، فلسفته تتغير كل يوم في إيقاعية سريعة تواكب مناخ العالم المنطلق بسرعة، لا يهم، إلى القمة أو إلى الهاوية، مبادئ في حياته تغيرت، وأفكار جديدة طرأت، وفي كل قضية جديدة كان يدخل إنسان ويخرج آخر.

بنى خلال سنوات عمله سمعة جيدة وثروة لا بأس بها، يتمتع بكاريزما تدفع كل من يتعامل معه إلى أن يثق فيه، والثقة مهمة في أعمال المحاماة. كان في بدايات عمله يبحث

(*) حدتو: هو تنظيم شيوعي سري واختصار للحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، اعتقل غالبية المنتمين له في مصر بداية الستينيات من القرن الماضي.

في قضايا الأغنياء وكبار التجار وموظفي الدولة الكبار، فهم لا يلتزمون بعقود الدفاع المالية بل تزداد بهم العلاقات والاحترام وبالمحصلة أتعابه كمحام مرموق.

– هل أنت متزوج؟

– كنت سابقاً، من إحدى قريبات أمي تزوجتها بعيد تخرجي من الجامعة.

– وأين هي الآن؟

– لا أعلم لقد افترقنا منذ وقت طويل، لا أريد أن أغير مزاجك بحديث المتزوجين ولكننا وصلنا كحال كثير من المطلقين، هي تريد وأنا لا أريد وهي تغار وأنا لا أهتم وهكذا.

– ولم تزل أعزب أم عاودت الكرة؟

– أصدقك القول، للحياة جمان أخاذ وأنت رجل مطلق، فالكل يشاركك حياتك في حنان ولكنها جحيم قاتل للمرأة لا أحد يشاركها إلا رغبة في امتلاك جسدها المتحرر من عقدة البكارة.

– هل تعادي المرأة؟

– هل أجيبك الإجابة الدبلوماسية الكريهة؟ حسناً المرأة هي الأم وهي الأخت والخالة والعمة والزوجة والحبيبة والدادة أم هاني. هاهاهاها...

تدهورت حياته الاجتماعية كضريبة وجب دفعها كمطلق مشهور في مجتمع شرقي تقليدي، سمعته تلك ومكانته

الاجتماعية كمحام يقرب من محامي الصفوف الأولى في القاهرة تجذب نحوه الجنس الناعم بشدة، يرون فيه الرجل المناسب بكماله العمري نضجاً واستقراره المادي. كان يغرق نفسه في اجتهاد يتجاوز ما يتطلبه عمله خصوصاً بعد استقلاله بمكتب خاص به عن زملائه. يملأ القضايا بالحجج المسكتة والأدلة الدامغة التي كانت تعلن ميلادها كلما ازدادت حلكة الليالي واحمرار العيون وسواد القهوة. يسيطر عليه النوم في مكتبه لتوقظه السكرتيرة صباح اليوم التالي وقد توسد إحدى كنبات مكتبه. يجد في ذلك بعداً عن أفكار تساوره منذ انفصاله عن زوجته، يتخيلها كأحلام تراوده ووساوس أرهقته جيئة وذهاباً يرى فيها شيخاً برداء أبيض يتأمله تارة صامتاً أو مبتسماً وقليلاً من الضحك الساخر، أي مصير سيلقى، أراد أن يتمرد، جينات الأب المهاجر تظهر.

"كل شيء تفقده، تكسب شيئاً آخر مكانه، وكل شيء تكتسبه، تكون قد افتقدت شيئاً ما".

رالف امبرسون

6

اقشعر جسد أبي فيصل، انعزال بيت صديقه، سكون البحر والليل وانحسار القمر وصوت ضبة الباب المزعج شكل روحاً من الخوف، تسللت نحو روحه فأرعبتها فازدادت ضربات قلبه رقصاً وأنفاسه تأرجحا حتى فتح الباب، فتاة في عمر الزهور أضاءت بوجهها البيضاوي الدري ظلمة الليل، وأثارت ناراً بددت أوهام الخوف وسكن سكون الأطفال حين قالت:

- آهلين، أنت أبو فيصل أكيد!

- فرد في ارتباك واضح متلعثماً: نعم.

- تفضل سيدي منصور بانتظارك.

- رد في حياء كاد يقتله الخجل: شكراً.

حاول أن تتقدم الفتاة لحظة دخوله باب المنزل، وكان له ذلك، وما أن تأرجح جسدها البض الراجراج أمامه وقد أحاط به فستانها الأحمر القاني المثير بحلانله الصناعية موضة أيام خلت حتى تملكته شعلة الجنس كما تتملك الجمل لوثة الحقد، ولكنه بحسه العسكري العتيق وطد مكامن النفس ومثيرات الفسق، لجمها عن التمادي وما كادت يده أن تلمسه.

- منصور من مكان لا يراه فيه: مرحبا أبو فيصل تفضل.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- رد الجمع: رعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

عيناه تنتشر في المجلس، تستطلع الوجوه والأشياء، وقلبه خارجه تخلى عنه، أبحر كربان في بحر عيني سمية أو هكذا لا يتذكر والعين بحر، لم يستنتج ماهية تلك الفتاة في ذلك المنزل هل هي زوجة صديقه ولكن أليس مثلنا يغار؟؟ إحدى قريباته؟ صديقاته؟ عشيقاته؟ خادماته؟ راقته الأخيرة فعلاً.

كان الحديث يدور في أحوال المجتمع تلك الحقبة، تحدثوا عن انحطاط الأخلاق المستشري في كل شيء، عن تحطم قيم كثيرة كانت كأصنام تعبد، أين احترام الآباء؟

أخذوا يتناقشون في حنق، أين تبجيل المعلم؟ تذكروا فلكة(*) مدرسة الفلاح مدرسة الرواد الجداوية وصرامة معلميها مقارنة بمدارس البغدادية والكندرة والعمارية الحديثة، أين دور العمدة؟ أصبح مركازه(**) يفقد وقاره كلما مرت سيارات الشرطة حوله حتى هدم الأخير الأول، الحاكم لا يحبذ هيام العمدة وفتوته في الحارات.

تقدم الجميع نحو مائدة العشاء بعد أن أقبلت سمية هامسة بجاهزية الطعام، يشعر كل من الحاضرين أنها بنظرتها الساحرة بعينيها الصغيرتين وهمستها الرقيقة التي تقتل محدثها عذوبة، أنه المقصود وأنه المدعو الفريد والموجود الوحيد هناك.

بعد العشاء تسلل الحاضرون واحداً بعد آخر، ولم يبقَ سوى زعرور العبد وحسين جمجوم، وأبو فيصل ومضيفهم منصور.

- كيف سوق العقارات معك أبو فيصل؟.. سأل منصور.

- في الحقيقة كما أخبرتك اليوم إنه سوقنا المقبل

(*) الفلكة: آلة خشبية قديمة تستخدم للعقاب البدني من قبل المربين والآباء.

(**) المركاز هو مجموعة من الكراسي الخشبية المرتفعة نوعاً تكون مقر لعمدة الحارة ووجهائها، يكون تمركزها في الغالب في قلب الحارة أو أهم ساحاتها.

ويقوة، نحن نشتري بعض الأراضي في أطراف الرياض شمالاً وشرقاً أو حتى في وسطها ونبيعها من التجار أو بعض الوزارات لتنشئ عليها مرافقها بأثمان جيدة. أتعلم أن أحد الجنود ممن عملوا تحت إدارتي سابقاً هو من شلني ويقوة لتبديل البزة بالمشلح، ومن النقيب إلى الشيخ أبو فيصل؟ هاهاها.

كنت قبل ثلاثة أعوام تقريباً أحتفظ ببعض المال الذي استطعت أن أدخره للعيد وقد جهزت أمر سفري إلى والدي في الديرة. وأثناء وجودي عند جارٍ عزيز في سوق دخنة أقبل علينا أحد الجنود وكنت أعرفه ولم ينتبه لوجودي فسلم على جاري وتحدث معه قليلاً ثم ذهب وأنا أراقبه من بعيد بحيث لا يراني، اقتربت من جاري وقلت:

– هل تعرفه؟

– حسناً ألا تعرف سعيدان؟ إنه سمسار عقارات جدير أن تتعرف إليه، لقد اشتريت منه إحدى الأراضي وقد تعرفت إليه بحكم مقابلتي له كلما حل قسط شهري لأسدده، يحكى أن أقرباءه يملكون آلاف الكيلومترات من الصحاري في الجنوب ومساحات أخرى في شمال الرياض........

– أبو فيصل أبو فيصل أين سرحت؟

– معك معك أبو بندر هيا بنا أشعر ببعض النعاس.

أذهلته الفكرة وأعجب بشخصية هذا الجندي، وأخذ يعد الدقائق حتى طالت ليلته تلك، اختلطت فيه مشاعر حقد من

صعلكة هذا الجندي وفرح برؤيته، إنه طريق مصدر دخل آخر له، وأتى ذلك الصباح متكاسلاً وأشرقت شمسه الناعسة، ونهض نحو عمله في مركز شرطة منفوحة، استدعى ذلك الجندي، أخبروه بعدم وجوده، صرخ في وجه من أخبره أن يحضروه حتى لو استدعى الأمر انتزاعه من أحضان زوجته التي عقد عليها قرانه أخيراً.

- بعد أن أدى التحية العسكرية: سم طال عمرك؟
- استرح يا سعيدان أريدك في موضوع.
- أنت تأمر طال عمرك.
- سعيدان أنت مثال للشاب النشيط والجاد.....

وبدأ الحديث طويلاً وكثيراً وذا شجون، امتد خارج مقر المركز في أحد المقاهي المجاورة حتى توطدت علاقة أبو فيصل بسعيدان، وازدادت عمقاً حين اشترى منه بعض الأراضي في إحدى المساهمات بأسعار معقولة، وأخرى بأقساط شهرية ميسرة. لم تمض بضعة أشهر حتى باع أرضاً بضعف مبلغها وسدد متأخر أقساطه، أخذ يقسط من المبلغ المتبقي أرضاً في منطقة أبعد من الأخريات قليلاً، ولم تمر أسابيع قليلة حتى اتصل به أحد وكلاء الوزارة تلك الأيام عارضاً مبلغاً خيالياً لأجمل أراضيه وأقربها للمدينة، باعها واشترى أرضاً تبلغ مساحتها خمسة آلاف متر مربع من أحد البدو ناحية الشرق من مدينة الرياض، وأخرى صغيرة وسط المدينة ليبني عليها مبنى يؤجر بالكامل لأحد البنوك الناشئة.

لم يكد يكمل سته الأولى منذ قابل سعيدان حتى كبرت ثروته من فراغ، وتقدّم نحو مبنى وزارة الداخلية حاملاً استقالته التي سبقه إليها صديقه العريف سعيدان، ولم يكد ينهي إجراءات الإخلاء المرفقة بمشاكله الصحية المفبركة حتى بدأ باستصدار قرار إنشاء "شركة الخير العقارية" مع شريكه رجل الأعمال سعيدان، انطلقا يتعمقون شمالاً وشرقاً بشراهة كي يصلوا قبل الآخرين، كما وصل كريستوفر كولومبس أميركا قبل قرون مضت، يضحكون ملء أفواههم من أحد شيوخ القبائل حين قايضه بساعته السويسرية الفاخرة التي لم يتخيل يوماً أن يملك شيئاً خيالياً مثلها ولكنه قصر النظر والسذاجة.

بعد سنتين من الانغماس بين سماسرة العقارات ومحاكم المدينة ووجاهات البدو ومساوماتهم، قرر أن يستريح كمحارب أعيته المعركة لا الحرب، قدم إلى جدة وسمع بالصدفة عن اسم يعرفه وهو منصور، أتى ليزوره في مكتبه هذا المساء وليستطلع فرص العقارات في جدة ليحيك خيوط العنكبوت حولها.

بدت بوادر الملل على وجه زعرور بعد تحول ليلة الخميس الأثيرة بين الأصدقاء إلى تلك الجدية الطاغية، خصوصاً بعد العشاء؛ وقد جرت العادة إنها ليلة مثيرة فرحة، حتى قطع الحديث همس العصفورة سمبة بإطلالتها من باب المجلس بقولها:

- سيدي منصور جاهز؟؟

- نعم تفضلوا.

لم يعِ أبو فيصل وأبدى سعادته بابتسامته حين رأى الآخرين يبتسمون بخبث، رأى سمية وفتاة أخرى يحضرون بعض القوارير التي لم يرَ مثلها من قبل، كُتب عليها كلمات لم يفهمها بالإنجليزية وقطع من الثلج في إناء حديدي، بعض الحلوى والتسالي والفاكهة وكميات كبيرة من المشروبات الغازية، ويد زعرور تمتد نحو حقيبة سوداء أحضرها معه، لم يستسغ حب الحاضرين له وإعجابهم به وحفاوتهم لحظة دخول زعرور المجلس إلى أن انكشف سره بإخراج آلة العود، وبدأت الألحان تنبع من بين يديه في سلاسة تذكر أبو فيصل بأمسيات "الواد الصايع" خليفة فريد شوقي في الرياض، بشير حمد شنان وصرخات الأشناب حوله، تصفيق الجماهير وصفيرهم كلما أطربهم بأصابعه الذهبية وكلمات أغنياته الصريحة، ثم انقطعت لحظات بشير حين تنحنحت سمية وتقدمت نحوهم وجلست في حياء وأخذت تغني..

"وردك يا زارع الورد فتح ومال ع العود
كلك ربيع الورد منك الجمال موعود
وردك يا زارع الورد
وردك جميل محلاه فتح على غصنه
لما الندى جاه نوّر وبان حسنه

ومال يمين وشمال وردك يا زارع الورد
وردك يا زارع الورد".

تذوقت الشفاه كلها طعم الويسكي الاسكتلندي الفاخر، تذوقت كل الآذان مذاق الصوت الشجي الفتان، فالأذن تسكر قبل العقل أحياناً، والأعين سكرت بسمية ومنها، ولكن عين شخص واحد كانت تتلفت في حذر وقد غلبها السكر، عقله يسبح وحيداً في بحور الماضي السحيق والمستقبل الغامض كغموضه هو، يفكر بإصلاح الأخطاء، أن يكتب غموضه أوراقاً ويوميات، وأذناً واحدة كانت تسمع بحرص حديث الضيف القادم من الشرق، رغم بركان سمية الساحرة أمامه، كان ذلك الشخص هو منصور.

"ربما ليس في الأرض حب غير هذا الذي
نتخيل أننا سنحظى به ذات يوم".

أدونيس

7

جذب عبث السائق بساماً نحو غرفته يوماً بعد يوم حتى أصبح لا يقوى هجران العبث اليومي والتحرش الجنسي المحبب إلى نفس الطفل واللاجم لحمم الشهوة لدى السائق. وفي ليلة من الليالي جلس السائق يفكر في الشاب الذي مارس معه صباح اليوم، كيف عامله بقسوة طاغية بالرغم من حفاوته به ونعومته المعهودة التي طالما جذبت العديد من الشبان السعوديين، وآخرون من أبناء جاليته لمعاودة الكرة في جماعه. وما أن أطل بسام الصغير سائلاً عن جديد أفلام الأصدقاء الذين يضمون بعضهم عشقاً كما أخبره السائق،

حتى كانت القبلات تهطل على خدي بسام وشفتيه وعنقه لتدخله عالمه الجديد المثير، والأيادي تعبث هنا وهناك، إنها فعلاً ليلة غريبة ومختلفة كما أخبر السائق بساماً. تزداد وتيرة العبث طلوعاً ونزولاً، وتتداخل الصور القديمة لدى السائق والأفلام التي تعلن عن نفسها الآن، وأنفاس الصغير تلهث خوفاً ولذة، تجرد من ملابسه بداعي حرارة الصيف، يشعر بسام أن أمراً ما سيحصل له، طوفان جارف في بحر سحيق أو صخرة كبيرة ساقطة من قمة شاهقة، ولكن أي من ذلك لم يدفعه ليمنع السائق من العبث بل بادر بالانقضاض ليغمر جسد السائق الناعم، ضرب المعول ضربته فانبثق النبع متدفقاً لأول مرة، نبع ماء ملوث أو بئر بترول ناشتعل قلب الصغير هلعاً ما هذا؟ ومن أين أتى؟ ولماذا؟ وإلى متى؟ وهل سأمرض؟ إيدز؟ ارتدى ملابسه على عجل، ولم يفهم كلمات الآسيوي العربية المكسرة حتى خرج من الغرفة، واختبأ في سريره يبكي وحيداً. الأم تحضر اجتماع لجنة الأسرة السعيدة، والأب في باريس يحضر أحد المؤتمرات عن التقنية والأعمال، والفتاتان وحيدتان تبحران في بحور الدنيا، والليل اشتدت قسوته وظلامه، وغاب القمر خجلاً تلك الليلة.

المثلية أيضاً في السعودية تتلون بعدة أسماء أكثرها خصوصية هو البزرنجية فغالباً ما يطلق لقب البزرنجي على الشاب الصغير الوسيم الذي يتمتع بعلاقات مع فتيان أصغر منه عمراً وأقل مكراً فيسيطر عليهم وأحياناً يكون لهذا

البرجوازي عفواً البزرنجي عم خلف الستار، ويطلق لفظ البزرنجي على فئات تتراوح من أشخاص يعكس مظهرهم الخارجي بعداً عن المثلية كمفهوم وممارسة فهم إما معلمون أو ملتحون أو أعلام مجتمع مميزون، وآخرون هم من فئة الشباب تجدهم يجولون شوارع المدن بحثاً عن فرص الشهوة المتخيلة.

فـــلان عـــذّب كـــل الـــحـــواري
وراحـوا مـن أجـلـه طـوال الـشـوارب
إذا مــشــى تــســمــع أنــواع الـــبــواري
وإذا صــد يــصــيــر الــراس شــايــب

وتستمد العلاقة بين الواد والعم أساسها من تخلخل المجتمع وتشوهه حتى تصبح حياة الشباب لا تخرج عن نطاق المثلية خارج البيت لتوازن الفقد الكبير داخل البيت، من تلك العلاقة تنشأ المصالح فالعم يجد لذته ويخرس شهواته ويعلن للجميع شهادة رجولته التي يظنها كلما اصطحب الولد في جولاته المكوكية في شوارع المدينة ويجد الواد صدر عمه الحنون وأذنيه المصغيتين ولسانه العذب وأجزاء جسده المريحة حتى تتسارع الأنفس قليلاً أوقات الانصراف من المدرسة وكثيراً ليالي الخميس.

بعد أيام من تلك الحادثة، كان الاثنان مرة أخرى في غرفة العبث، يختبئ الاثنان تحت الفراش، نظرية السائق أن

أشياء كثيرة تحدث في هذا البلد تحت أغطية كثيرة، يتشاركان مشاهدة الأفلام فتكون دروساً لهما كل مساء وقصصاً أخرى مغرية يهمس بها في أذني بسام عن مغامرات قام بها في بلاده أو من نسج خياله، وموسيقى كلاسيكية تغرق المكان، وأمواجاً من الحنان من السكون من الدعة تجعل من الغرفة سماء عالية وفضاء واسعاً، يحلق فيه بسام دون قيود ودون تأنيب ودون تصغير له أو عدم اهتمام بل هو مركز الاهتمام هنا.

شهور مضت وليالٍ انقضت تشتعل فيها الشموع وترتوي فيها الأفئدة، وأغطية تخبئ تحتها الحرام والعيب والمنكر، حتى أتى ذلك اليوم حين كانت ليلة الوداع، بداعٍ طارئ ألمّ بأهله ووجب عليه الذهاب. ولكن الحقيقة أن الملل والكره والسخرية قد دفعته للرحيل، يقترب الجسدان الناحلان حتى يكادا أن يمتزجا كقطعة واحدة، وينتهي الحلم بقبلات كثيرة ودموع أكثر. يستيقظ في اليوم التالي وهو يفكر في ليلته الماضية، يسرع نحو غرفة العبث، لا أحد هناك، أشرطة الأغاني، ملابسه الفاضحة والملابس التي أحضرها له أيضاً، صوره التي كان قد التقطها مع السائق، عطره الفريد برائحته الفواحة، لم يبقَ له أثر ولكن آثاره ستبقى إلى الأبد.

تمتد أياد صغيرة، لتطلق ضجيج أنامل حول لوحة المفاتيح، وتبدأ المحادثة:

- هاااااااااي.

- هاااااااي.
- أنا أيمن من جدة.
- وأنا أمممممممم نواف.
- تشرفنا ممكن نتعرف أكثر أنا عمري 18سنة.
- وأنا عمري 16 سنة.
- ههههه أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة، أنا أعشق القراءة والسفر وأنت؟
- أنا أهوى السباحة والإنترنت.
- عندك كاميرا؟
- اعتاد الكذب: لا.
- وأنت؟
- نعم.

مرت أيام لا يقوى فيها بسام على نسيان جوزيف، في منامه ويقظته وفي القصر بين أختيه، في المدرسة بين زملائه والشارع، بين الجيران الذين لا يعرفون بعضهم البعض، يتلفت يمنة ويسرة في المسجد بمصليه الوافدين من أقطار العالم عله يجد جوزيف آخر أو يرى جوزيف المسلم. ضاقت أنفاسه وروحه المشوهة بالعبث وحيداً، تصرخ أختاه في وجهه فهو يهوى العبث بأشيائهن، ويتجاهله والداه فهو ما زال ذلك الطفل الصغير الذي تنتهي مطالبه بالأكل والشرب والمصروف ليحضر شهادته نهاية العام فكل شيء منه مؤجل في نظرهم حتى يحصل على الشهادة الثانوية العامة، حياة

مؤجلة. كانت أحياناً هي وحدها من تلتفت إلى ذلك الشيء المتحول، تلك الكتلة الرائعة التي تتنقل بين بهو القصر وشرفاته، تعي أن معاناة أخرى ستتكرر، أن جروحاً ستنزف هنا وهناك، كانت سارة تعي بعضاً من هذا بخبرة حياتها القصيرة، وعقلها المبدع وهي تتمرس لتحصل على بكالوريوس الطب من جامعة الملك عبد العزيز، أن للعيش في القصور كقصر عائلتها ضرائب، وأن لكل الأشياء الجيدة مقابل سيئ، وحينما قرأت عن ابن الأغنياء الأميركي الفيلسوف مورفي ومقولته "أموال تأتيك فجأة من السماء، غالباً ما يتبعها ضريبة من الجحيم"، شعرت أنها وعائلتها لم يكونوا الرواد في تلك المعاناة، بل ذلك قصر جهنم، لا أحد ينصت فيه، بل لا أحد يتحدث، ليس هنا فقط بل في كل الحي الأرستقراطي الحديث. هنا في شمال جدة، سكون ليل مخيف، ويقظة صباح شاحبة، يفتقدون للإنسانية ويتحسسون مشاعرهم هناك، خارج الوطن، في حدائق لندن ومقاهي باريس، في ملاهي أميركا وأزقة بانكوك.

أعجب بسام بملامح أيمن حين رآه من خلال الكاميرا أيما إعجاب، ويطيب الحديث معاً ويجد بسام في أيمن ما يعوضه ولو قليلاً عن جوزيف، تحدث له عن قصته مع السائق وقدر الاشتياق ومعنى الحياة بعد فقده. بمراهقته شعر أيمن مكمن الخلل وفحوى العلاج، وأخذ يطبب جروح بسام بالنكت والأحاديث المثيرة والصور الخليعة خلال الماسنجر،

ومحاولات إيجاد الأشياء المتماثلة والابتعاد عن التضاد أياً كان. إنها لعبة المحترفين، انتفت طرق الاستدراج التقليدية وظهرت كما في العالم أجمع قضايا استغلال الأطفال والمراهقين من أروقة الشوارع الخلفية إلى غرف المحادثة، تصدى لها القضاء وجرّمت ولكننا ننعم بالارتياح دوماً، كيف يتصور حدوث هذه الفواحش في بلد...

- هابي نيو يير.

- هابي نيو يير.

- خمسة أيام وننتقل إلى الألفية الجديدة.

- أتصدق؟ يخبرني أبي أنه أنفق ملايين الريالات لتعديل أنظمة حاسبات الشركة لتحوي الخانة الجديدة اللعينة!

- حسناً هل أحتاج إلى أن أغير أنظمتي أنا لأحتويك في قلبي؟

- يرد بتلعثم لا يرى بالطبع: وهل أحببتني بهذه السرعة؟

- أشعر أننا قريبان من بعض بل إننا عشنا معاً في زمان مضى... "شاهد هذا في أحد الأفلام".

- مثلاً أنا كنت ذات يوم مع الوالي في رحلة الصيد كما في كتاب القراءة.

- وأنا الصياد أتيت من الغابة لأصطادك.

- ولكن الوالي سوف يغضب فأنا نديمه وشاعره.

- حسناً إذا كان شجاعاً فليأخذك مني ولينتزعك من قلبي.

- حسناً لا أظنه يجرؤ.
- ولِمَ لا؟
- يريد سعادتي.
- سعادتك في قلبي.
- هو يعتقد ذلك.
- من هو؟
- الوالي.
- فديت الوالي أنا.
- هل لي بشرف مقابلة صيدي الثمين؟
- أكره أن أصبح صيداً.
- لم أقصد.
- أنا مضطر للمغادرة.
- متى أراك؟
- مساء الغد.
- حبيبي خذ بالك من نفسك.
- وأنت حبيبي تصبح على خير.
- وأنت من أهله.

"نصف الحقيقة عادة ما يكون كذبة كبيرة".

فرانكلين

8

جلس صالح وجلست نورة أمامه كطفلة، تستمع إلى قصة أبيها الأخيرة، قال:

أم صالح (شاهرة) تبكي في ذلك المنزل الطيني، تكتم نشيجها، تضع يدها على وجهها المحمر ألماً وحزناً، تمسح دموعها وتخبئ الانكسار والضعف خلف يدها، تقف وتحرث الغرفة ذهاباً وإياباً، تطبل على رأسها وقد أدارت حوله شيلة سوداء بأطراف زرقاء داكنة، لا تملك غيرها. تجلس القرفصاء في إحدى الزوايا القليلة، تحدث نفسها في هستيريا بصوت منخفض، تسأل في دهشة ثم تنتظر قليلاً لعل أحداً يجيبها، تلتفت علها تجد من يجيب، تقف وتتطلع من شرفة منزلها ثم

تنطلق نحو الباب وكأنها سمعت شيئاً، تعود حيث كانت وتجيب على نفسها بأجوبة ترضيها، تبتسم ثم تنهال الدموع مرة أخرى. تمسك صدرها وكأن قلبها هو مصدر بلائها وتطبل مرات على رأسها لتقرر أنه هو الآخر مصدر أوجاعها، تنظر إلى وجهها الملطخ بالكحل المختلط بالدموع. بقايا عين نزفت حتى الثمالة، أنف جميل كتل الميزب القريب، ووجنتاها لتفاحتان الناضجتان كجسدها المخملي الفائر نضجا كوجنتيها، لا تعلم أن اليتيمات جميلات فالرب حين يحرمنا يد الأب وقلب الأم يهبنا الجمال والذكاء، عدالة السماء يد تأخذ وأخرى تعطي. عاشت منذ صغرها في كنف عمها العقيم بعد أن مرت تحته فتيات كثيرات ليثبت رجولته بطفل، يخرس به أفواه القرويين البسطاء، حيث إن الرجل تزداد رجولته بينهم كلما كثر من يحملون اسمه، استسلم بعد أن غرست الشيخوخة أنيابها فتسممت أطرافه أو كما يقولون لفساد الأمر "بال الثور"، تغتصب ذهنه هواجس الهجوم، أن يجرب حظه للمرة الأخيرة، فتاة أخيرة تتقافز بين أحضانه علها تجبر كبرياء الرجل فيه، ولكنه يطرد تلك الأفكار ويسخر وقته لرعاية هذه اليتيمة.

تنطوي السنون وتكتب أعمال العباد فيكتب الملك أجر عائض، ينهض قبيل الفجر ليسمع ابنة أخيه تشدو برقة "يالالالالالا....."، ماء ساخن يكسر برد القرية، وينشر في

منزل العم حفاوته المعتادة؛ منذ قدمت شاهرة طفلة لا تعي إلى أن أصبحت فتاة تعي وتستدعي آخرين حولها.

"- الله يصبحك بالخير يا ابنتي.

- الله يصبحك بالخير عمي، بشرني عنك إنشاء الله إنك طيب اليوم؟

- نقول إنشاء الله، أنا بصلي الفجر وانزل أكلمك في موضوع.

- خير إنشاء الله في شي.

- لا خير ما في شي".

وبعد الصلاة...

"يا ابنتي أنت كبرتي وصار يعني لازم تتزوجين وتصيرين أم وهذه سنة الحياة، الضحى سوف يأتي إلينا ناس جهزي غداء ولا تنزلين البلاد".

فتاة تعي، ولكن لوعيها حدوداً، خيالها لم تغذه مقاطع الفيديو الإباحية أو ثرثرة زميلات المدرسة السيئات أو شباب لبق أو فظ ينشرون فضائحهم وحكاياتهم على مرأى الملأ. ظلام لم تسمع خلاله أغنية أو حتى أنشودة، لم تقرأ كتاباً أو حتى صفحة، كانت تربية فطرية بطبعها. يعيشون هكذا كما عاش أسلافهم قبل ألف عام، طيور تحلق قبل الشروق لتلتقط طعامها في الحقول والأودية والسهول، وتغفو في طمأنينة حالما يختفي قرص الشمس في البحر البعيد. يعبدون الخالق ويقدرون النبي، ولكن روح القبيلة وفروسية القدماء جيل بعد

جيل سير وبطولات تكاد أن تكون الفصل الأهم بل الوحيد في دورة حياتهم. إننا في الخمسينيات في قرية مظلمة من توابع سراة عبيدة نحو الجنوب من أبها، يضحك البسطاء ملء أفواههم من أحاديث يرويها من زاروا أبها وسوق الخميس، عن عجائب الصندوق المتحدث والحديدة المتحركة والأشياء المضيئة، عن أشباح يسمع بها آخرون بعيدون تطير في السماء، مبنى يسمونه محكمة وآخر يذكرونه بتذمر يقدم الطعام بمال لكل وجبة وفي أي وقت، وشخص ما يسمونه المصري أو عبد الناصر، وسواليف تجار القهوة والزبيب عن اليمن وحاكم الجوار السابق حميد الدين، وأيام متسارعة وتغيرات تطرأ هنا وهناك، ولكنها تحرك فضاء القرية كأمواج أواخر البحار الهادئة بعيداً عن مراكز الانطلاق والسقوط، لم يعتادوا التغيير كأي أمة جاهلة لا كرهاً له ولكن لعدم المعرفة بغيره.

ترتدي شاهرة الفتاة ملابسها في عجل، تحزم منديلها الأصفر برائحته الغارقة في حدائق الريحان حول رأسها، تذهب إلى زوجة خالها فهي الوحيدة التي تفسر لها شجون النساء، بعد أن استشارتها في حياء عن دم البلوغ الفاجع قبل سنوات، وما أن دخلت حتى أطلعتها على الأمر، صدرها الصغير يخرج من مكانه خوفاً وتعباً، حركات يدها متوترة حيرة وغبطة، ومشاعر لا تستوعبها، أشياء غريبة وأشياء أغرب تتوقع حدوثها ما هو الزواج؟ وماذا سيفعل بي؟ وكيف؟ وهل سيعطيني أموالاً وملابس مثل بقية الفتيات؟ من

هو؟ ضحكت زوجة الخال من قلبها، واحتضنت شاهرة وأخذت تحدثها حديث المرأة للمرأة، تحكم ثرثرتها جيداً بأمثال واقعية من سيدات القرية، "هدباء زوجة علي هربت ليلة دخلتها ولم تعد إليه إلا بعد أسبوع" "صالحة زوجة محمد ولد شعفة لم تمكن زوجها منها تلك الليلة وطلقها زوجها في الصباح" وأمثلة جيدة لأخريات كانت هي أبرزهم بأبنائها الخمسة، ساعة واحدة وبتركيز يفوق أكثر العباقرة دهاءً امتلأ جزء لا يستهان به من عقل الطفلة ثرثرة ونصائح وطرقاً وحكماً وأشعاراً وخططاً، إنها حنكة النساء، اختصار لأجزاء علمية واجتماعية تدرس في جامعات العالم في سنوات ولكنها تولد هنا كحبة دواء صغيرة مكثفة.

للحياة بلا رتوش حلاوة، وللفطرة الخالصة لذة تعكرت كثيراً في حياتنا هذه وتغيرت حتى ترحمنا كثيراً على الغائب، ولكننا نعود مرة أخرى لأحضان الحاضر وكأن شيئاً لم يحدث وكأنه ماضٍ عاشه الأجداد، نسمعهم يحقرون شهد عسلنا ويمجدون شهد الماضي بحلوه ومره الحلو أيضاً.

"- أرحبوا.

- البقاء سلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- كيف أنت يا عائض؟

- مأجور. كيف أنت؟

- الله يعافيك مأجور بشرني عنك إنشاء الله إنك طيب.

- تحت عين الله إنشاء الله إني طيب تفضلوا تفضلوا".

يدخل الشيخ أحمد إمام المسجد بكل وقار وبكل سلطته العجيبة في نفوس أهل القرية والقرى المجاورة، هو الوحيد الذي يستنجد به البسطاء ليخرج معهم إلى ساحة مجاورة ليصلوا صلاة الاستسقاء، لا يتقنون الصلاة ولا تنفع باعتقادهم بغيابه فتهطل الأمطار قبل وصولهم إلى منازلهم رحمة وبركة.

"- أنت يا عائض وغالي ومنا وفينا ونعم فيك واسمحلي أدخل في الموضوع.

- تفضل.

- حسن كما عرفناه وعاشرناه معلم فاضل، قدم خدماته بلا عطاء لأبناء القرية والقرى الأخرى. تعلم كثيرون وفك الخط على يده ابني وآخرون، وقد حدثني برغبته في الزواج والاستقرار بيننا، فاقترحت عليه الزواج ولم أجد أحسن من ابنتك له زوجة، ونحن هنا لهذا الأمر وسلامتك.

- أنت خيّط ونحن نلبس يا شيخ أحمد وحسن ولدنا وشاهرة بنتك قبل ما تكون بنتي وما يصير إلا كل خير، نتكلم بعد الغداء".

يتمم العم الصالح مراسم الزواج بسرعة، يقرره بعد أسبوعين ويخبر زوجة الخال لتهتم بشؤون الفتاة والمنزل، تصهر الأوراق وتصبغ أروقة المنزل بالألوان الخضراء، تشتعل النار في بهوه لتخبر الآخرين بقرب احتفالية اللحم والمرق، ويبرز الثور على قارعة الطريق علامة على الغناء

والفرح معاً، وتتلطخ أنامل الفتاة وراحة كفها وشعرها الأسود بالحناء، وتعقد الحلي الفضية لأول مرة حول يدها وعنقها وخاتمها الوحيد حول إصبعها، وتردد الفتيات المهنئات والغابطات والصغيرات اللاتي يرين أنفسهن في أفراح فتيات القرية، فيدعين الرب بقرب لياليهن الملاح ويدعو الشيخ والعم عائض وجهاء القرية وصغرائها، الكل مدعو بلا استثناء والجميع يجيب الدعوة بكل فرح وابتهاج، تتبعها دعوات من الطرفين بتتابع المسرات لدى الآخر. يستقل العم حماره ليذهب إلى سوق السراة لشراء مستلزمات الزواج من سجاد وملابس وأثاث بسيط وأدوات زينة تقليدية وكريمات بيضاء وصفراء معلبة ومساحيق عجائز البسطات، يرافقه الزوج حسن ليعودا مساءً وقد شعر الحمار أنه مضطهد من كثرة الأحمال على ظهره.

وها هي ليلة الفرح وقد تجمعت القرية في ساحة بالقرب من منزل العم، جماعة شكلت حلقات تردد أهازيج حربية متوارثة، وأخرى تضم كبراء القبيلة يتحدثون عن أمور تهم عالمهم الصغير، ولكنه العالم الكبير الوحيد لديهم، وفتية وقد زينت خصورهم بالجنابي وآخرون كبار بأسلحة وبنادق وسيوف.

بدا الجميع يشاركون في الإعداد لتلك الليلة أو ذلك اليوم، الجميع تساعدوا منهم من أحضر قطع الحطب وقطع السجاد وحبات من التمر، وتشاركوا في ذبح الثور وسلخه

وطهيه، ارتباك الزوج لم يمنعه من تجاذب الحديث بكل ثقة مع الضيوف وتلامذته الكبار منهم.

تنتهي الليلة سريعاً بغياب قرص الشمس ليختفي الحضور فرادى وجماعات لكي يتركوا الزوج فارساً وحيداً لمعركته الأولى، منصتين في خبث لتأوهات الليلة الصاخبة، وداع وبكاء في جانب الليلة الناعم وتموج أجساد راقصة تعكف في وضع الركوع ثم تستقيم مرة أخرى في حركة متماثلة وانسيابية لصفين متقابلين، وفي الوسط نساء كبيرات وعلى الأطراف فتيات صغيرات وصوت شاعرة تتوسطهم، لتغير بين الحين والآخر أبيات الشعر الراقصة في أجواء لا تكرر كثيراً، صخب مدهش ودفء في الجوار وليلة لا تنسى بل تاريخ في زمن تؤرخ فيه الأحداث بولادة الناس واحتفالات زواجهم ومآتم شيوخهم وصغارهم أيضاً، وحروبهم وبطولات فرسان القبيلة وثأرهم وآثارهم.

"- ألف مبروك يا عروسة.

- .... تمتمة بهمس لا تسمع.

- يا لهوي يا هنايا، أيه ده قمر والله قمر؟!!".

وتطفأ الشموع في ليلة يقترب القمر فيها من شرفات المنزل الحالم ليعلن عن ميلاد أسرة جديدة في ذلك الوادي الوديع وليكتب التاريخ القروي زواج شاهرة، وتغفو نورة في أحضان أبيها ليحملها وكأنها اعتادت ليالي أحلام طفولتها المليئة بقصص الأب كل ليلة.

"في لحظة الولادة.. نبكي.. ذلك لأننا قادمون إلى مسرح مكتظ بالحمقى".

وليام شكسبير

9

بدأ الليل إشرافه ولم يحضر إلى المقهى، الذي اعتاد صخب وضجيج وسخرية الكبار وكلماتهم اللاذعة، سوى خالد ومصطفى، الذي وقف خلفه المعلم علي صاحب المقهى مهللاً ومرحباً به وبضيفه الكريم الذي اعتاد التردد على المقهى، مستغرباً انقطاعه أياماً عنه معبراً عن اشتياقه لأحاديثه العذبة، فيرد عليه مصطفى واعداً بأمسية خاصة يتسامرون فيها معاً، ثم يشير إليه بحركات معهودة عن أطباق المعلم الشهية، وكأن العلاقة بينهما تجاوزت سنين وهي التي لم تتجاوز بضعة أشهر، يفاجئ مصطفى بقوله:

- أيه القصة يا عم؟

- وتحسبني الأكمة أمامك؟

- إن كنت أصنف نفسي من أجناس البشرية فأنا عابد مطيع لمولانا شكاك، أعارض أبا حامد الغزالي حين يغضب وينقض كالأسد على ابن سينا وابن رشد ولكنني أحبه حين يقول "من لا يشك لا يبصر"، قالها صديقي ديكارت مجلجلة "أنا أشك إذن أنا موجود"، لم أزل منذ اعتناقي هذه الأفكار في إطار حياتي كمحام وإنسان.

- سأل مصطفى ليوجد مجالاً للحوار: أترى البحر هناك؟

- أجابه خالد بعد لحظة صمت: لم لا يرانا هو؟ ألا يغضب هذا البحر فيهجرنا أو ينقض علينا؟ هل أعجبته حال ساكني شواطئه؟ هل سكرت أمواجه نخارت قواه؟ أم أن أطلسي أوحد هناك يرصد حركاته ويعد أنفاسه؟ أراهنك أن عدوى العرب تعدي الطيعة؟

- حبوب عبد الله القصيمي المهلوسة.

- حسناً هذا تصنيفي إلى حد ما، رجل يروقني فيه رائلية التمرد.

- أرجو أن تحذف نقابة ما هذا التصنيف بدواعي الصالح العام.

- لا نقابات هنا.

- وماذا يوجد؟!

- ماشية بالبركة!

- احم احم نغير الموضوع أحسن، ما رأيك أطلب لك قهوة؟

- عم علي عم علي وحياتك فنجانين قهوة على مزاجك.

- يرد في حميمية: من عيوني يا أستاذ مصطفى.

- وبعد ارتشاف القهوة قال: فضفض.

- الكلام تختفي ملامحه في الهواء وتتدثر ولكنه في العقول مكرم معزز.

- الكلام مثلنا يمقت دياجير الظلام وينجذب مثل الفراشة نحو أنوار الحرية.

- تضارب الفلسفات، فلسفة.

- بل حضارة.

- أتعني أننا لا نعي حوار الحضارات؟

- بل أعني حضارات الحوار؟

- فشل بنجاح "لم ينجح أحد".

- حسناً لم نأتِ هنا أيها الفيلسوف لنتطارح الحجج ونتسلق برج المثقفين العاجي، حدثني حديث الشارع، كلاماً يقترب من التراب فيذكرنا بأنفسنا أكثر.

- أنا خالد أبو ذيب، ولدت وكثيرون أظنهم حولي فرحون أيما فرح بمولدي؛ فأنا شهادة الفصل التي أنقذت أمي من مصير لا أحد يعلمه، أنقذت نفسها وأسرتي بمولدي بعد فتاتين خرجتا من نفس الرحم قبلي، أكاد لا أبالغ إن

قلت إنني اعتدت صراخه حتى قبل موعد ولادتي: "يا ملعونة فضحتيني وتلحلحي وجيبلي ولي العهد" "آه ليت ربي رزقني بمرة زي الناس لكن رزقني بوحدة ناقصة مثلك تفوا عليك"...

كانت خميس مشيط أيام ولادتي تختلف عن ما كانت عليه قبل عشرة أعوام فقط، مدينة عامرة تعبق رائحة الأسمنت في كل مكان فيها ووحش الإسفلت يبتلع كل شيء وأسواق تتسع واستهلاكية شرهة تكسب المدينة مناخاً آخر غير ما اعتادت عليه، كبرت قليلاً فعرفت أن لي أباً غير أبي الصارخ، إنه خالي، ربما لأنه ولد وعاش حياته وحيداً بعد وفاة زوجته؛ سخّر حياته لرعايتي والاهتمام بي، أسس مع أصدقاء له حركة التعليم النظامي في القرية قديماً، كان مدرسي في المدرسة وخارجها. مشاغبة جماعات الذئاب تتحول في حصص التاريخ إلى وداعة قطعان الماشية، ينصت الجميع ليختصر خالي أو الأستاذ عبد العزيز منهج المادة الكئيب في بداية الحصة ثم ينطلق في أسلوبه الشيق في سرد حقب التاريخ الحقيقي اللذيذة. كان يحدثنا عن صراعات الدولة العثمانية حولنا وبعيداً عنا وأفكار الكنيسة في القرون الوسطى وثورات الصعاليك ضد البرجوازيين في أوروبا وأمبراطوريات الشرق الأقصى وحكمة الهند القديمة وكلاسيكيات القياصرة الروس وخلفائهم البلاشفة، ثم يعود بنا ويعرج على الملك عبد العزيز ورجاله الأربعين وليلة تسلق

السور المرعبة رغم تقريرها في المنهج ولكننا كل مرة نريد سماعها من لسانه وبطريقته، وأيام الملك حسين وأشراف الملك فيصل ملك العرب الأول؛ ثم ينطلق مغرباً ليبدي إعجابه بيوسف بن تاشفين وصديقه ثم عدوه ابن عباد وهروب عبد الرحمن الداخل ذليلاً ودخوله الأندلس بعد ذلك مبجلاً، ننصت أكثر حالما يذكر قصص كليوباترا وحبها الأعمى وعمر بن أبي ربيعة وطرافة غزله وفحشه وأشياء كثيرة متشعبة ومميزة تخدر نشاطنا لساعة واحدة لنعود بعدها كسابق عهدنا.

ضخامته المنفردة وطوله الفارع واتساع منكبيه ولحيته الكثيفة وشواربه الكثة، يغلف كل هذا صوته الحاد الصارم ولكنته الضاغطة على كل الحروف تقريباً، تجعله مهيباً بل مرعباً ليس لنا نحن تلامذته بل لكل من عرفه أو سمع عنه. كنت أتسلل ليالي نهاية الأسبوع نحو منزله لأجده منكباً في زاوية من منزله المتواضع محتضناً كتاباً أو مجلة أو صحيفة، يطرب لمقال هنا ونظرية هناك، ويتحيز لفلسفة ويحارب أخرى لم تعجبه، يوجد لنفسه نقطة معلومة غامضة فيكثف حولها أنهاراً من المعرفة، يجادل في صوت مسموع أو يعيد مراراً وتكراراً أبيات شعرية مختلفة، تتبلل لحيته حين يمسك القرآن لتغسل الهيبة وبقايا الكبرياء أو رواية تتحسس شغاف قلبه ببؤس أبطالها وظلم الحقيقة المحكي.

طفل وهذا أبي، خالي، لم يكن سواه غير أمي يهتم بي، لا أعني اهتمام السؤال عن الحال المكرور في مناسباتنا

الاجتماعية الكثيرة المرهقة، بل أعني سؤالاً عما يجول في ذهني الطفولي، كنت أسابق نفسي وأتفوق عليها وأهزأ منها وأحاورها وكأنها شخص آخر ليس أنا ولكنه شخص رسمته أو سمعت به أو صنعته تمثالاً، عادة أخذتها من خالي كما عاداتي الغريبة الفريدة الأخرى. كنا حينها نريد أن نكون أطفالاً حنفاء كأطفال العالم، ننعم بما يشغل بال الأطفال عادة، ضحك لامحدود، لعبة جميلة، أسئلة بريئة ولكن صعبة، وهكذا؛ ولكن أفاعي كثيرة أحاطت بطفولتنا حتى كدنا نختنق. كنت أبحر عكس التيار بل عكس طوفان الأفاعي لا كرهاً لها بل تهذيباً لدورها في حياتنا الغارقة في أيام نرى الإرهاب رجالاً في المدرسة والمسجد والشارع والمجلس. هل أفاخر أن خمسة من مفجري 11 سبتمبر/أيلول من مدينتي تلك، مدينة يعشق أبناؤها الشجعان الإرهاب؛ لا شيء لا تربية ولا مجتمع ولا ثقافة أثرت فيهم، نشأوا محبين للكره، كارهين للسلام والحب، فطرة أتقول شيئاً؟

كنت مظهراً للفخر بين يدي أبي، يسوقني في محافل القبيلة وبين محلاته المنتشرة ومصنع الخرسانة الضخم بمقدرات مدينتنا الناشئة بقوة، يطبطب الكبار على رأسي بدعوات أن يحفظني الرب لوالدي لأعينه في المستقبل فيأتي الليل وأرى المستقبل المذكور: فتاتان تنفضان تحت الأغطية رعباً وأنا ذكر الأسرة الوحيد أحدث نفسي "هل سيكتفي بحصيلتي اليومية قولاً أم سيجيدها قولاً وفعلاً". يبرر كل

الأشياء حتى يقنع العالم أن ما يفعله أمثلة تحتذى. ضربه تربية وصراخه توجيه وموهبة الكف العجيب لا أحد ينافس أبي فيها وقتذاك ولا أظن أنه انقطع عن ممارسة هذه الموهبة مع غيرها يسخن من خلالها وجنتي أمي لتصبح أكثر احمراراً وجمالاً ليسمعنا أثناء ذلك زمجرة معيض كبير تجار خميس مشيط وفتاها اللعوب.

كبرت قليلاً فعرفت أبي الحقيقي وإجابات من أين لك هذا؟ أخبرتني العصفورة ذات يوم أنه قبل انقضاء سبعينيات القرن الماضي ودع الأم الحزينة الصابرة في جفاء يلين كلما رآها. غادر أبي فجأة بعد أن طرد من إحدى الشركات التي كانت تعمل في تأسيس أكبر القواعد العسكرية في المنطقة، وصل إلى الرياض ولم يكمل ليلته الأولى نائماً بل على ظهر شاحنة متجهة إلى الدمام لتجلب بضاعة يحملها بآلاف الريالات. تبني الحكومة دولتنا الفتية فتسخر أفراداً أمثال أبي مكافحين بل جبابرة لا يعييهم طول ساعات العمل ولا تخمد هممهم أمام الريال فيواصلون لياليهم بصباحات أيام الخير. لم يكن يفسد نفسه بالتنعم بماله الوفير بل كان يتحسر على شيء ابتاعه أو وجبة اشتهاها، الفقر المدقع يورث البخل الفاحش، كانت رغبته بصعود درجات السلم في قفزة واحدة عالية.

في رحلة من رحلاته إلى الدمام، لينقل بعض الصفائح الحديدية متجاوزاً بالطبع أنظمة الوزن، صادف انعطاف شاحنة

أمامه بسرعة متهورة لتدفن نفسها بعيداً في الرمال، بعيداً عن أعين المسافرين ليلاً، توقف أبي حينها ليسعف صاحب الشاحنة الذي يعرفه جيداً ولكن الوقت لم يمهلهما فاشتعلت النار في الشاحنة، اقترب أبي من المقطورة ليخطف بسرعة حقيبة لا يعلم ما فيها ولكنه شعر بقيمتها، فلف بالحقيبة إلى مؤخرة شاحنته ومضى بعد أن تجمع بعده عدد لا بأس به من السائقين.

تمر سنة واحدة فقط، مكتب في أهم شوارع منفوحة، يزمجر فيه شاب في مقتبل العشرين تتوسط المكتب لوحة تعلن للداخلين أنهم في مؤسسة المعيض للتجارة والمقاولات والنقليات وبضع سنين تليها كوّن خلالها أبي أموالاً تحسب ثروة مجهولة المصدر حينها، ليأخذ خط العودة إلى الخميس وليبدأ مشواره الأسطوري كبقية الأساطير التي تعيش إلى الآن، في كنف مغامراتهم وجلدهم أيام الطفرة التي ألهبت بطون الجياع. حين أتى إلى الخميس كان يحمل صك الغفران، اعتاد كثير من المتسلقين الحصول على صكوك الغفران من أشخاص ذوي أهمية وسلطة في العاصمة يعملون تحت أسمائهم وهيبتهم، وكان هذا الدجاج ببيضه الذهبي يحصد عمولته من كل صفقة مشبوهة بمجرد ورود اسمه في تلك الصكوك، اشترى أرضاً كبيرة بالقرب من وسط الخميس في تلك الفترة وحصل مقابلها على تعويض التثمين من الحكومة أضعافاً مضاعفة، استطاع أن يبتاع بجزء من مبلغ

الثمين أرضاً أكبر في إحدى الضواحي بأبخس الأثمان ويبنى عليها بيتنا الأول.

تزوج أبي بأمي، بعد عودته بأشهر، زواجاً اشترى به، بكثير ماله، شيئاً من وجاهة عائلة أمي؛ فالأنساب هناك تؤثر كثيراً في حياة الأفراد والزواج يتحول بطبيعته الفطرية المحببة القديمة إلى وسيلة من وسائل العلاقات العامة تتطفل حوله أشياء كمالية كالجنس والحب والعشرة. ولدت أختي فغضب حينها أبي وابتدأت أولى حلقات الكف العجيب ليلتها وأتت الأخرى فتحول المسلسل إلى فيلم سهرة مرعب، وولدت أنا فخفت الأفلام المرعبة ولكنها لم تنقطع بل لم تزل أدوار شخصية البطل تظهر بين ليلة وأخرى. عشت سنواتي الأولى في هذه الأجواء، أم منكسرة خجولة حنونة وأب فرعوني متقلب بين الرضا المثير والغضب الجامح.

"أقصى العذاب أن توهب عقلاً محتجاً في مجتمع غير محتج".

عبد الله القصيمي

10

- أبو فيصل؟
- سم أخوي منصور.
- مبسوط في حياتك؟
- رضا الناس غاية لا تدرك والنفس البشرية منذ الإنسان الأول إلى العبيط الأخير لا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب.
- وأين الدين في حياتنا؟ ألم يتفق أئمة المسلمين أن السعادة كلها في تمسكنا بديننا؟ هل ابتعدنا عن الدين فضاقت حياتنا حتى أصبحنا نتأمل أفعالنا بعد حين، نستذكر جرأة لا نستسيغ أن أحدنا قام بها؟ ألم يقل الله تعالى...

- منصور ناوي تصير مطوّع؟

- أنت صديق العمر منذ قابلتك في الرياض قبل عشر سنوات، ولا أثق في كثيرين مثلما أثق فيك ولأحدثك عن ما يدور في كواليس فكري قبل أن تخرج لمجتمعنا الناقد بطبيعته...

- حسناً تحدث أنا كلي آذان مصغية.

- أمة الإسلام نحن، قبلة ملايين المسلمين ومسجد رسولهم ومهد الرسالة هنا، نزل جبريل بالوحي قبل قرون على جبل من جبالنا السوداء ولم يختر جبال الألب أو الأنديز أو الهملايا بالرغم من جمالها، أعني أننا لم نختر نحن العرب لحمل آخر الرسائل السماوية عباطة يا عيط.

شاءت الأقدار وأصبحنا نحن الأحفاد نحمل أحمالاً تحرمنا كثيراً من المتع وتكسبنا خصوصية ننفرد بها وحياة محافظة تتجمد فيها حرياتنا وحقوقنا في قوالب صغيرة جداً، لأننا شعب غير تقليدي بل فريد من نوعه أو هكذا يجب أن نظهر للعالم.

أتذكر أبا فيصل أزمة حركة الأمراء الأحرار، التي نشأت على غرار الضباط الأحرار، الجماعة التي انطلقت شرارتها من بعض الأمراء الشبان أنفسهم مطالبين بالبرلمان والحكومة الدستورية وحريات أخرى، وضاعت بين معسكري الملك سعود بانفتاحيته والملك فيصل بتحفظه فاتهمت، أخيراً دينياً، أنها مصدر للفتنة من جميع الأطراف، ورحل الأمراء طوعاً

أو قصراً إلى الخارج. وحين كنت في بداياتي مع قوات الأمن نطوق القصر الملكي بالناصرية تم انتقال العرش بين الملكين بقوة دينية، بإصدار رجال الدين وقتذاك فتوى بخلع الملك السابق، بعيداً عن قوى القبيلة أو الحوار أو حتى الجيوش، لا أحد يقف في طريق الدين والإخوان وصور الصحف وغيرها أكبر الشهود وأقواها؛ ومنذ ذلك الوقت علمت أهمية الدين في نفوسنا نحن كسعوديين وأننا نقدسه أكثر من أي شيء آخر.

توالت الأحداث وخمدت الفكرة قليلاً وشغلني تفوقي في كل مغامرة بل كل جولة حربية وأنا الضابط الأمني لم أهدأ يوماً بل انطلقت، تلقيت ترقيتين في مدة لا تتجاوز السنة حتى بلغت سمعتي الآفاق وأنت خير الشاهدين.

– يعني لا تبالغ مو مرة هاها حسناً كمل كمل!

– ها أنا أبلغ ما كنت أحلم به: مركز مرموق، شاب كبير قليلاً لكنني مرهوب ومرغوب، لا يصل كل أقراني إلى ما وصلت إليه وأنت ترى أصدقاء من أطياف مجتمع جدة كلها وأجمل الفتيات يقدمون لنا أجود أنواع الخمر الممنوع، شباب وسلطة وأموال ولكنني تعيس لا أشعر بالسعادة، أنفرد بنفسي ليالي طوالاً فأقلب أوراق الماضي ورقة ورقة وألوم نفسي وأمدحها والوساوس تدفع بي إلى الجنون، أين سرحت أبا فيصل؟

- حسناً كلامك إلى حد ما مقنع لكن دعني أخبرك: الحال تغير والأوضاع اتخذت مناحي أخرى، الأميركان صعدوا القمر ونحن لم نصل قلعة وادرين، الناس بعد النكسة وموت عبد الناصر ملوا السياسة ولعنوا أحلام الوحدة العربية الغبية واتجهوا وراحوا يأكلون عيشاً. الماضي القريب الذي تتحدث عنه مختلف كاختلاف مئة قرن والأيام تمضي سريعاً، تشرق شمس الغد بلون جديد وطعم مختلف عن طعم الأمس ورائحته، واعلم وأنا العارف ببواطن الأمور والقريب من دهاليز القرار في الرياض لولا الحكمة العالية من حكومتنا لما نعمت أنت وغيرك بالأمن والاستقرار وأنت ترى العرب بل العالم أجمع من حولك يتطاعنون ويتآمرون وتضيع شعوبهم باسم العدالة والمساواة والديموقراطية. قرون النور أضاءت مدننا من بغداد إلى طنجة ومن فيينا إلى صنعاء وقضى الله أمراً كان مفعولاً. يأتي دورهم فينير الغرب مدنه ونشعل نحن بعض الشموع هنا وهناك سنة الحياة لا راد لقضائه، حكمة تسمو عن حسدنا كأمة حاسدة تنتهج نظرية المؤامرة منهجاً لها. نعم كان قدرنا أن نكون حماة البيتين وخدامه ونحن بإذن الله ثم معونة هذه الدولة قادرون وإن أخطأنا بعض الشيء.

إن كنت أفهم ما ترمي إليه بدقة فاقنع نفسك بنظرية جان جاك روسو، تنازل عن بعض حقوقك وحرياتك لمجتمع يحميك ويصون بقية حقوقك، والملك بالعكس لو أنك سياسي وتفهم بالسياسة تذكر موقفه الفطن في الأزمة اليمنية،

ثورة الجياع كادت أن تهدد بلدك ودينك ومجهودي ومجهود كل شخص في هذا البلد وكان صرنا على بلاطة في المشمش، يا أخي يكفيك أنه منذ ليلة النكسة لم يبتسم قط، همّ الحكم هدّ حيله، وتأتي أنت وتقول إن الحال لا يعجبك، اصمت ولا تتكلم مع أحد به؛ وصدقني في الطريق الصحيح البلد صار بلد مؤسساتي بكر، كل يوم منشأة حكومية وكل فترة وزارة أو بنك أو مصلحة وسياسة الحكومة الاقتصادية برغم قلة خبرتها ممتازة، اشترينا ربع شركة أرامكو وابتدأت خطط التنمية الخمسية وجامعات جديدة هنا وهناك وتعليم بنات ماذا نريد أكثر من هذا؟!! وفي الحقيقة أنا أكثرت من الكلام الجاد فهل لي أن أغير موضوعك الظريف هذا!؟

- تفضل أيها العبيط.

- حسناً! من تلك الفتاة التي تستقبلني وتتمخطر كجارية في بيتك أيها العربيد؟!

- اها تقصد سمية إنها صديقة لي، تعرفت إليها حين قدمت إلى المركز تشكي أحد أقربائها.

- وماذا كانت قضيتها؟

- دعارة!

- أوف دعارة!!

- كان قريبها يجبرها لتمارس مع شخص ما حلفت هي ألا تعاشره مرة أخرى. وحين أجبرها تحرك عناد المرأة

المعروف ليحركها القدر نحوي أنا السلطان عبد الحميد فحميتها وعرضت عليها أن تقيم معي في بيتي معززة ومكرمة فلم تتردد قط.

– وطبعاً السلطان عبد الحميد غامض جلة ومرهبها لا أحد يجرؤ أن يسأله من أين لك هذا؟!

– انتظمت حياتي معها ولا أكاد أفكر في العيش بدونها ليس نوعاً من الحب ولكنه حاجة ومصلحة فقط.

– بخبث: فقط!

– صدقني أنني أعاملها مثل صديقة بالرغم أننا لم نعتد أن نصادق الجنس الآخر.

– تغيرت كثيراً عليّ أخي منصور.

– قل لي بربك من لا يتغير؟

– الأصيل لا يتغير كخلود الذهب.

– قيم بالية، هل تعاندني؟ أنت تناقض نفسك أم أنك تعاندني كعادتك؟

– أنا لم أتغير.

– تباً لك أعاندك لأحاورك وأحاورك لأعاندك.

– هاها ألا زلت تتذكر مقولتي؟

– ومن ينسى؟!

تقترب سمية مرة أخرى، تحنو انحناءة المرأة العاشقة وتهمس في أذن منصور فيحرك رأسه وكأنه يوافقها على ما حدثه به ثم عادت إلى مكانها أمام الأربعة، وتوالت الأغاني

والكؤوس تطوف والضحكات تتناثر وذكريات الصديقين وقفشاتهما تثير بهجة الفرح الماجن في المكان. وبالرغم من كل الحضور الكثيف لهذا الضيف لم يبتعد طيف سمية عن عيني أبي فيصل لحظة واحدة، يرقبها حين تقدم الكأس في غنج وحين تداعب منصور بقطع الفاكهة وحين تغزو قلبه جيوش صوتها العذب فتكسبه، هو النجدي القاسي، رقة الحجاز التي لم يعهدها حتى في زوجته، واستبد به السكر حتى أخذ يحدث نفسه:

- هل تحبني؟

- فيجيب نفسه: لأنها ابتسمت في وجهك أيها الأهبل شعرت أنها أحبتك؟

- ولِمَ لا أنا وسيم ومؤدب وظريف...

- تجيب بقايا عاداته وتقاليده: ألا تستحي؟! ألا تخجل؟! عيب؟!

- ولكنني لم أفعل شيئاً إلى الآن؟

- ولكنك ستفعل؟

- لا طبعاً، أصلاً هذه صديقة صديقي منصور.

- ما شاء الله، منذ متى تعرف صديقات الأصدقاء بل حتى احترام المرأة كإنسانة لا كأنثى.

- الحياة ليست كلها جنس.

- ولكنه أهم أجزاء الحياة البشرية، وأنت الآن سكران ولا تعي ما تقول وما تفعل.

- فعلاً بدأت أناقض نفسي، هل أفرطت في الشراب؟
- انظر إليها إنها تشتهيك.
- أين منصور؟
- ذهب.
- وزعرور وحسين والفتاة الأخرى؟
- لا أعلم.
-أين أنا؟
- في غرفة النوم.
- أشعر بالتعب.
- نوم العوافي حبيبي.

"أن يكون عندك أطفال لا يجعل منك أباً..
تماماً كأن يكون عندك بيانو لا يجعل منك موسيقاراً".

مايكل لوفين

11

ترتبط المثلية في السعودية أيضاً بعدة مفاهيم تطرأ على الأذهان كلما أتى ذكرها، تبتعد عن عبدة الشيطان والنار كما في كثير من الدول، ولكنها تقترب من تشبيههم بالنساء والمخنثين المنهي عنها ديناً وعرفاً، لها جذور اندثر كثير منها في بعض المدن المحافظة ولكن طابع المدينة المجتمعي وطوفان الانفتاح المدمر المحكم الإغلاق في نفس الوقت أوجد فئة من الشباب والفتيات تبتعد عن ما يؤثر على حياتهم بالموت أو بالسجن أو حتى بالسمعة السيئة إذا هي أو هو فكرا مجرد التفكير في مجاراة الفطرة والحديث مجرداً فقط

مع الطرف الآخر، فانطلقت روائح المثلية والسحاق تنتشر في هواء المدن وبيوت الناس فتزكم الأنوف وتقتل الغرائز وتستنكر الجموع في استغراب مصدر هذه الروائح النتنة والغريبة وتهدد المنابر بوعيد المصدرين لهذه الروائح بالنار والعذاب والتعزير وعيداً جائراً متهوراً دون معرفة لماذا تلك الرائحة؟ لا من مصدرها؟

- بسام مؤنباً: أين كنت؟! لقد انتظرتك الساعة 12 ليلاً ولكنك لم تأتِ فعدت إلى البيت.

- أعتذر منك لقد استجدت أمور طارئة لم أستطع أن أحضر لموعدنا.

- خيرها في غيرها.

- غداً الأربعاء ما رأيك؟

- حسناً ولكننا لن نتقابل في نفس الشارع المهجور، ما رأيك في مقهى بارنيز في التحلية؟

- حسناً وهو كذلك في الساعة التاسعة مساء، ماذا سترتدي؟

- تي شيرت أحمر بمربعات زرقاء داكنة وجينز أزرق.

- تشجع الهلال؟

- كيف عرفت؟

- أعتقد أنك تحب اللون الأزرق وتبتهج بصور لاعبي الهلال على الماسنجر.

- نعم أنا هلالي وأنت؟
- لا عليك حسناً آمل أن نتقابل، لا تتأخر.
- وأنت كذلك.
- باي.
- باي.

يخرج بسام من غرفته وينعطف نحو جناح أختيه، يرهف سمعه عله يفاجئ أخته جوري كعادته، يدخل بلا مقدمات فترتبك الأخت وتسقط الجوال من يدها، تنطلق كلبوة غاضبة لتطرد بساماً وتكيله عشرات اللعنات لأنه قطع حديثها الحميم مع إحدى صديقاتها!! يدق باب غرفة سارة لترد عليه بأن يتفضل، يجلس على أول كرسي يقابلها فترحب به وتسأله عن أخباره ومدرسته، لغة الأخوات الكبيرات المحبات، يجيبها بحماسة الطفولة التي لم تغادر للتو وجهه الوسيم، ويسرد حكاياته المرحة والمحزنة والبطولية عن مدرس الرسم الموهوب، إعجابه الشديد به لتشجيعه لأول مرة لموهبة الرسم المدفونة خلف أنامله الصغيرة، يخبرها عن معركة حصلت قبل أيام خارج أسوار المدرسة، وعن سعادته بسيارته الجديدة بالرغم من صغر سنه، وعن اشتياق لم يعلنه صراحة غلفه بسوء السائق الجديد مقارنة بجوزيف، يكتشف عقل الطبيبة المبتدئة جزءاً من أعراض المشكلة فتشاركه الحوار.

- هل تحب الرسم؟
- نعم.

- وماذا تحب أيضاً؟

- أحب أن أكبر بسرعة.

- ولماذا؟

- أبي وأمي لا يعيران أي اهتمام، فأنا طفل لا أفهم شيئاً في حياة الكبار، أنا لست دمية أو هامشاً أو مخلوقاً برياً من الغابة وحتى الحيوانات تعيش أحسن مني أنا.

- تضمه بحنان: من قال إنك دمية؟ أنت أخونا الوحيد وحامينا وسندنا وذخر لنا، وبالعكس ممكن أبي وأمي لا يريان فينا نحن وأنا أكبر منك بسنوات إلا أطفالاً، وهذا دليل على حبهم وعطفهم الكبير وإنشاء الله تكبر وتتخرج وتصير دكتوراً أو مهندساً ترفع رأسنا ورأس العائلة كلها.

- ينزع جسده من حضنها ويصرخ وهو يغادر الغرفة: أتخرج أتخرج أتخرج، كرهت حياتي بهذه الكلمة، تتكلمون عن المستقبل البعيد الباهر، طيب والآن ولحظتي هذه أليس لها نصيب من اهتمامكم؟ أتمنى أن أموت حتى لا تأتي لحظة تخرجي هذه، حتى أنت يا سارة مثلهم للأسف.

تمر تلك الليلة وتنقضي سريعاً، تعد الساعات دقات قلب بسام وتسلط النجوم لتنير ليلة الخميس الحمراء التالية، ولتكسب شوارع جدة دفئها المعهود، وتنتشر جموع العشاق في مقاهي المدينة ومطاعمها وشققها وشاليهاتها وكل شبر فيها وكل زاوية منها، ذكاء لا حدود له وفطنة لا تردع هذه الليلة من الاحتفال، بالرغم من الأسوار المحيطة والأعين المربكة،

يجيد هؤلاء العشاق من جميع الأطياف ممارسة لعبة الحب القديمة.

تتعانق عقارب الساعة لتشكل زاويتها القائمة، معلنة الساعة التاسعة بدنات صامتة، أيمن يرتشف الكابتشينو محاولاً إضفاء ملامح الاسترخاء واللامبالاة، وبسام يمرر يديه على شعره الناعم محاولاً إعادته نحو الأطراف ليبدو وجهه المضيء وليكسب مظهراً رجولياً أكثر، يدخل، يتلفت، يتقدم نحو طاولة الطلبات ثم يكمل مسيره دائرياً وكأنه يبحث عن مكان يناسبه ثم يرى أيمن ويتبادل الابتسامة معه، يقترب منه ويقرر العودة لحظتها، يفكر في لحظة طفولة مضت حين تخبره سارة أن أمه فقدت شيئاً من جسدها يسمى الرحم حين ولادته، فكرة استحالة أن يحلم بأخ أصغر يسلي وحدته المريرة مع أب غريب الطباع، يؤيد كما سمعه ذات مرة أن ابناً أو اثنين يتلقون تربية حسنة أفضل من عشرة من أولاد الشوارع، يكبر عشرين سنة فجأة، يسأل نفسه هل ستكون فخوراً بي يا أبي؟

يقف أيمن ليحيي بساماً، تمتد يد أيمن ليمسك بها بسام في حركة ظهر وكأنها ردة فعل لم يتوقعها، بل أبدى اندهاشه منها.

- بسام؟
- سوري ما فهمت؟!!
- أنت بسام؟

- لا غلطان.

- لا متأكد أنا أيمن، بليز حبيبي تفضل.

- عزيزي أنت غلطان أو يمكن مشبّه، بسام سوف يقابلك حين يقتله اليأس وتختلي به الوحدة وتدفع به الذكرى نحوك.

- أنت تعرف بسام؟

- لا أعرفه ولكن أعرف كثيرين أمثاله يعيشون هنا.

- حسناً، آسف عل كل حال.

يلتفت نحو أيمن، نظرة أخيرة، نظرة لا مثيل لها تمتلئ شهوة وحزناً وألماً وفراقاً وكرهاً وحباً وهوى وعشقاً ومشاعر، تغادر القلب لتغري العقل فتعود أدراجها بعد أن تعبت من دفع العقل المتعنت، تتنازع أطرافه فرجل تتقدم وأخرى تتأخر ويد تختبئ في الجينز الأزرق وتشتبك مع أختها في ارتباك، يتخيل الفكرة السؤال فيكسر عنفوان السؤال وجرأة الخيال سفن جوزيف ولذته المحرمة التي يشتهيها مع أيمن.

يخرج من المقهى مخدراً، يركب السيارة وينفجر في ضحك هستيري لا يدري لماذا ولا يعي له معنى، يشعل سيارته الفارهة بصوت المسجل الصاخب وينطلق كيفما اتفق، يوقف سيارته قريباً من شاطئ البحر ويمشي وحيداً، يفكر، يتأمل، يأكل بليلة، بيبسي، يفكر بعمق، يقرر، يعود في قراره، يصر على ما كان أقره، ينقسم إلى أحزاب يسار

ويمين، تصويت، وأخيراً يعلن أن يقطع كل علاقاته وبدون إبداء الأسباب مع أيمن إلى أجل غير مسمى. تعجبه روح التصالح والديموقراطية التي عالج بها هذا الموقف، يعود إلى البيت، يحاول النوم ولكن أصوات المعارضة تشوش، ترسل مذكرات الاحتجاج على القرار لإلغائه.

يخرج ليجد والديه قادمين للتو من سهرة ممتعة كعادتهم، رجال الأعمال وسيداتهم لا بد أن يلهثوا ليكسبوا وبجدارة لقب رجال المجتمع وسيداته، يرتقون حتى يصبحوا من وجهاء المجتمع وهكذا، حقاً إنها النخبة. تصعد الأم المنهكة بأطنان الماكياج وقطع الذهب الأبيض المطرزة حول العنق والمعصم نحو غرفتها، قالت قبل صعودها "روح غرفتك نام، الساعة متأخرة".

- مساء الخير يا بني.
- قصدك صباح الخير.
- المهم، كيف سيارتك الجديدة إنشاء الله أعجبتك؟
- رائعة، شكراً لك يا أبي.
- وهل عندي أغلى منكم؟ أنتم فلذ...
- مقاطعاً: أبي ممكن أتحدث معك قليلاً؟
- تحدث!!
- حين تزوجت أنت وأمي ألم تفكروا أنكم ستنجبون؟
- أكيد طبعاً.
- وماذا ستنجبون؟

- أرانب هاها طبعاً أولاد مثل القمر مثلك.

- طيب، لكن لا نراك إلا في المناسبات وأمي كذلك؟

- يا ولدي أنا رجل أعمال، وما شغلي وانشغالي أنا وأمك إلا لك ولأختيك في المستقبل، وإنشاء الله تكبر وتتخرج وتصبح ذراعي اليمين، وحينذاك ستعرف لماذا نحن مشغولون عنكم...

تحدث الأب طويلاً، ولكن دمعة ملأت مقلتي بسام الصغيرتين لتفرق أفواجاً كثيرة، خرجت تغني وترقص فرحاً بانتصار أحزاب المعارضة انتصاراً ساحقاً، ألغت كل القرارات بل كل المعاهدات ونسفت كل الوعود والتشريعات، وظهر لنا بسام آخر لا الذي نعرفه ولا الذي تربى بين ظهرانينا.

"منذ كنت طفلاً كنت أكره الوداع، كلمة بالنسبة لي تعني شكلاً مصغراً من أشكال الموت".

لوركا

12

قضى حسن سنواته الأولى بعد زواجه من شاهرة في القرية، لم يتعلم عادات القبيلة وطبائعها فقط، بل انغمس في مجتمعها البدائي، كان فاكهة القرية يأنس بحضوره الكبار فهو يمازحهم وقد اعتادوا منه المزاح وروح الدعابة فيما بينهم، وجدوا في كلامه الغريب أشياء اعتادوا فعلها وقولها ولكنه حين يخبرهم عنها يفاجأون بها، حكى لهم عن طه حسين الوزير الضرير، لم تستسغ آذانهم الكلمة الأولى وضحكوا من الثانية، وعن ثورة 23 يوليو/تموز فطار المجلس بسواليف

الثيران، هذا سقط في البئر وآخر قطع رأسه يوماً ما فانطلق مسافة قبل أن يسقط صريعاً، وذات يوم أخبرهم عن جرأة السيدة هدى شعراوي حين أقبلت على الأمة وزعيمها ونزعت حجابها بعد نضال طويل ولأجيال متلاحقة، لم تترهم قضيتها وقتها فكل نسائهم يشعون حياء وطهراً بلا حجاب وبلا نضال.

واعتاد فتية القرية كذلك على الأستاذ حسن فقد كان يغذي في نفوسهم أطيب الأشعار وأروع قصص الغرام التي كان بخبث أبيض ينسبها لنفسه. ينبهر به الفتية ويزداد هو إعجاباً بنفسه كلما سمع كلمات الإطراء والإعجاب. يتسامر معهم في تل الجبل أو بطن الوادي، يغامرون فيذهبون معاً إلى بيت صديق لهم في السراة حيث الراديو، الاختراع العجيب، وينصتون لإرهاصات كوكب الشرق مساء أول خميس من كل شهر، وآهات وأنامل الموجي تتلاعب وهم تتلاعب بهم مخالب الشهوة، يكبلونها بأحاديث البئر وقبلات الشجر البريئة، وقبل اشتعال الفتيلة ينكسر الفانوس، وتعلن القرية عن زواج فطري مليء بالحب والمودة والرحمة والحاجة أيضاً.

لا أحد يدري من أين أتى؟ ولا أين ذهب؟ ولكن أغلب الروايات تؤكد أنه مكث في القرية ما يقارب خمس سنين أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات، وأنه قدم من اليمن بعد أن انسحب إما قصراً أو كانت تلك استراحة المحارب، الذي

أرسلته الحكومة المصرية جاسوساً ليساند الثوار اليمنيين ضد حكم الإمام أحمد يحيى حميد الدين في 21 مارس 1955، ولكنهم فشلوا في تحقيق ذلك وبطش الإمام بزعيمهم أحمد الثلايا ومن معه ومن ساعده. كان ظله يختفي تحت غطاء القائم بأعمال مصر في اليمن بكونه متخصصاً في شؤون التاريخ ليتقبل النظام الأمامي الجاهل بكل أريحية وجوده. الكل دولاً وأفراداً وأولهم حسن يعتقدون استحالة الثورة في دولة بنى أئمتها نظاماً، يمتد قروناً محكم السيطرة، وأطواقاً من الإرهاب الاجتماعي والفساد والجهل والتخلف والخوف والظلم، حوّل حاضرة اليمن الحكيم السعيد إلى سجن مقفر كبير، فنطقت أشعارهم بواقع الحال حين قال الزبيري صديق الإمام ثم عدوه ووزير الثورة:

نخشى سيوف الظلم وهي كليلة
وتقدس الأصنام وهي حطام
نبني له عرشاً يسود فيبتني
سجناً نهان بظله ونضام
جهل وأمراض وظلم فادح
ومخافة ومجاعة وإمام

تسلل عبر جبال السراة شمالاً قاصداً مكة لعله يريح نفسه ثم يعود أدراجه نحو القاهرة ولكنه آثر البقاء في القرية لأسباب لا يعرفها إلا هو، ربما كان ينتظر إشارات معينة ليكمل مهمته، وامتد الانتظار سبع سنوات، أنجب أول أبنائه

من شاهرة ثم أتبعه بابن آخر وكان نعم المربي ونعم الأب، مثالاً يحتذى به، فقد جسد صورة الأب المدني المتواجد بكثرة في البيت، الملتزم بأساليب التربية والعشرة والعلاقات الاجتماعية الجيدة، في بيئة لا تعي من التربية مفهوماً إلا تربية الماشية.

توفي العم عائض متأثرا بمرضه الذي بقي فترة طويلة يعانيه قبل ولادة الأخ الثاني، اسودت الدنيا قليلاً بفقده وغذى حسن روح شاهرة الصغيرة بكلماته المفعمة بكل معاني الرقة والأمل والحنان، غمر تلك الروح عبق من الصبر والتجلد والتفاؤل بعد أن فقدت من رباها وأحسن رعايتها، وكلما تذكرت مواقفه قطع حسن ذكرياتها بطرائفه وخفة دمه وحضوره الذكي المبهج، كان ينفق ما يحصله من آباء الطلاب على العائلة الصغيرة ليعفي الصغيرة شاهرة من الخروج إلى الحقول والبيوت لالتقاط الرزق الذي سيكون ضئيلاً ومليئاً بالتعب والشقاء.

في إحدى ليالي الصيف ذهب مع تلامذته الكبار إلى صديقهم في السراة ليسهروا معاً وليحدثهم أحاديث عمره العجيبة، ليسمع منهم جمل الإطراء وبقايا أساطير القبيلة وأيام الحرب القديمة، كان الصديق قد جهز المجلس بالقهوة وبعض قطع خبز التنور البلدي كمفاجأة لهم، مفاجأة تلك الأيام، إنها أزمنة الجوع، رحب بهم و"قلطهم" وبدأت ليلة السمر تأخذ طقوسها، ولكن فجأة قطع سمرهم صمت حسن

وإرهاف سمعه نحو الراديو، توجس خوفاً ولمح طلابه وأصدقاءه تغير ملامحه، اعتذر منهم باكراً بعد أن أمضى بعض الوقت صامتاً، واحتار الجالسون في وضعه وتغيره وخروجه الباكر المستغرب.

- تمسك بثوبه: أين ستذهب؟

- استجدت أمور يا شاهرة، يجب أن أرحل سوف أخبركم أين أنا أو سوف أعود إليكم.

- ماذا؟ ماذا؟ إنه الليل يا حسن وفجأة هكذا إلى أين بربك؟

- وما عساني أن أفعل قدر الله أمراً كان مفعولاً.

- الله لا يحب الظلم.

- نعم وأنا أحبكم وسوف أعود إليكم صدقيني.

- متى؟

- حينما تنتهي مهمتي وآخذك أنت والأولاد بعيداً من هنا.

- حسن أرجوك لا تتركنا.

- ومن قال إنني سوف أترككم. أنت حبيبتي وقلبي وحياتي وأمي وكل شيء جميل لي وهذان إبناي حبيبانا، سوف أعود، أعدك.

- أبي وملكي أنت، اعتني بنفسك وسوف ننتظرك.

- لا توقظي الولدين، وأين ضحكتك يا حبيبتي هل ستختفي الليلة؟

- تبتسم والعبرات تخيط شباكها حول عينيها: حبيبي...
- يحتضنها بشدة حتى يسمع أصوات عظامها: لا إله إلا الله.
- ودموعها تنهمر على كتفيه: أوعدني أنك ستعود؟
- قولي محمد رسول الله.
- محمد رسول الله.

تبتلع حسناً ظلمة الليل، وتزيل الريح آثار قدميه ولكنها لا تمحو نطفتيه الصغيرتين، وذكرى رجل ستخلد في القرية، رجل خرج ولم يعد. قالوا إنه كره المنطقة بعدما ملّ جهل أصحابها، وقيل إنه تذكر أهله وعاد شوقاً إليهم أو أنه رأى من زوجته ما يكره نتركها دون أن يحرج أهلها أو جماعتها. هذا السبب الأخير توليفة نساء القرية المقهورات من نظرة شاهرة السعيدة وهم يرون حياتها الهانئة مع حسن. وآخرون اعتقدوا أنه ككل الرجال الذين يرحلون لطلب العيش شهوراً وقد تمتد رحلتهم سنين وهم إما يموتون أو يعودون كما ذهبوا تقريباً. وتواترت الأخبار أخيراً أنه ذهب لنجدة الثوار وجهاز الاستخبارات المصرية في صنعاء حين سماعه تلك الليلة أخباراً تشير إلى أحداث غامضة وبعثات دبلوماسية إلى عدن وصنعاء بأهداف كثيرة معلنة من توطيد العلاقات الناشئة حديثاً بين الثلاثي المصري والسعودي واليمني وترتيب البعثات التعليمية للدراسة في الجامعات المصرية، ولبحث مشاريع اقتصادية وهمية وأهداف أخرى سرية تدعم ثورة يمنية

في وطن عربي تغلغلت فيه نسمات الثورة، ثورة ضد كل شيء.

في شهر مارس/آذار 1962 أعلن عن وفاة الإمام أحمد يحيى حميد الدين، ولم يمض أسبوع واحد على تقلد خلفه سيف الإسلام محمد البدر حميد الدين حتى انقض الثوار المدعومون من الجيش المصري وعدد من شيوخ القبائل على الإمامة، وأعلنت الجمهورية اليمنية على أراضي شمال اليمن برئاسة عبد الله السلال، عاد حسن بعدها بسنوات خلسة إلى القرية، كان أهلها قد هجروها ولم يبقَ للعائلة الصغيرة ذكر. ثم سرت شائعة أن رجلاً باع معلومات قيمة إلى الاستخبارات السعودية دفعت الأوراق الملكية كثيراً في أزمة اليمن حينذاك، وكان المقابل الجنسية والعمل، نسيان حياة، وجه آخر، شخصية أخرى.

– تستوقف الفتاة أباها: يعني جدي كان مصرياً!

– نعم يا ابنتي هذا ما أخبرني به من عاشره تلك الأيام، كان طيب المعشر لا أحد يذكره إلا ويذكر أفضاله على القرية والقرى جميعها، نور العلم يضيء النفوس والعالم شخص محبوب، أتعلمين أعتقد أن العلم مثل اللون الأبيض بصفائه ونقائه بلا رتوش وبلا خبث ونحن كبشر نحب اللون الأبيض.

– بدأت أشعر بك وبأبيك يا أحن الناس يا أبيض!

– مقبولة منك.

اختفاؤه المفاجئ وقصة الحب بين الفرعوني وبنت السراة لم تدع لتلك الأرملة شاهرة الوقت لاستيعاب حجم الصدمة، وحيدة تركت مع طفليها في مهب الريح؛ وفي مجتمع تسيطر عليه أساطير الخرافة وأصنام الفقر، بالرغم من تفوقه في تكافل الأسر الاجتماعي، إلا أن الملخص الأخير يؤكد أن الجميع مهدد بالموت جوعاً.

شاهرة كانت فتية تلك الأيام، تخطو في مجون نحو بدايات العشرين من عمرها، وتحيط إبنيهما بكثير من الحنان والحرص على تربيتهم، بعد أن كاد يفتك بها الحزن على حسن، ولكنها كجبال السراة قسوة، طردت مشاعر الحب واللوعة من قلبها شر طردة، كبرت في أيام قليلة سنين كثيرة بعد سماعها عن موت زوجها، اسودت الجفون، امتقعت الشفاه، وحسر الشعر بلا انتظام خلف منديلها الأصفر، انطلقت بعد ذلك نحو هدف واحد وواحد فقط وهو ولداها.

لم تستطع إهدار كرامة الجنوبية أكثر من ذلك بعد أن اندثر مورد رزقها، حفيت قدماها البضتان وخشنت يداها الناعمتان في حقول القرية وبيوتها. لم تطل في اتخاذ قرارها بعد أن سبقها العديد من أهالي القرية الوادعة والقرى المجاورة بالهجرة نحو الشمال. استقلت اللوري صباح أحد الأيام تصحب طفلاً يبلغ من العمر خمس سنوات وآخر يصغره بعام وبقش تحمل بعض قطع القماش تسمى ملابس

وأدوات عيش بسيطة وكيس حنطة وقهوة وبقايا من عملة ملموغة في فرنسا تسمى فرانسي وأخرى عربية، رمان أهداه لهم جار منذ أيام، قليل من الأشياء للحياة، كثير من الخوف من القادم المجهول، ولكن الحاجة منذ الأزل تدفع الناس إلى أشياء لا يستسيغونها.

«فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذا البلاد، ويتغرب في طلب العلم يجد الأمور المعينات كثيرة، وأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب العيش بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك».

الرحالة المغربي ابن جبير يذكر كرم أهل الشرق للعلم والعلماء في القرن الحادي عشر الميلادي

13

في المقهى، كان التلفاز يبث ندوة عن حقوق المرأة، مصطفى وخالد ومجموعة تجلبهم الفكرة، وتنتهي الندوة والجميع صامت، في الحقيقة كانوا يلعبون الورق، أو مشغولون بتدخين الشيشة.

- ينحني نحوه: تصدق يا مصطفى أنني كنت ولا أزال أضحك ملء شدقي وأعقب ذلك الضحك ببكاء مرير أخاف على الآخرين من سمك نشيج هذا البكاء، مريض نفسي، أكثر صراحة أنا مجنون، ربما أكون كذلك. ولكن إذا عرفت مصدر هذا الهذيان ستعذرني بلا شك، ولكن عذرك لن يخفف من عنفوان اغتصاب ذلك الموقف مخيلتي.

- تفضل كلي آذان مصغية!

- بعض الليالي تمر علينا دهوراً لا تنسى، بل تتشكل بها حياتنا ونظرتنا للحياة من حولنا، تقل حدتها ـ أي تأثير هذه الليالي علينا ـ كلما توسطت أعمارنا بعيداً عن الطفولة وعن الكهولة، بالتأكيد أنت تملك ذكريات شتى عن ليلة لك هنا أو هناك، ليلة العمر، لا أقصد ليلة الزواج، ولكنها ليلة تبني حياتك عليها، وسأخبرك أنا بواحدة. كنت أقارب العاشرة حينها وقد غمر دفء الصيف الحاني بيتنا وبيوت الضاحية الهادئة، أظنه منتصف الليل لم يعد لدقة الوقت معنى حينها، دخل أبي البيت كالنار، تحترق الأشياء من حوله، هلع الحريق يضفي أجواء من الخوف، شعور بنهاية الحياة في كل الغرف والأروقة والمجالس الكبيرة والحديقة الساذجة أمام بيتنا وأسواره العالية وفي قلوب إخوتي الصغار والكبار أيضاً وحتى فئران المطبخ الظريفة! تتقافز أمي فوق الدرج كغزال لتطفئ نار أبي المشتعلة قبل أن تحرق البيت الكبير. تسللت أنا بعد أن سمعت بدء الفيلم المروع ورأيت

ما لم أره ولا أظنني سأراه في حياتي مجدداً. أم تكتم أنفاسها تحتضن الأرض، تكتم أنفاسها وتمنى أن جيرانها لا ينصتون لصوتها العورة الفضيحة، لعل أبناءها لا يرون الأم تحت أقدام الأب في سادية مجحفة، ركلات بالعشرات يكيلها أبي لأمي من شعرها المتناثر حتى أطراف قدميها، دم في كل مكان من ثغرها الحالم، من أنفها الصغير، دموع كالعادة، جروح دامية صغيرة وكبيرة تعطر جسدها، أختاي حولي تبكيان ونحن ننظر من بعيد، لا أحد يجرؤ على الاقتراب من النار، ننتظر أن تنطفئ بعد أن تتعبها أمي "الطفاية"، لعنات كثيرة تمتد إلى أسلاف أسلاف أمي تقدح فيها وفي شرفها، يلهث بعد أن أتعبه طول الركلات وحركة يده، يتحسس جسدها بقوة ليصدر صوت الضرب الذي يروق له، وأخيراً تنطق بعد طول صمت، كلمة أقف عندها طويلاً، أتأملها، أندهش، ولكنني بالتأكيد أبكي كثيراً حين قالت "الله يخليك خليني أروح".

أي عنف هذا، أي حياة حيوانية أعيشها ويعيشها كثيرون في بيوت مغلقة تدعي الستر وتتجرع في الأوقات نفسها عنفاً كهذا لكل أفراد الأسرة، لا معنى لا تبرير لا هدف ولا حبال نجاة وصمت مطبق، أي أجيال ستخرجها مدارسنا صباحاً لأطفال هذه لياليهم؟ أي مجتمع متحضر سينعم يوماً بأشخاص أسوياء بتلك التربية؟

تعلن النار انطفاءها ولم أجرؤ حتى يومي هذا أن أسأل

عن سر اشتعالها، يبتعد الأب النار عن الأم الدامية بعد أن كررت جملتها الوحيدة الأخيرة عدة مرات بصوت يقرب إلى الرجاء المهموس، يبتعد بعيداً وننطلق نحن في جنون لنضمد جراح "طفايتنا" لا ندري فموسم الحرائق لا ينتهي. لا تستغرب ابتسامتها وتجلدها وحمل نفسها دون مساعدة منا فقد اعتادت أن تظهر أمامنا قوية لا لشيء بل لتحافظ على الجو الأسري المألوف. الأب الحنون الظريف والأم العطوف الحازمة بعض الأحيان، لم يمنع ذلك عينيها من إعلان استمرار مهرجان الدموع المتكرر وتضمنا وكأننا نحن من تعرض لجور الذكر الذي يرى ذكورته في ممارسة موهبة العنف الجميلة، ولكنه اليوم احترف وأظهر جدارته للحصول على المركز الأول في الخميس بل على مستوى المنطقة، رجال كثيرون حاولوا منافسته لكنهم لم يستطيعوا أن يجاروه، هو الأقوى هو الأجدر هو الأقسى هو النار العظيمة التي تأكل من يقترب منها أو ما يقرب لها بلا رحمة وبلا رأفة...

- لا مؤاخذة! الله يكون في عونك، وما زلت تعيش معنا؟ ألا تعاني عقداً نفسية؟ أشخاص مثلك في دول أخرى نكرهها يجرمون أفعالاً مشينة كهذه بسنوات في السجن وأنت يذهبون بك إلى مصحاتهم النفسية؟

- النبذ عندنا كلمة كثيرة الفعل، تنبذ كل الأشياء وجميع الأشخاص، عائلتي سوف تتشرد لو أن نظامك الغربي هنا، أبي إلى السجن منبوذاً، وأنا وإخوتي منبوذين إلى مستشفى

المجانين، وأمي سيتزوجها أحد فرسان القبيلة ليمارس معها فنون القتال المدفونة فينا منذ آلاف السنين، أترى وبلا سخرية أن المصلحة هي ما كانت عليه حياتنا وما سوف تستمر عليه. أهم شيء الستر، بلا حماية أسر بلا خرابيط!

- إذن عشت طفولة معذبة؟

- معذبة ليست كلمة مناسبة، ليست سوية أو سيئة أفضل.

- ولماذا؟

- العذاب أن تتألم وحيداً فتكتم آلامك أو تعلنها، ولكن السوء أن تعيش حياة سيئة والكل يعاني هذا السوء.

- ولكن ما الذي كان يثير ضحكك في تذكر هذا الموقف؟

- تضحكني قصيدة حقوق المرأة التي يظهر شعراؤها وشاعراتها على شاشات التلفاز، يبتسمون في بداية اللقاء ويخبروننا وكأنهم يريدون إدهاشنا بحقوق المرأة المستوردة، نريدها أن تقود السيارة! نريدها أن تتعلم! نريدها أن تزاول الرياضة! نريدها أن تختار زوجها بنفسها! نريدها أن تسافر وحيدة! نريدها أن تعمل طبيبة، مهندسة، ممثلة، ورائدة فضاء! فأسأل أنا أيها السادة ألا تريدونها أن تعيش بكرامة؟ وأتخيلهم مندهشين من سؤالي وإجابات بعضهم: ولكن الإسلام حفظ للمرأة حقوقها لتعيش بكرامة وحرّم الوأد والزنا، وأعطاها الميراث، وحرية الاختيار والحياة. أجيب

أنا وقد غضبت غضب المضربين، وإن كنت لا أمدحهم هنا، هل تريدون أن تعيش مكسورة كأمي؟ يعلن التلفاز العربي فجأة انقطاع الإرسال لأسباب فنية.

- ثم ماذا بعد هذه الحادثة؟

قل وجودي في البيت، أصبحت أتبل قلمي خالي كي يسمح لي بالنوم في منزله، بدأت بعد تخرجي من الابتدائية أقضي معظم الوقت في بيت خالي غارقاً معه في صمت، لا أعرف شخصاً يشذب جوانح الأب الكبيرة سواه، يتلعثم لسانه قليلاً، احترام أم خوف لا أدري، ولكن خالي كان حائط الصد لتمريرات أبي الفولاذية وألسنة نيرانه الحارقة.

استقرت حياتنا إلى حد ما بعد انكشاف زواجه المسيار من إحدى المعلمات حين رآه أحد الجيران لحظة خروجه في أوضاع مريبة من منزل في أبها، لم يصدق جارنا حينها خبر، فذهب إلى والدي ليبتزه علّه يشتري لسانه ببعض المال، اقترب منه أبي ولم ينته الموقف إلا في قسم الشرطة بعد أن ضربه أمام زبائن المحل حتى أدماه.

كان زواجه الثاني القشة التي قصمت ظهر أمي فأعلنت بأغلظ الأيمان أن يصبح حضور أبي إلى البيت كضيف. بعد تلك الحادثة أيقنت أن أي امرأة في العالم تكره سيناريو الزوجة الثانية أو العشيقة أو سمها ما شئت في أحضان زوجها. لا يريد أحد الطلاق فالمطلقة وباء يستعاذ منه. استمرت حالة زواج مع وقف التنفيذ، كنا نسمع عن

المطلقات كالأشباح أشياء مخيفة وفاسقة وفيها عيب "ظل رجل ولا ظل حيط". أكملت مراحل المتوسطة وحين حصلت على الثانوية العامة، لم تكن لي خيارات كثيرة، التحقت بجامعة الملك خالد في أبها.

- اها شيء جميل أنت جامعي إذن!

- أتعلم يا مصطفى جامعتي مترامية الأطراف فعلاً، مثل الدول العربية. بنات أب عربي واحد وكل منزو خائف من الآخر، كل كلية منها أخذت جانباً من مدينة أبها وكأن في تجمعها معاً كارثة، مشروع الجامعة الجديدة الموحدة سيتحقق إذا تحققت الوحدة العربية، أؤكد لك ذلك.

كليتي، كلية اللغة العربية، كانت من أقدم كلياتها. التحقت بها رغم تأكيد رؤيتي لمصيري بعد التخرج، سوف أنتظر سنين طوالاً لأحصل على مرسوم التعيين، ثم أنفق سنين أخرى في إحدى القرى النائية، لأعود وقد تجاوزت الثلاثين رجلاً بلا هدف ولا دافع ولا طموح، شيء مهمش مكرور، أكرر على مدى ثلاثين سنة قادمة كلاماً مكرراً كالببغاء وتسوء حالتي يوماً بعد يوم كلما ازدادت أخلاق أمتنا كما ترى، سوف أشكو أجيالاً ستأتي، سيؤلمني حلقي وظهري وعيناي، سأرتب نفسي لألبس النظارة ولن أنسى القلم الأحمر لعلي أعدل اعوجاج أشياء كثيرة حولي، سوف أندم. نصف مليون إنسان وإنسانة يؤكدون لك هذا.

- احم احم، "عاوز تودينا في داهية".

ما علينا، قبل عدة أشهر ذكرني مجلس الأمن والأمم المتحدة بنا نحن أيام كنا أطفالاً، نشهد أشياء ويقال لنا بعدها بكل براءة كيف ترهبون العالم؟ ومن علمكم ذلك التطرف؟ حين انتهت مهلة التسعين يوماً من قبل الأب أميركا لتبرير غزو العراق، مرت أمواج دجلة والفرات تسرع الخطى نحو شط العرب كلما رأت أهوال الحرب في بغداد والعراق كله. خطة الصدمة والترويع، أم قصر العظيمة، البصرة المحاصرة، فدائيو صدام، سعيد الصحاف، العلوج، بوش، قاعدة العديد، البارجة، صدام في شوارع بغداد، مطار بغداد، السقوط الحر، 9 أبريل/نيسان 2003 يوم لا ينسى من أذهان العرب ويسقط تمثال الزعيم والقائد إلى الأبد.

خرج العالم الشعب لا القادة، الذين أحب أن أكرههم، خرجت الملايين إلى شوارع لندن وباريس ونيويورك وواشنطن وشيكاغو وبكين ومصر وموسكو ونيودلهي والكثير الكثير منددين بهذه الحرب وشامتين بسياسة الأب الرعناء، فخرجت أنا وحيداً في حرم الجامعة مستنكراً ضياع بغداد المنصور. صرخت ظهيرة ذلك اليوم ليخرج الأب الظالم من مكتبة الحكمة وشارع الرشيد وبصرة المجاهدين. حملت لوحة تحمل عبارة "بغداد عربية.. والعراق عربي.. وليسقط المستعمر الجديد"، مر كثيرون من طلاب الجامعة الساخرون وآخرون وجدوها مناسبة للتصوير وقلة من تعاطف معي بنظرات من بعيد. لم يطل وقوفي وحيداً حتى انضم إليّ أستاذ النقد ذو

الأصول العراقية وآخر مصري وأستاذ سعودي آخر قدير جاملنا بالوقوف لثوان ثم غادر. لم يمض أكثر من نصف ساعة وأقتاد أنا فقط نحو مبنى قريب من الضاحية، لم يتحدثوا معي كثيراً، سألوني عن بطاقتي الشخصية وأخذوها. قطعة حديدية تحيط معصمي وقطعة قماش سوداء حول عيني، أدخلوني غرفة بلا ألوان أظنها رمادية. بعد أن نزلنا درجات كثيرة نحو الأسفل، كنت أعدها حتى قاربت السبعين درجة من سطح الأرض، أغلقت الأبواب وأزيل الحديد والقماش وابتعد الحراس؛ بعد ساعات قليلة استدعيت من قبل الضابط، أسئلة المؤامرة العريقة: من معك؟ من يدعمك؟ ما رأيك بفلان؟ ورأيك في الشيء الفلاني؟ ثم سألني المحقق الخطير لماذا؟ أجبته بسؤال: هل يعجبك الحال في العراق أيها الضابط الشجاع؟ إجابة ضابط دبلوماسي محترف يجيبك بجواب لا تريده وتريده، حقيقي وعار من الصحة، بدأ بعدها يمدحني بعد أن عرف أبي وعائلتي ويعد بنبوغ مستقبلي واعد. تحذير ونصح، ترغيب وترهيب، أساليب لم أعدها خطيرة وملتوية، لن أطلع أحداً عليها حتى أشعر أن الزهايمر ينسيني تلك الذكريات وأعدك أن أخبرك بها قبل ذلك. أقتاد مرة أخرى بعد أن وقعت دفتراً أمامي. لم أعلم أنني قضيت ما يقارب الأربعة أيام في تلك الغرفة الرمادية المظلمة وحيداً حتى تذوقت طعم الحرية حالاً، 'عرفت أن الله حق' قالها صديق لي حين خروجي. يومي الأول في السجن تذكرت

حياتي الصغيرة التافهة بكل خيالات المستقبل البعيد والحاضر المحبط، شؤم العقاد يقتلني، حكايات الجاحظ تضحكني، أدب ابن المقفع يذهلني، كنت قد أخذت عادة تجسيد روح الكتب التي أقرأها فعلاً في حياتي اليومية، وفي السجن تداخلت كل الشخصيات التي قرأت، ابن حنبل في زاوية هناك مسجوناً وتركي الحمد يهذي مع الشيوعيين والقوميين في السراديب المجاورة، أعتقد أنني تحدثت مع نيلسون مانديلا. حين خروجي شعرت أن شيئاً اكتسبته في السجن، خليط من الحكمة ومن الفلسفة ومن الأدب وقلة الأدب أيضاً. أصبحت أكثر واقعية. لهفة أمي نحو طفلها لن أنساها. نظرة مزيج الخوف والإعجاب والتحقير الغريبة من أبي خالدة ما حييت. تجربتي من التجارب التي لا تمر بسلام بلا تغيير. زفّ لي زملائي قرار حرماني من هذا الفصل الدراسي، محروم وسمعتي السيئة وحبيبتي سلمى، التي تزوجت للتو وخالي حزني الدفين الذي غادرنا منذ ثلاث سنوات بعد أن أورثني كثيراً من شخصي أنا في أنحاء مكتبته الكبيرة وأبي المنطلق بقوة نحو علاقاته الشرعية طبعاً، كل هذا دفعني إما إلى الجنون أو إلى الرحيل. رحلت غير آسفٍ إلى جدة، لعلي أبدأ فصلاً جديداً من حياتي، أويت قبل أسابيع في فندقك المتواضع وها أنا ذا أمامك أشرب الشاي وأسمع محمد عبده وأبو بكر بلفقيه ونشاهد البحر... أو هو يشاهدنا.

"لا تتوقف لجمع الأزهار والاحتفاظ بها،
بل امض لأنها ستظل تزهر على امتداد الطريق".

طاغور

14

تمتد يد أبي فيصل في كسل لتتحسس الجسد المجاور، تموج لين لذيذ، ترتفع يده فوق التل، تضيع في الوادي السحيق المقفر، تذهب للأسفل قليلاً تدفئ نفسها بين السهول، تمكث هناك قليلاً ثم تنطلق نحو الشمال بعد تزلزل الجسد وتغير وجهته بين يديه، يمسك جبلين آخرين متجاورين، رمانتين، كرتين، مخلتين. يصعُب الخمر حلَّ المسائل وتفسير الأمور قليلاً، صداع شديد يتبعه ويؤكد له أنه في الجنة وكابوس يشعره أنه يهوي منذ أن فقد عقله. يقبض على الجبل بكلتا يديه، يتحسسه ويشعر بلذة تغير في ملامح

جسده، ابتسامة نائم واستطالة عنقود ولسان يلعب، ولم يزل العقل الغافي يتخيل، وفجأة يسمع تأوهات ليست صادرة عنه، يفتح عينيه بصعوبة، ينتفض بقوة بعيداً من السرير، سمية! يسألها ما الذي حدث الليلة الماضية؟ فتجيبه بضحكة. يكرر سؤاله، ولكن الضحك مستمر ويقطع الحديث منصور بابتسامة.

- صباح الخير يا بطل!... البس ملابسك، سوف نذهب معاً إلى صديق لي من أعيان جدة... لا تتأخر.

- حسناً ولكن قل لي ماذا حدث الليلة الماضية.

- وهو ينظر إلى سمية: حدث أنك فعلت شيئاً يحسب بكل فخر لك كمربي!

- ماذا؟

- لا عليك، لا تتأخر أنتظرك في الخارج سوف أسقي شجيرات الحديقة، كما تسقي أنت شجيرتك!

غادر أبو فيصل جدة بعد أن قضى أجمل أيامه على حد تعبيره، عناق لا يتوقف، سمية ولطيفة وأخريات لا يتذكر سوى الملامح. سهرات تطفئ شموعها وقت خروج الشمس لعملها لدى السماء. كؤوس تدار، "صدقوني، هذا الويسكي معتق منذ عشرين عاماً لي فقط؛ الله يخلي حبايبنا في الميناء" قالها منصور وقد ذهبت به السكرة. زعرور يطرب وسمية تشدو، ذكريات تروى وحقائق تذهل وأسرار تتناقل وحرام يفعل. الخطيئة يفسرها منصور وأبو فيصل أنها جزء من

حياة الإنسان، لا إنساناً بلا خطايا، الله يقول اخطئوا لأغفر لكم، يخطئون والله يغفر؛ شيء جميل أن يفعل شيئاً وهو على يقين أنه راض عنه. يقتنع منصور بعد أن أخبره حسين أن تكون ليلة الوداع أحلى شعبنة في الحجاز، شعبنة (آخر يوم في شهر شعبان) عادة احتفال الشعبنة في حارات الحجاز لم تزل تقام حتى هذا اليوم. كانت ليلة لا تنسى في ذاكرة مجتمع البغدادية المخملي، خليط من نساء ورجال. نجاة الصغيرة وعبد الحليم في أول السهرة، يرى منصور نفسه كثيراً في عبد الحليم. المدعوون مختارون بعناية، أعضاء سفارات أجنبية يتحدث إليهم منصور بإنجليزيته المكسرة وكأنه يعرفهم منذ زمن وحضارمة 'طحاطيح'، وهم معاونوه في صفقات الاثنين العقارية، الحضارمة أمراء العقارات في جدة بلا منازع، وأصدقاء وصديقات وعائلات متحررة، فعلاً إنها سهرة فرفشة. يقترب الضيوف من الساقي يريدون قهوة، صفراء؟ ولّا حمراء؟ ولّا بيضاء؟ ولّا سوداء؟ ويسكي ولّا نبيذ ولّا بيرة ولّا مخصوص، بكل ثقة يملأ الساقي الكؤوس. عدوى الحفلات، الكل يحدق فيك، يقتربون بلطف من بعضهم البعض، أهم المشاريع التي ستغير وجه جدة تدار هنا، يقفون بعدها مع أم كلثوم كثيراً في آخر السهرة، على الأطلال، أطلال حية، حياة فقط.

الأقدار لعبة الأيام، بعد أقل من أسبوعين من تلك الحادثة يوافق السادس من أكتوبر/تشرين الأول 1973

وصوت العرب القاهري يعلن عن هجوم الجيوش من مصر وسوريا، الثانية بعد الظهر، تتحطم أسطورة خط بارليف وإسرائيل غارقة في احتفالاتها بعيد الغفران، "أسمر عبر زي القمر" القنيطرة تعود وجبل الشيخ يعود والسويس تعود وجدة تفرح وآلاف السعوديين في البغدادية والحارات الأربع القديمة وكباريه شارع قابل ويسطاء الكرنتينا وتجار الخاسكية وسوق العلوي فرحين ومنصور وأبو فيصل في الرياض فرحين. تبادلا عبارات التهنئة حين هاتف الأخير منصور. توجس المتشائمين من أحمد سعيد آخر و67 أخرى لم يمنعهم أن يكونوا فرحين منتشين بصخب. صور ببرواز وأخرى محمولة على الصدور للملك فيصل وعبد الناصر والسادات وحافظ الأسد تملأ أزقة جدة ومحلاتها. نيكسون يتحرك بجدية لخلخلة الموقف العربي الموحد لأول مرة، 17 أكتوبر/تشرين الأول يعلن وزراء أوبك خفض الإنتاج النفطي بنسبة 5% كل شهر بدءاً من الشهر المقبل. كيسنجر يبدأ لعبته، حظر على أميركا وهولندا ودول غيرها؛ النفط العربي يلعب لعبته الذكية الشجاعة، ثم توقف إطلاق النار بعد ذلك بثلاثة أيام.

التفتت دول العالم الكبير إلى هؤلاء العرب الصغار البدو الجهلة. تداخل الاقتصاد بالسياسة، ورب ضارة نافعة، فأسعار البترول تتضاعف مرتين وثلاثاً وأربع مرات. تعرّف العالم إلى شيء ينعت بالعربية "السعودية" وإلى ملك يسمى

فيصل، ووضعت صورته على أغلفة أعرق المجلات لديها. احترمته وقدرته ونانقت بعدها كثيراً لنبجله، ولكنه أذكى وأشرس وأبعد نظراً وأجرأ. إنها حنكة البدوي الفطرية، قالها صارخة صريحة "نحن وما زلنا بدو، وكنا نعيش في الخيام، وغذاؤنا الماء والتمر، ونحن مستعدون للعودة إلى ما كنا عليه، أما أنتم الغربيون فهل تستطيعون أن تعيشوا بلا نفط". نقطة في آخر السطر.

كثيرون حللوا تلك الحقبة المهمة المبهجة من تاريخ العرب والسعودية، ولكن القليل من أكدوا أن الأمة العربية دولاً وشعوباً اقتنعوا بتحطيم تابوت إسرائيل المرعب، انفض كل منهم بعدها إلى سبيله وحياته وتنميته وثورته وجمهوريته وإمارته وملكه ومملكته بعيداً عن الآخر، بعيداً عن الخندق، وغرق السعوديون بعد تلك الحادثة أكثر وأكثر بعيداً، كما أكد أبو فيصل، بعيداً عن هموم السياسة التي اعتقدوا أنهم حصلوا على شهادة التخرج من مدرستها إلى مدرسة الاقتصاد علهم يحصلون على شهاداتهم فيها. بدأ زمن الطفرة، طفرة، طفرة، ومساهمات وأراض وسفر وتذاكر ومطار ولأول مرة لندن تستقبل طلائع العمائم الملونة.

عقد منصور وأبو فيصل عدة اتفاقات مع مكاتب العقارات القليلة في جدة، لم تكن مكاتب عقارية بمفهومها الحالي، بل هي عبارة عن عائلات تجارية، حضارمة في

الغالب، ارتبط بهم منصور وتمكن أبو فيصل بخبرته أن يعقد الصفقات والعقود بمشاركة منصور. يشتري بيوت العائلات القديمة ويوفر لهم فيلات بعيداً عن وسط المدينة في أطراف الشرفية والبغدادية وعنيكش، ويشتري أراضي الصحراء بجوار منطقة كثرت الشائعات عن بناء حديث حولها. انتشرت قبل فترة فكرة تخطيط الأراضي البور والبعيدة إلى أراض صغيرة، المخططات بشكل مساهمات، لم يفوت الاثنان هذه الفكرة حتى استغلاها، أيضاً. يبيع ويؤجر بعد فترة بيوت البلد على الدولة والشركات، لتمركزها وسط البلد وعراقتها ومعرفة الناس بها وقربها منهم، بأضعاف قيمة شرائها. ثم يمتد شمالاً، كانت نظريتهما الاقتصادية سابقة للزمن قليلاً، البيض والسلة. بالرغم من توسع أعمال الشركة في بداية الفصل الثاني من عقد السبعينيات إلا أن ذلك لم يدفع منصوراً إلى الاستقالة وخصوصاً بعد أن حصل على ترقيته الأخيرة وقربته من السلطة أكثر؛ السلطة التي لم يكن همها وقتذاك إلا إسعاد شعبها. مرسوم يلحق مرسوماً آخر بمضاعفة الرواتب حتى التخمة، تمسي وراتبك 400 ريال وفي الصباح يصبح 2000 ريال، حلم، لا حقيقة. تشتري أرضاً مقفرة وبعد أيام تبيعها بضعف سعرها، خيال، لا واقع. تبحث عن من تسلفه مالك لكثرته عندك، مبالغة، لا وصف، بيت يبنى ببلاش تقريباً ويؤجر قبل أعمال التشطيب بمبالغ باهظة ولفترات

طويلة، كذب، لا صدق، سبع سنوات كسبع سنابل نثرت خيرها في الإرجاء.

- يسأله مستفسراً: منصور، هل تتذكر سمية؟ منذ قابلتك في البغدادية قبل سبع سنوات لم أرها؟

- رأيتها منذ فترة في السوق مع رجل أعتقد أنه زوجها ولكنني لم أدقق ملامحه؟

- الله يتوب عليها وعلينا، فعلاً كنا في غفلة، الله يغفر لنا.

- اليوم تحدثت إلى مسؤول كبير في الأمن!

- وعن ماذا تحدثتم؟

- أخبرني عن عدم رضا التيارات الدينية في البلد عن الحالة التي يصفونها بالفساد والفسق، شكاوى تتابع ضد الوزراء والمدراء والأنظمة وكل شيء غريب حتى ولو لم تكن له علاقة بالدين، يقل ولاؤهم يوماً بعد يوم، أمرني أن آخذ احتياطاتي، وسألني عن رأيي بصراحة!

- رد أبو فيصل مقاطعاً: إذا أردت رأيي فهم على حق، ياخي البلد صار زرية للرذيلة، المرأة تخرج كل صباح بحجة العلم، وتتبرج وتخرج من بيتها كلما أرادت ذلك؛ ولم يكتفوا بذلك حتى زاد التلفزيون الطين بلة، تستحي وأنت تشاهد التلفزيون مع عائلتك، لم يبقَ أحد لم يرَ مفاتن نادية الجندي وغنج سميرة أحمد! بناتنا يشتغلن في التلفزيون

والإذاعة واسمع سيصبحن في المستشفى، مسخرة، البنوك الربوية تفتح فروعاً لها في كل زاوية بعد أن حاربناها أول الأمر، الصور لا تنس. الصور على فلوسنا وبطاقاتنا وكتبنا، الصور والتصوير حرام ألا تعلم هذا؟ الكفار الحمر في كل مكان في المستشفى والمدارس وأرامكو والجيش والشركات، يريدون أن يخرجوا نساءنا ولكننا سنخرجهم كما أمر رسولنا، تتوقع أحد يسكت؟

- يحدجه بنظرة ذات مغزى: إنه الثأر يا أبا فيصل؟

- بارتباك: عن أي شيء تتحدث، أجننت؟

- قصرت ثوبك، أطلت لحيتك، تمسك السواك، تتمتم وتحوقل، تغيرت، يا صديقي العزيز لا احتمالات كثيرة لتغيرك، أنت تستخدم التغيير إما لدفع تجارتك المتضخمة، لا أستبعد هذا، أصدقك القول إنني أتمنى هذا فهو جيد لي أيضاً، أو أنك تذكرت الثأر... نعم لا تنظر بدهشة هكذا، ثأر نصف قرن مضى، حين مات جدك واندثر الإخوان بعد معركة السبلة، التاريخ يعيد نفسه بقليل من التغيير، جدك طالب بمنع السيارات والتلغراف والضرائب وكفر كل من يتعامل مع الإنجليز حينها، وها أنت وغيرك يعيد نفس المطالب...

- كلامك مردود عليك، كلام حق يراد به باطل، أنا لا أبرر لأحد وجدي مات شهيداً غصباً عن من لا يرضى. تأكد أن الحل لجميع مشاكلنا في الإسلام، الحل الرباني ألا تؤمن به؟

- أؤمن بالرب ولكنني لا أؤمن بمن يضع نفسه وكيلاً له على الأرض.

- أستغفر الله، أستغفر الله، ولكن تيقن أن غداً لناظره قريب، وبشر الصابرين، تبادلنا الأدوار وأصبحت أنا المطوّع كما تنبأت لك قبل سنوات.

- هناك شيء تخبئه عني؟ أنا صديقك وإن اختلفنا، صارحني.

- عن إذنك، تأخرت عن صلاة الضحى... ينظر من بعيد ويقول "الله يهديك بس".

"نحن نحتقر أشياء كثيرة كي لا نحتقر أنفسنا".

فوفنارغ

15

أربع سنوات وبسام لا يزال يبحث عن نفسه، عاشر كثيرين تعرف إليهم من خلال الإنترنت أو "المولات" والكورنيش والحفلات الخاصة، وحتى المدرسة والجامعة أخيراً. اكتسب خلال هذه الفترة خبرة ومعرفة جنس فريد؛ فئة من الناس أطلق عليهم مسمى الجنس الخامس، ليميزهم عن ما اعتدنا سماعه بوجود الجنس الثالث بنعومة أجسادهم وألوان الأنثى التي تلطخ وجوهم الرجولية وإن كانت أعدادهم تتكاثر، ولا ينتمون إلى الجنس الرابع النقيض للجنس الثالث، بنات مسترجلات، لا بل هم جنس خامس تتعامل

معهم في السوق وفي العمل، أقرباء لك وأصدقاء جيدون، ولكنهم يخفون تحت الأقنعة شهوتهم الجنسية المثلية. يمارس معهم بسام ويستغرب من شيء واحد، الأسوار التي أحاطوا أنفسهم بها، فلسفة الستر التي يقدسونها. لم يكن يلوم أحداً منهم، فالملام هنا واضح ليس هم بالطبع، حضور بسام الساحر جعله يرى ما تشيب له رؤوس كثيرة. سيقال مبالغة وفسوق وفضائحية، ولكنه واقع خلف الستار، من يجرؤ؟ كان بسام يقتنص هذه الفئة من حركات اليد، حركات اليد مهمة، تكون في الغالب رقيقة، تطبطب بحنان على أكتاف المحدثين فتشعرهم بذلك، تمسك أيادي الآخرين كثيراً أثناء المصافحة؛ أحياناً تحتك أصابع معينة بباطن يدك، وقت أطول قليلاً من المعتاد حين يصافحون، انتشار اليد أثناء الحديث في الهواء فريدة. يتخيلون أنهم مقنعون كلما تفاعلت حركات اليد لتشرح وجهات نظرهم وآرائهم وإشاراتهم، وحال الضحك يغطون الأفواه بأيديهم، مبتسمون بطبعهم. مؤشرات كثيرة من حركات الشخص توحي بمثلية الشخص الطبيعية أو رغبته المدفونة لممارسة شاذة.

أربع سنوات وبسام يوسع دائرة العلاقات، بعد أن غادرت أخته سارة إلى كاليفورنيا لتكمل دراستها. ولكي تضمن عدم معارضة والديها على الذهاب أغرتهما أنها سوف تذهب إلى كاليفورنيا حيث درسا وأحبا وتزوجا، وتسكن عند أقارب أمها هناك. كانت تقول إن أساتذة الجامعة هنا

متخلفون، يدرسون وكأنهم في مدرسة ابتدائية، نكتة البحث العلمي في الجامعة تضحكها كثيراً. كان بسام لا يغار على أخته كان يصدقها ويثق في كلامها. أحبت شاباً وأخبرته ذات يوم بذلك، كان أول حب لها وهي في الثانوية، لم يدم طويلاً، لم تقل الأسباب صراحة، ولكن منظرها وهي تهذي بذكريات حبها أثارته. عائلة أرستقراطية تؤمن بالصداقات قبل الزواج وربما بعده. أبوه لا يزال غارقاً كالعادة في مشاريعه التي اتخذت مناحي استثمارية جديدة لتواكب طفرة الأسهم منذ نشوئها، مؤتمرات كالعادة ومشاريع اجتماعية لتزيين الصورة. يردد كثيراً "ليس من الصعب الوصول إلى القمة ولكن من الصعب المحافظة عليها"، إنه هناك مشغول بالقمة، الأم نسرين لا تكاد تغادر مشاغلها المنتشرة في أحياء جدة، ماركة فخمة، سيدة الأعمال الأولى، تلقي محاضراتها في الغرفة التجارية وبيوت الأعمال والمنتديات، مشهورة، جبروت امرأة. كم كانت فرحتها حين رأت صورتها بحجابها الأحمر القاني في مجلة نسائية مشهورة "نسرين - سيدة الأعمال الأولى في جدة" وجوري في عالمها، أفلام وأغانٍ وجوال ورسائل وحب وهجر والخطير أنها أصبحت مغامرة؛ فتاة مدللة مغامرة، تحب التجارب الجديدة أياً كانت العواقب، مرحلة تتعدى الطيش المراهق بمراحل، جامعة تذهب إليها أيضاً ولكن في الحقيقة تحتضنها مجمعات الصباح مع صديقاتها وأصدقائها، صديق وصديقة، "كابلز"،

أحلام تتوهم حدوثها، تحب السباحة كثيراً، السباحة أنواع، تحب سباحة الفراشة، أو الظهر، أو الاثنين معاً، لا يهم ولكنها تحب أن تسبح، بعيداً عن شاطئ القصر.

لا أنكر أن أسباب التحرش الجنسي بالأطفال ذات تأثير مهم جداً، مجتمعنا يدعو إلى هذا بصمته المطبق عن الأب المتوحش الذي يجبر ابنته على السكوت إذا تحسس جسدها، أو عن الأخ مع أخته والأقرباء مع الأولاد والسائقين والخدم الذين نعتقد أنهم بهائم في بيوتنا؛ لا نتوقع أنهم أناس مثلنا، يشعرون وينجذبون ويحبون، والأطفال والنساء هم الضحايا الحقيقيون، العمة والخالة والفتاة. دعوة للشك، لا بالطبع! ولكنها جلسة للمصارحة. أيضاً للمثلية أصول نفسية لن أغفلها فقد طرح موضوع المثلية منذ زمن للتشريح علمياً وعملياً بالرغم من حساسيته العالمية، ولكن العلم وعلم النفس بالذات يقترب من حقيقة مؤلمة للبعض باعتباره فطرة أكثر من كونه شذوذاً، قرأت في مكان ما أن نسبة الشذوذ أو تلك الفطرة بعد دراسة متفحصة تقارب 11% "هم في السعودية يتجاوزون المليونين والنصف". في كل مجتمع بغض النظر عن ديانة هذا المجتمع أو ثقافته أو تاريخه، ولكنها تزداد بالطبع كلما كان المجتمع أكثر شذوذاً. شذوذ بالانفتاح الفاحش أو الانغلاق المقيت.

كان بسام في أغلب لقاءاته الجنسية من نوع الموجب أو

"التوب" أي الفاعل بعين عربية، احترف العمل الجنسي حتى عدّ نفسه جيغولومان جدة؛ صرامة ودقة، ومقابلات لا تخطئ مواعيدها، وأشخاص كثيرون على القائمة. كان ميدانه الرئيس الإنترنت ولكنه لم يطل هناك، كانت له مواعيد متتابعة ليلة الخميس. ، تبدأ القصة حين يتفق الأصدقاء على إقامة حفلة في إحدى استراحات جدة أو شاليهاتها في الشمال، عيد ميلاد، حفلة تخرج، أعياد، أيام وطنية، خسوف القمر، زواج أحدهم بآخر، نجاة من حادث سيارة، أي مناسبة تدعو للاحتفال ولو كانت من صنع الخيال. تنتشر أخبار الحفلة بين أشخاص مختلفين، هم بسام وغيره من أمثاله وهم أيضاً من يريدون الفحولة الناعمة، الفحولة اللطيفة التي لا تجرح كينونة الأنثى الداخلية لديهم، الفحولة التي يستمتعون بنارها ودفئها، يبنون قصص حب حولها؛ المال مهم هنا والدعوات الخاصة تندر في مناسبات كهذه ولكن الجنس الخامس يدفع الكثير مقابلها إذا لم يرد أن يدخلها بملامح الجنس الثالث مجاناً.

الجو صاخب بأغنية غربية صارخة، لا تفهم ولكنها تطرب وتدفعك لتحريك كتفيك وأقدامك وأردافك بلا معنى. الظلام يلف المكان والألوان الحمراء تثيرك، والكل هنا يبتسم وآخر هناك ينظر إليك بالتحديد في خبث ويبتسم أيضاً. ساحة في الوسط "البست"، شكشكة، تراقص الجموع لتعلن فتنتها، لا نساء هنا، شبان وأشباه رجال، رجال بنظارات شمسية، وآخرون يحجبون وجوههم خلف العمائم، والمشهد

خارج المكان لا ينبر أي شيء على الإطلاق، ولكنه في الداخل مختلف "غير". تتعالى الآهات والصرخات والتأوهات ومناداة الأسماء كلما أطرب الجموع الـ "دي جي"، أحياناً يكون أشخاص معينون محجوزون باتفاقات مسبقة لأشخاص آخرين. الخبير هنا يعرف كثيراً من قوانين اللعبة، القانون العام "كل شيء بالرضا ويصمت"، ولكن لا بأس أن تظهر قوانين العم والواد أيضاً برضا الطرفين، يقترب بسام من أحد الوجوه الجديدة هنا، وقد كثرت ابتساماته كلما مر حوله أو لمحه أثناء الرقص.

– كيف؟ أراك مستمتعاً بالسهرة أول مرة تأتي إلى هنا؟

– نعم، ولأول مرة أرى غزالاً يرقص أمامي.

– اعتاد بسام أسلوب الغزل المبطن: وماذا تريد من هذا الغزال؟

– أريد أن أصطاده وأذهب به إلى مكان بعيد من هنا.

– ثم ماذا تفعل به وهو ميت؟

– أريد أن أجعل من فروه الناعم غطاء لي.

– ولكن فروته صغيرة ولا تكفي جسدك الكبير الطويل المثير هذا.

– سوف أدفع الكثير للصياد لكي يصطادك، وسوف أساعده لتكبر فروته.

– وفر نقود الصياد لك.

– إذن؟ كيف السبيل لوصالك دلني؟

- أين تسكن؟
- شارع حراء.
- لحالك؟
- نعم وحياتك.
- فاضي وجاهز؟
- تتسلل يد تحت بطن بسام: ولو؟ لو ما أفضي لك يا عمي أفضى لمن؟ أروح أنا!
- يعجبني المؤدب الحبوب.
- تلميذك يا عمي.
- بيتنا ألو بعد السهرة.
- في انتظارك قلبي.

يبهر بسام الحضور برقصه المثير، يتمايل في انسيابية كأفعى، فأين الضحايا؟ سنوات جعلت منه شخصاً آخر، علاقات تبنى على كمية الشهوة التي يستطيع أن يحصدها من الآخرين أو التي يستطيع هو أن يقدمها لهم، لا أشياء أخرى، مصلحة تنفي روح الحب، إخلاص مفبرك لحبيب وخيانة معاً، ممنوع لا يحكى عنه، سرية لا يتحدث عنها أحد. كثيرون ينجرفون في حفلات حمراء كهذه، وبسام لا يزال يتقلب كل مساء حول أجساد ناعمة وخشنة وفقيرة وفاحشة الغناء ومهمة ومهمشة وكبيرة ومتناهية الصغر، المهم أنه يقضي ليلته في أحضان وقبلات وأشياء غيرها، وأن يخبئ هذا اللعين في أحد الكهوف، شذوذ دمعة كبيرة حولته حين

حدثه أباه تلك الليلة إلى واقع ثم إلى عادة ثم إلى شيء لا يمكن أن يتخلص منه، الممارسة مع أشخاص من جنسه.

الساعة الخامسة صباحاً، يدق بسام باب الشقة، لحظات وعين تنظر من العين السحرية ويفتح الباب، يطل نواف "نونو" وقد اختلفت ملامحه، لم يكن هو الذي في الحفلة، أين الحشمة؟ كان واثقاً في الحفلة، رجولياً حتى الثمالة، لا يختلف آلاف على رجولته، ثوبه وشماغه ووقفته وبعض نظراته وطريقة كلامه إلى حد ما رجل، رجل كامل. حسناً مرحبا بالجنس الخامس، ابتسامة رفع الحاجبين المثيرة، رحب هو ببسام بقبلة خاطفة على فمه الصغير، يشعر بسام بنكهة العطر النسائي، يتقدم نونو وهو ممسك بيده نحو غرفة الضيافة، يجلسه، يسأله عن مشروبه، يعرض عليه قائمته الصغيرة بلطف، يطلب قدحاً من الشيفاز، الخمر ممنوع وإن وجد فهو غال، ولكن وجوده دليل على الاحترافية. ينظر بشدة إلى رجرجة أرداف نونو خلف الروب الوردي الشفاف، يتوقع أنه لم يمض وقت طويل منذ أن حلق شعر جسده، نونو القطة الجميلة لم تتعد الثالثة والعشرين من عمرها، شاربه الكثيف مضحك، ولكنه لا يريد أن يفقد رمز الرجل في أعين الناس، وفي عين عائلته المحافظة على حد قوله، يفكر، يقول في نفسه "قدح واحد فقط، لا تكثر يا بسام، هذه القطة لن أهدر كثيراً معها". تعود الفتاة مؤقتاً والرجل دوماً، تعود وهي فرحة، تجلس بجوار بسام وتقدم الكأس

بين يديه، يؤنبها أنها لم تحضر مشروباً لتكسر حدة الخمر، يقول لها إنه لا يحب أن يشرب الخمر "سكاً"، تذهب مرة أخرى مسرعة نحو المطبخ، روح سادية تنتشر في الشقة، أسد وقطة، الحياة غابة، تعود بالمشروب مرة أخرى، تجلس بجانبه، يشرب قليلاً، موسيقى تنبعث من جهاز الاستريو، تقبله، يحتضنها، يسقط الروب، يمرر يده على الجسد العاري، لا تنسى صدره الناعم الذي نالت إنه "قطعة من مرمر"، تنزل بقبلاتها نحو الأسفل، تقبض العنقود، تعبث، تلعق، يشعر بالحرارة، تنظر إليه ضاحكة، جسده ملكها، وهي كذلك، هو منشغل مع كأسه في الأعلى، تصعد مرة أخرى بعد أن طال غيابها، تقبله مرة أخرى، تحيط عنقه، يقترب لسانها من أذنه اليمنى ثم تكمل دائرتها بقبلات صغيرة من أسفل الذقن إلى الأخرى، تهمس في أذنه أن يذهب معها إلى غرفة النوم، يضربها في حنان لتنطلق أمامه وقد أعياها الشبق، تمني نفسها بفارس يركب صهوتها أو صهوته، اختلف العلماء.

"السعداء يتشابهون، أما التعساء.. فكل واحد منهم تعيس بطريقته الخاصة".

تولستوي

16

اعتادت الأسرة الصغيرة غياب حسن، الأيام هنا تجبر أهلها على النسيان. تقوم شاهرة صباح كل يوم بإحضار الماء من إحدى الآبار التي بدأت تنضب تباعاً، تبتعد الآبار كلما ازداد سكان الخميس، وتجتهد هي في إحضار الماء فيما بعد، تحمل القرب المليئة بالماء لتوزعه على بيوت الخميس. تنفق المال الضئيل على غرفتها المستأجرة وطفليها. غرس فيها حسن حب العلم، اهتمت بإرسال ولديها إلى المدرسة ولكن ضيق الحال اضطرها إلى إرسالهم في سن متأخرة. يتميز الابن الأكبر بالذكاء وقوة الشخصية بل صلابتها، تحمّل

هم الأسرة منذ سنوات الطفولة الأولى، شرس إلى أبعد حد، علمته صلابة الأيام القسوة، وأورثه الجوع قدسية المال، أما الأصغر فكان ابن أمه، كان لطيف المعشر، باسم المحيا، فيه بقايا من فطرة الأجيال السابقة، يحبه القريب والبعيد، الصغير والكبير.

جار لهم يسمى مستور، مستور الفيضي، رجل يقارب الستين، كان لديه ثلاث فتيات وشابان، أحدهم احترف الغناء في الأعراس والاحتفالات الرسمية وغير الرسمية جداً لجمال صوته وصورته فانتشرت سمعته في أرجاء الخميس وأبها والقرى المجاورة: والآخر مجند في الجيش، وابنتاه الكبيرتان متزوجتان منذ فترة. ابنته الأخيرة أنجبها وهو كبير بعض الشيء، كانت أجملهن، سمراء بعض الشيء ولكن الوسامة الطاغية تلف وجهها الصغير، شعرها المنسدل على العنق والوجنتين لوحة جميلة. كانت البراءة عنوان الحياة تلك الفترة وأوسمة الفضيلة معلقة في كل البيوت تقريباً. اقتصادياً لم يكن حال العائلتين يختلف عن بعض، في بحر الحياة يبحرون، ولكن اجتماعياً البون شاسع لا يتدارك أبداً، فئة الفيوض فئة منبوذة اجتماعياً في الجنوب أو في أرجاء السعودية، هم كالغجر أو عديمي الأصول، التحقوا بالقبائل منذ سنوات هكذا وبلا مقدمات، لهم حقوق العيش ولكن هم في درجة ثانية أو حتى ثالثة في سلم المجتمع مع الخضيرية أو البلاحطة أو الصناع وهم الذي امتهنوا الصناعة بشكلها

البدائي من معادن وأسلحة خفيفة. القبيلي هنا للحرب والترحال، لا هيبة لهم ولا قيمة مهما بلغت قوة شخصية أحدهم أو مكانته وحتى ماله، والزواج منهم حرام عرفاً وتقليداً، خط أحمر، نقطة لا تفاوض فيها ولا رجعة. هم أشخاص مرحون أحياناً، ظرفاء، يمتهنون الأعمال الدونية، وينظر إليهم بدونية. تعرفهم بسمار البشرة وإن كانت عائلات منهم تمتاز ببشرتها الحنطية المعتادة أو المائلة للبياض، لكن ملامح الوجه تدل عليهم فهم معروفون بهذا الشيء، قد تطلق لفظة "فيضي" على أي شخص إن صدرت منه تصرفات غير لائقة كشتيمة، لهجة معينة وتصرفات فوضوية هي صفات أخرى لهم، هم في الغالب عائلات فقيرة ولكن لا يمنع ذلك من أن تظهر هنا وهناك مظاهر غنى.

طفلان، يلهوان ويكبران معاً وبنت الجار، أو ولد الجار، الحب الأزلي، قريب من العين قريب من القلب. بعد أن قطع الابن الأكبر المدرسة مجبراً ليلحق طوفان الطفرة في بدايتها، رحل مع سائقي الشاحنات لينقلوا ارتالاً من الأسمنت من جيزان علهم يغيرون وجه المدينة العابس الطيني هذا. بقي الصغير ليكمل دراسته في المدرسة الابتدائية الاولى في الخميس، كان يشعر بشيء يخالج نفسه كلما رأى فاطمة، شيء جميل لا يفهمه ولكنه جميل، يجعل بؤس الحياة نعيماً، شيء ظريف، ممتع، مثير، شهي، لا يعرف له معنى، تجاهله في بداية الأمر، عاملها بخشونة حين كانت تزورهم في

بيتهم، ولكنها هي أيضاً كانت تملك نفس المشاعر. شيء يدعى الحب أو العشق، لا يعرف هنا كثيراً، لعنة الفراعنة، حب كيلوباترا، ربما فالعرق دساس، قد يكون كذلك. الحب يورث من الأب، ولكنه يوماً بعد يوم يشتهي جسدها في أحلامه، أحلام اليقظة والنوم، وهي كذلك، ترقبه حين يعود من المدرسة ظهراً، تسلم عليه في كبرياء، يرد السلام، ينظر إليها، يتخيلها، يردد أشعاراً في صدره، لا يقترب منها خجلاً، هي أخته أو مثل أخته، أخته المتخيلة؛ يسأل أمه دوماً أن ترسله بقرب الماء إلى بيت فاطمة، مرات ومرات هي دوماً تستقبله على باب دارهم، تتظاهر بتمال أنها لا تفرح بقدومه، هو كذلك يرد الصاع صاعين، يرمي بالقربة بعد أن يتشبع بالنظر فيها، يذهب، يلتفت ويراها خلفه عند الباب تتأمله، تعريه، تغتصبه، وهو راحل بعيداً نحو دارهم الصغير.

الحب نجمة مضيئة، انظر فوقك أتراها؟ هي تلك أو تلك، اختر أي واحدة تشتهيها، سوف تضني حياتك وأنت ترقبها، قد تختفي في يوم خلف السحاب، أو قد يتضاءل بصرك فلا تراها، حاول أن تناشدها، أن تحدثها، أن تستنطقها فهي بلا شك تتكلم، أن تتمنى اقترابها منك إذا رأيت شهاباً منطلقاً حولها، ولكن لا تنسَ أن تنظر إليها، أن تحدق فيها برغبة، العين الراغبة يعشقها المحبوب، أو تلك النجوم الساطعة، لا فرق.

كبرا وكبر الحب يوماً بعد يوم، تخرج صالح من الابتدائية، فرحت الأم، بكت من الفرح، قالت "لو أن أباك حسن هنا لكان فرحاً، مفاخراً بك يا ولدي"، ذهب هذه المرة بلا قرب ماء إلى منزل مستور، تستقبله فاطمة بابتسامة تعقبها امتعاضه، علامة للثقل. يخبرها بنجاحه، ومستقبله الذي تحدثا عنه كثيراً، تفرح، تحتضنه من شدة الفرح، لا تبالي بعين ريبة تفضحها، تقبله، تطيل في القبلة، ينظران إلى بعضهما البعض، تنزع يديه الحاضنتين بقوة وتختبئ خلف الباب وهي تردد "ألف ألف مبروك"، يقف طويلاً، وحيداً، يفكر ماذا حدث؟ قبلة، قبلة أولى، بكى حين قرأ ذات مرة نزار قباني بعد سنوات:

"عامان.. مرا عليها يا مقبلتي
وعطرها لم يزل يجري على شفتي
كأنها الآن.. لم تذهب حلاوتها
ولا يزال شذاها ملء صومعتي
يا طيب قبلتك الأولى.. يرف بها
شذا جبالي.. وغاباتي.. وأوديتي
ويا نبيذية الثغر الصبي.. إذا
ذكرته غرقت بالماء حنجرتي".

ذهب إلى الأم من ساعته، وأخبرها، برغبته في خطبة فاطمة، أول الدواء الكي، ودواء حبه الزواج، نظرت إليه وهي تعلم أنه غارق في حب فاطمة، لا حلول للحب غير

الشرعي، المحرم، حين يولد هذا الحب لا أباً له، يتيم مثل الفشل، قالت له بصراحة:

- أنت تعرف إنها بنت فيوض!

- ولكن الزمن تغير يا أمي، لا أحد يهتم بهذه الأشياء، وهي جميلة وتعجبني وإن أردتني أن أتزوج فلن أتزوج غيرها.

- هل جننت؟ اختر أي فتاة من الخميس غيرها وأنا أخطبها لك، هل تريد أن يتحدث الناس عنا، نحن يا ولدي مستورين منذ أتيت بكم إلى هنا، أشقيت نفسي وأهدرت شبابي لكم ومعكم، اعلم أن الحب ملء قلبك فأنا امرأة قد تجرعت الحب قبلك، وأعرفه جيداً، ولكنني أحذرك من فاطمة وأهلها، هم جيران فقط ولا شيء غير هذا، أتفهمني؟ جيران فقط! لن نضيع نسب العائلة معهم.

- حسناً سوف أذهب لأخطبها بنفسي من أبيها و"يصير إلّي يصير".

- ستقوم قيامتك إذن، سوف أدعو أقاربنا ليوقفوك عند حدك، سأرسل لأخيك ليأتي ويرى جنونك، جنون المتعلم، لا تخيب ظني فيك ورجع عقلك يا بني.

- لا تحاولي أن تهدمي فرحتي بحياتي، لولا فاطمة لما اجتهدت وحصلت على شهادتي الابتدائية، لا أعرف إذا كان تعلقي بها حباً ولكنني أريد أن أتزوجها، أن أعيش معها، وأن نموت معاً.

- شكلك "منت بصاحي، أقولك هذه بنت فيوض"،

تريد أن تفضحنا، لن تتزوجها ما حييت، واختر أنا أو بنت الفيوض "معوة" هذه، ألا تنظر إليها إنها قبيحة وصغيرة الجسم، طفلة ولا تليق بك، أنت ولد أبو ذيب أم إنك نسيت، "نفداك" يا ولدي انسى موضوعها.

لم ينم ليلته تلك، صراع بين القلب والعقل، هو لا يستطيع أن يطفئ حرقة حبه لفاطمة، ولا يستطيع أن يحطم قيود القبيلة لتتحرر يداه، ولكنه يعزم في ليلته تلك على الإقدام، كان يقول "إذا لم يفدني علمي في اتخاذ قراراتي فما فائدته إذن" ، وهو المتعلم في مجتمع الجهلاء هذا، العلم شقاء ونعمة، سيدفع ضريبة النعمة غالياً، حين عزم أمره واستقر رأيه أن يكون ابن المدرسة لا ابن القبيلة.

في مساء اليوم التالي، ذهب صالح إلى مستور، أخبره أنه يريد ابنته الصغيرة زوجة له. كانت تسمع حديثهما خلف باب الفاصل، تكاد تموت من فرحتها ولكنها كعادتها تظهر أنها ليست راضية. نظر إليه مستور باستغراب، صمت، ثم رحب به مرة أخرى وأثنى عليه، وعده خيراً، لم يقل عن بديهية الاختلاف الذي يفرق بين العائلتين، كان مستور خائفاً من جرأة موقف صالح وفرح لاكتسابه شرف نسب عائلة أصيلة مثل عائلة صالح، لم تكن أصول الأب المصرية لتمنع أن تكسب العائلة أصلاً.

جن جنون معيض حال سماعه بالخبر من أحد أقاربه وهو في جيزان فعاد في أول شاحنة أقلته إلى الخميس،

وأخذ أفراد القبيلة يثنون على صالح أسفه كلماتهم وأقذرها عله يعود عن فكرته، يتوعده صغيرهم قبل كبيرهم، سوف يقتله أحدهم بدم بارد ليحفظ دماء الآخرين، ولكنهم يخافون "خنيفير" قصاص الأعناق والأيادي وأجزاء الجسد، الذي جلبته الحكومة ليقص أعناق المخالفين في ساحة السوق.

وصل معيض الخميس صباح اليوم التالي، ذهب إلى بيت مستور، ضربه بلا مقدمات حتى بكى تحت قدميه، هدده أنه سوف يحرق قلبه على ابنته إن هو فكر مجرد التفكير بتزويج ابنته لأخيه، لم يحترم أبداً كبر سن مستور، ركل الباب خلفه بقوة وذهب إلى أمه، سألها عن صالح، أخبرته أنه ذهب ليحضر الماء.

- أحبها!

- أنت لا تستحي على وجهك تقول هذا الكلام أمامي.

- وماذا تريدني أن أقول؟

- على العموم أنت أهبل وحمار و"على نياتك" كعادتك، لا شيء جديداً، سوف تعلمك الأيام، المدرسة التي تفرح بها لن تعلمك مثل الأيام، اسألني أنا أخوك، و"هذا وجهي" إذا زوجك مستور الفيضي ابنته.

- لماذا؟ ماذا فعلت؟

- لا شيء ولكني أعرفه جيداً، الشايب المكار.

"لا شيء في اليرقة يدل أنها ستتحول إلى فراشة".

فولر

17

ذات صباح بدأ خالد بتنفيذ وعده، سوف يعتمد على نفسه بشكل كامل، لن يطلب مالاً من والديه، كان لعبد الحق وقفة معه، عبد الحق السائق الباكستاني الذي أوصله إلى مقر الصحيفة، لا يزال يحتفظ برقمه. اتصل به ليخبره أن المؤسسة التي يعمل فيها وافقت أن يعمل فيها خالد كسائق تاكسي. سيعمل مثلما قال له عبد الحق، قلة من مؤسسات النقل تتأهب لتطبيق سعودة القطاع قريباً، قرارات مطاطية كثيرة، والذكاء في أجل لحظاته هنا، أخبره أن مقرها في كيلو 10، قابل مدير المؤسسة حينها.

- شوف يا أبو الشباب، هنا ليس لديّ لعب، المطلوب منك أن تحضر للمحاسب نهاية النوبة 120 ريالاً، لا تسألني كيف، سوف أتعاون معك فقط إذا رأيت حرصك وجديتك، على الرغم إنني لا أتوقعها بتاتاً... اذهب مع عبد الحق ليكمل لك إجراءات التسجيل واستلام السيارة.

- لكن ليس لديّ رخصة عمومية، بالإضافة إلى أنني أجهل الكثير من أحياء جدة.

- المقابلة انتهت، أنت تعقد الأمور عليّ وعلى نفسك أيضاً حتى قبل أن تبدأ عملك.

- لو سمحت، نحن سعوديون المفروض أن نتساعد معاً...

- مقاطعاً: حبيبي، "الكلام إلّي ما يودي ولا يجيب هذا" ليس هنا، روح كلمهم لماذا يجبرونا بتوظيفكم، أجنبي مثلك يعمل في مؤسستي ويقدم يوميته نهاية النوبة وكل يوم بلا إجازات وبلا مشاكل وبلا وجع رأس.

قبل بالأمر بسبب حرصه على تأمين مصدر رزقه، وإرادته أن يثبت كثيراً مما قرأه من سير عظماء ابتدأت حياتهم مثله. مضى يومه الأول ولم يتعد دخله الخمسين ريالاً، عاد إلى المؤسسة في نهاية اليوم، دفع ربحه وأضاف سبعين ريالاً مما تبقى معه من نقود وعاد إلى الفندق.

كان مصطفى للتو قد أنهى فترة عمله الممتدة اثنتي عشرة

ساعة، ذهبا معاً إلى المقهى، كانت جلسة المقهى بالنسبة إليهما ترويحاً جميلاً، تعرفا هناك إلى العديد من بسطاء الحارة، وكانت لأحاديثهم محاور كثيرة، كان الجميع ينبهرون من هذا الشاب الجنوبي، سألوا لماذا هو هنا؟ يمضي أغلب لياليه في المقهى ليتحاور معهم في أخبار السياسة، وتواريخ الشعوب، وآداب الأمم، وينصت لحكمهم، وحكاياتهم، يضحك من عباراتهم، يحزن حين يحزن أحدهم أو تلم به مصيبة، أخ صغير أو أحد أبنائهم، فالجميع هناك تخطوا حاجز الأربعين، كان خالد أصغرهم، ولهذا كان أيضاً مثار استغراب لخليط المقهى هذا.

استبدل خالد ثوبه بقميص أبيض وربطة عنق سوداء وبنطلون أسود، اشترى الطقمين يوم جمعة من سوق قابل، يقتصد في كل شيء. لاحظ بعد هذا أن زبائنه في ازدياد، أيضاً زود التاكسي بأشرطة حسب الأذواق، من قمة جيل أم كلثوم حتى مطرب نصف الساعة الماضية، كثيراً ما يطلب منه الشباب والفتيات أيضاً أغاني بعد أن يسمعهم أغاني قريبة إلى كل واحد منهم، ملكة كانت تنمو في داخله، ولم يتردد في بيع مجموعة من الأشرطة لهؤلاء الزبائن بمبالغ مرضية. كان يقول "الحضرمي يبيع عشاه" وكان يفعل، ولم يفته أن يضع أشرطة لكبار الشيوخ ذوي الشعبية، أمثال عائض القرني وسلمان العودة وطارق السويدان وعمرو خالد. يتذاكى بوضع

شريط لشيوخ عرفوا بمحاضراتهم النارية إذا شعر أن زبونه تبرز عليه شخصية المتشدد بقوة، لأنه يشعر بحساسية الكلام الذي سيسمعه الزبون حينها وتأثير هذا على نظرتهم له والمبلغ الذي سوف يحصله منهم، ونجحت سياسته تلك. أيضاً عود نفسه على الصمت، الصمت المطبق وأن لا يكون هو من يبدأ الحوار مطلقاً، وأن تكون إجاباته على قدر سؤال الزبون واستفساراته، وأن تكون مناسبة لشخص الزبون، لا أن تغضبه، الزبون دائماً على حق، والحاجة تغلب المبادئ والآراء، لا يحدق كثيراً، ويرى أشياء يكبت مشاعره من ردة فعلها، فهو الأعمى، الأصم، الأبكم، وكانت النتائج فعلاً مبهرة إلى حد ما.

كان الأمر مسلياً وجيداً وذو مردود مالي جيد، ارتفع دخله باطراد حتى بلغ المائتين والخمسين ريالاً يومياً بالإضافة إلى يوم الجمعة الذي كان يحسب الدخل صافياً له، ما زالت أيام الخيالات متغلغلة في ذهن خالد، ربقية من قيم المدينة الفاضلة لا يزال طينها يعشش في عقله، ولكنها لم تصمد أمام حياة جدة اليوم وحتى أتى ذلك اليوم.

- إلى أين؟

- قويزة يا صديق.

- تفضل.

- كم؟

- 20 ريالاً.

ركب ولم يفاصله في السعر كعادة بعض زبائنه، لم يضبط ملامحه بدقة، رجل يميل إلى السمار، عادي، قد تراه يبيع في محل ما أو حارساً أو صديقاً لأحد أصدقائك، شخص لا يثير انتباهك أو ظنونك، رجل ما وفقط وبلا علامات مميزة. ذهبا معاً إلى حي قويزة، هو وحي الحرازات وأحياء طريق مكة القديم الشرقي من الأحياء الفقيرة والسيئة التنظيم في جدة. هي أحياء حديثة بمعنى الحداثة اللفظي فقط، لم تتجاوز أعمارها العشر سنوات ولكن أفقر الأسر تعيش هناك. عائلات الفئة المتوسطة المدنية والباذخة الثراء تقل أو تندر، أصبحت المنطقة بيئة خصبة للشبهات أياً كان نوعها. بعيداً عن عين الرقيب، قبل عدة سنوات، كان أهالي المنطقة يذهبون إلى أماكن أعمالهم ومدارسهم كل سبت ليروا معالم حيهم وقد تغيرت، يستغل البعض إجازات نهاية الأسبوع ليضموا هذا الشارع إلى أملاكهم، أو تلك الساحة إلى استراحاتهم، حتى أصبحت الأحياء أسواراً من الأسمنت المسلح تتخللها أزقة صغيرة تسمى تجاوزاً شوارع.

وأخيراً وصلا، منازل متجاورة في آخر العالم، تتجاور بتلاصق حميم وكأنها تتعاون كقلعة ضد القادم المجهول. أثناء الرحلة كان الزبون قد أجرى عدة اتصالات مبهمة، لغة عربية ولكن خالداً لم يستطع أن يفك طلاسمها، أو أنه اعتاد ألا

يرهف سمعه لأحاديث زبائنه الخاصة. أشار له أن يتوقف، توقف خالد ونظر إلى الزبون مبتسماً كعادته، ترجل الزبون من السيارة بصمت، وذهب بعيداً إلى حال سبيله دون أن يشغل ذهنه بدفع الأجرة، لحق به، أخذ ينادي عله يلتفت إليه، ولم يكد أن يمسك به حتى شعر بقوة الضربات على رأسه وبطنه. لم يطل وقوفه حتى اضطجع الأرض وهو نصف مستيقظ، خائر القوى، نبع من الدم انفجر للتو يسقي شعره ويغمر عنقه، لم يدر بخلده أن إجراماً بلا أسباب سيحصل له، رأى أحدهم خالداً وهو يحاول أن يقف مجدداً فنبه البقية المنشغلين بتفقد السيارة، عادوا مرة أخرى ومارسوا فتوتهم ويلطجة الحارة ضرباً بلا رحمة حتى فقد خالد وعيه، لم ينسَ خالد أيضاً نباح الزبون الذي أوصله حين دافع خالد عن نفسه بكلامه قال "يخس طلع سعودي الكلب".

حرارة الشمس أيقظته، وتجمع الذباب المقزز كذلك، ليلة قضاها في خرابة بالقرب من إحدى الاستراحات التي لا تبعد كثيراً عن قويزة. تحسس بصعوبة محفظة النقود وشعر بالراحة لوجودها، حاول القيام ولكنه لم يستطع، ليلة كاملة وهو يفقد كمية من الدماء كبيرة، وآلام الضرب ما زالت توجع كل جزء من جسده. تحامل ووقف: راح يشير لأحد أن يقله إلى مسكنه، مظهره بيذلته الممزقة الدامية مخيف، وأخيراً استطاع أن يصل. لم يقابله مصطفى في الاستقبال، صعد

مسرعاً إلى غرفته وأخذ حماماً دافئاً، تطيب، العطر نصف العلاج، هكذا يعتقد، يعالج الأرواح والأجساد، واستلقى قليلاً قبل أن يذهب إلى مركز الشرطة ليخبرهم بالأمر.

– الضابط غاضب وهو من تكالبت عليه القضايا: هذا إهمال منك! المفروض أن تأتي إلينا لتشتكي، أتريد أن تأخذ حقك بيدك؟! هي فوضى؟! ثم ألا ترى أن عشرين ريالاً لا تساوي ما أنت فيه الآن؟!

لم ينبس ببنت شفة، صمت مطبق، الضابط زبون أيضاً، وهو دائماً على حق، وقّع على المحضر، ووُعد بأن يتم الاتصال بالمؤسسة حال وجود السيارة، عاد محبطاً غاضباً يجر أذيال الهزيمة، يفكر في الانتحار، شيء من هذا القبيل، احتضن قلمه وتوسد ورقة، هو حين يحزن يكتب، وهو كذلك حال الفرح.

اشتر دماغك

كنت وما زلت أشكك في تاريخ أمتنا المجيدة وقد رسمها أهل الفكر والتاريخ والعلوم بأجمل الألوان لوحة امتلأت بأروع السير والمشاهد، حينما نقرأ عنهم ونمعن في القراءة ونراجع خطبهم وخطاباتهم وندرس معارفهم تجد بوناً شاسعاً بين الجد وأحفاده، لكنني أؤمن أن الإنسان العربي تحت عوامل الوراثة فيه قصور العادة وميادين التقاليد ولكنها لا تتواضع في كبرياء عجيب لتثير زخارف العقل وجماليات المنطق.

قال الشيخ: "إن الإسلام كشريعة شرع كل ما فيه مصلحة الأمم ورفعة لشأنها وصلاح لأمورها"، ولكننا للأسف لا حمائم للسلام صرنا ولا نسور القوة أصبحنا وبين حانا ومانا ضاعت لحانا. أتذكرون من قال: "ذهبت إلى أوروبا فوجدت إسلاماً ولم أرَ مسلمين وأتيت بلاد الإسلام فوجدت مسلمين بلا إسلام".

أيها العربي! هل ترثي الأمم لحالك وحال العشيرة وشيوخ القبيلة أم أنها ما زالت تضحك على جهلك، بل هو الرثاء ورب الكعبة، رثاء كفرح عدو في عزاء عدو أراد المواساة وقد غلفتها روح الشماتة وفرح الانتصار، قلبت أوراقك فوجدتك تكتب أحلامك من اليمين إلى الشمال بعكس أحلام جيرانك. هل هذا غرورك أم عزتك المزعومة؟؟ أم أنها مزيج من كرامتك واختلافك أنت مع نفسك بل هو نوع من شذوذك وشهوانيتك التي طالما شدوت بها في أشعارك وأدبك في مساءات كبرائك وشيوخك.

اعتزلت العالم فكنت يا عالمي العربي الكبير بحيرة الظلام في عالم الأنوار، قيل إنهم حاربوك في زمن مضى فطمروا بحرك العظيم وقتلوا أسماكك واقتنصوا لآلىء محيطاتك وأغلى جواهرك ولم يبقَ إلا الظلام وخفافيش الظلام. لعبت خفافيش الظلام اللعبة وقصوا القصة وتوزعت قبلاتهم تلطخ الأيادي وتخون بقاياك وتسود تاريخك وتبيض

تاريخهم وتعبث ضدك وتحطم آمالك وتقتل أحلامك وتزيدك آلاماً فوق آلامك فهل ما زلت بربك تحيي؟؟

الحرية لم تكن ولكنها أصبحت في معاجم العرب مثالاً للفتن ومخالفة الحكم وعصيان الوالي وتمرداً على الولاية، بينما هي في عالم الأنوار رمز وتمثال وقدوة. حينما تعزف لحن انطلاقك وحينما تمطر سماء واقعك الحار الجاف النتن تتوقف حياتك فلا تفكر، فأنت تحقق مجدك.

"أيها الوطن السريع الطلقات والكاتم
الأنفاس.. سدد بإحكام.. خذني على محمل الجد
ولو مرة في العمر بطلقة باتة".

محمد الماغوط

18

كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف من صباح العشرين من نوفمبر/تشرين الثاني للعام 1979 حين رن تلفون منزل منصور في البغدادية.

- سيدي، آسف لإزعاجك، ولكن وردتنا أنباء عن اقتحام جماعة من أتباع "الدعوة المحتسبة" للمسجد الحرام بعد صلاة الفجر قبل دقائق من الآن، وأنباء أخرى متواترة عن أنهم احتجزوا المصلين والمؤكد أن لديهم بعض المطالب، نحن في انتظارك في غرفة القيادة المركزية...

- محاولاً الحفاظ على هدوئه: أنا في طريقي إليكم، أبلغوا إلى جميع الأفراد والمتعاونين ورؤساء الفرق بالتواجد الآن في مقر القيادة وليذهب فريق الملازم أحمد إلى مكة فوراً، أيضاً لا نريد تسرب الأخبار أكثر، قد تكون مشكلة بسيطة وتحل دون تدخل الرأي العام، و"الله يجيب العواقب سليمة".

جهيمان العتيبي من أفراد الحرس الوطني هو ومحمد عبد الله القحطاني، تلميذ الشيخ ابن بز النجيب "المهدي المنتظر" كانا على قدر من الذكاء في اختيار توقيت ثورتهما واقتحام المسجد الحرام مع خمسمئة من أعوانهما ومناصريهما وبأسلحة وذخائر خبئت تحت الأكفان وأدخلت قبل الصلاة على أنها موتى لتميت المصلين. بزغ القرن الهجري الجديد 1400 وهم متسلقون على أستار الكعبة ليثبتوا للعالم حقيقة الحديث الشريف "يبعث الله على رأس كل مئة عام من يجدد لأمتي دينها". هنا تؤكل الكتف، الشعب الطيب المتين، سوف يصدقهم، حساسية الموقف كفّت يد الحكومة عن الانقضاض على تلك الجماعة وخصوصاً مع حرمة القتل في رحاب المسجد الحرام، لم يكن هذا الدليل الوحيد على ذكاء المجموعة بل إنهم استغلوا ثورة الخميني في إيران وتأسيس الجمهورية الإيرانية الإسلامية، بالرغم من تطرف الجماعة وكرهها للشيعة كمذهب، إلا أن الأعداء قد يستفيدون بطرق غير مباشرة من

بعضهم البعض. كانت الثورة الإيرانية مثال جيد وحديث وقريب وجدير بالاهتمام للمتطرفين في المسجد الحرام على إمكانية أن يكون في قمة الهرم السياسي زعيم ديني، في عهد كان الدين يبعد عن أروقة السياسة عربياً وعالمياً، خصوصاً بعد انهيار الخلافة الإسلامية بداية القرن، وكذلك مظهر الحجاب الذي بدأ يغطي وجوه الإيرانيات وأيديهن بعد أن كان الحجاب ممنوعاً أيام الشاه، وتحطيم مراكز الفسق والعري والمراقص في العاصمة طهران بعد أن كانت وجهة الغرب السياحية. احتجازهم للأميركان في السفارة خيل لهم عودة أيام سبي الحروب، قيل إنها علامة نهاية أميركا، فيتنام الإسلامية، كل هذا عاد إلى السطح ليقنع الكل أن الإسلام هو الحل، الإسلام فقط. لم تمض بضعة أيام حتى انطلقت شرارة انتفاضة الشيعة في القطيف والإحساء، انتفاضة محرم الشهيرة، شرارة اشتعلت يوم السادس من محرم قبيل يوم عاشوراء. بعد خمسة أيام من دخول الحرم خرج آلاف من الشيعة وقتذاك بعد خطابات الملالي من الحسينيات والحوزات يتظاهرون ضد كل شيء وأي شيء، مظاهرة مصدرها الدين، ومنهجها الشريعة مدعومة من ثورة الخميني وإرادتها في تصدير الثورة.

أيضاً، نزعة الإخوان المسلمين الملتهبة في مصر وبعض الدول العربية كانت في أوجها، اتفاقية "كامب ديفيد" ما زال جرحها النازف ندياً، أطلق لحظتها السادات العنان

للجماعات الإسلامية والإخوان خصوصاً، وفي الداخل كانت بطانة الثورة موجودة. آلاف من المتأثرين بجهيمان ومن المؤيدين له في الخفاء، لم ترق لهم سياسة الانفتاح والطفرة المادية التي كانت عنوان أخبار البلد لأكثر من خمس سنوات مضت. كانت قد افتتحت للتو جامعتان إسلاميتان رسميتان هما جامعة الإمام محمد بن سعود والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة مما أدى إلى نشوء مبدأ عصبية التطرف وعنجهية التخويف كحل لإجبار المجتمع للرجوع خالصاً إلى الله؛ ونمت بعض الأفكار الإسلامية والأطروحات الفكرية المستمدة من الفكر الإسلامي المخبأ لقرون بين طياته تنتشر في حوارات كثيرين من طلبة العلم الملتحقين بهاتين الجامعتين، وكان من ضمنهم زعيما الجماعة جهيمان ومحمد، وآخرون عاشوا بعد تلك الحقبة، لم تجد هذه الموجة شاطئاً لتكسر أمواجها حتى وصلت إلى أبواب المسجد الحرام.

كان منصور في فريق القيادة، أفكار التفاوض تتطارح، يرى أوامر مشددة وبتتابع كثيف بقطع الاتصالات بجميع أنواعها مع العالم الخارجي، وإيقاف الرحلات في المطارات، وعدم السماح للصحفيين بالدخول أو النشر، استمر الحظر وكتم الأنفاس لعشرين ساعة تلت صلاة الفجر ذلك اليوم. لم تستطع بالطبع إمكانيات الإعلام أن تنقل الحدث مباشرة وأحياناً قبل حدوثه كما في أيامنا هذه، ولكن

العالم بدأ يشم رائحة الحدث، سربت صوت أميركا الخبر لأول مرة من مصادرها في السفارة الأميركية في جدة، ولم تمض ساعات حتى كانت مكة تحت المجهر، وصدرت منذ ذلك الحين آلاف التقارير والرؤى والأخبار عن هذه الحادثة. علق التصريح الرسمي حينها على الحادثة أنها عصابة خوارج ومهووسين ومجانين وجهلة وسذج وظالمين ومنحرفين وضالين؛ وتهور أحدهم وقال إنهم كفرة وصليبيون بل عملاء وخونة استحلوا حرمة البيت الحرام، ثم صمت بعدها التصريح للأبد.

تذكر منصور حادثة استعانت فيها الحكومة بفتوى لكبار العلماء لنقل الحكم بين ملكين. بعد جدال أصدرت فتوى بجواز قتال هذه الجماعة بعد أن استمر تعطيلها للصلوات واستحلال المسجد الحرام لأكثر من أسبوعين. اندفعت جموع من أفراد الأمن السعودية مدعمة بفرق فرنسية وسط روائح الجثث وطلقات الرصاص التي ظلت آثارها حتى تمت توسعة المسجد الحرام في بداية التسعينيات. قتل "المهدي المنتظر" فخارت قوى البقية ومات الإيمان في قلوب اعتقدت أنها هي الفرقة الناجية، طهر المسجد الحرام واعتقل البقية الأحياء ومن ضمنهم جهيمان، وبعد هذا تم إصدار الحكم بإعدامهم جميعاً، ووزعوا على مناطق أربع مختلفة ليكون الإعدام عبرة للجميع.

قلق حتى التلعثم، ارتباك يحرم النوم، انتباه يفسد

العقل، عشرة أيام ومنصور بقلبين وعقلين وطرق حياة متضاربة. كان يمضي أياماً يخطط مع القيادة للوصول إلى أجدى الطرق للسيطرة على الموقف في مكة وفي المنطقة الشرقية، ولم يكن يشغله ذلك، كانت الوزارة كعادتها قوية، لن تسير أمورها على شخص بل على فريق وأفراد، ولكن قلقه كان على صديقه وشريكه أبو فيصل.

"لا حس ولا خبر" رددها منصور لصديق له يعمل في الرياض، يثق فيه بشدة، هو في الحقيقة صديق مشترك لهما، حكى له اختفاء أبو فيصل المريب، أخبره أنه يريد الاطمئنان أن لا يكون متورطاً في هذه الأزمة، لم يحدثه عن حوارهما الأخير، للثقة حدود، أخبره أيضاً أن أموراً مالية وتجارية مهمة هي التي يريد أن يبحثها مع أبي فيصل المختفي، كرر عليه عدة مرات أن ينشط معاونيه ليجد أبا فيصل. اقترح عليه الصديق أن يتأكد من عدم سفره إلى الخارج، رد عليه أنه تأكد من ذلك، أنهى مكالمته بعد أن أطلع صديقه على مستجدات الأمر في مكة وجلس يفكر ويسترجع ذكرياته مع أبي فيصل، هل هو متورط؟ حسناً! ما هو سبب اختفائه المفاجئ هذا؟ حتى في شركتنا ليس هناك أي مديونيات ليهرب كما هرب كثيرون من سماسرة العقارات؟ لا مبرر إذن.

بعد أن تمت عملية التطهير، شكل فريق لتحليل وكشف ماوراء الحدث ومن وراءه. لم يكن منصور من ضمن هذا الفريق، ولكنه على اطلاع بما سيدور وما سيكتشف، ولم

يخب ظنه وتوجسه حين اتصل به صديقه من الرياض ليخبره أن أبا فيصل في طريقه إلى جدة ولكنه مكبل للتحقيق معه على يد الفريق. انكشف الستار وكان أبو فيصل متورطاً بدفع مبالغ كبيرة للمجموعة، جميع الإثباتات ضده كانت إلى حد ما مكشوفة، هو أيضاً جذب الأعين له أكثر باختفائه من الرياض قبل ليلة دخول الحرم بليلة واحدة. أمضى في قريته شمال الرياض عشرة أيام حتى تأكد من دخول المجموعة الحرم. كانت هذه أوامر المجموعة، أن يكون بعيداً عن الأضواء لتضمن المجموعة مصادرها المالية للدولة الإسلامية التي سوف تبنى على أيديهم، وهي كثيرة؛ ولكنه عاد ليعمل في مساجد أحياء لا يعرفه فيها أحد ليزيد جهيمان وليؤلب الناس بماله ويوزع المنشورات وبعض الكتب والرسائل التي كتبها جهيمان بنفسه. فشله في إخفاء نفسه وتحمسه المبالغ فيه لم يصعب على المتعاونين كشفه والقبض عليه وإرساله إلى فريق التحقيق في جدة.

- مبسوط الآن؟ ضيعت نفسك مع شرذمة وسخة ومجنونة ومتطرفة، هل يمكن أن تقول لي ماذا استفدت؟ أنا سوف أجيبك، استفدت ولا شيء. تخيل تجربة للإنسان لا يستفيد منها شيئاً. "غباء، تقدر تسميه كذا". في عين الوطن أنت خائن وفي عين الدين أنت مثير للفتنة وفي عين العالم أنت مجرد متطرف ممقوت وفي عين أهلك أنت مستهتر، نعم مستهتر سوف ترمل امرأتك من بعدك وتيتم أبناءك...

- رد أبو فيصل على المحقق: الموت؟ لماذا؟ أليس هناك محاكمة إسلامية لي؟...

- أجابه المحقق في برود: حسناً أنت احكم على نفسك بنفسك، وأنا راض بحكمك، أنت تورطت وصدقني ليس هناك مجال لخلاصك، أشياء كثيرة قد نتغاضى عنها إلا اللعب باللين مع السياسة. يسمونها أحياناً قضية أمن دولة، أنا أسميها اللعب بالنار، أو كش ملك وتنتهي اللعبة، تخيل حياتك لعبة. هناك خطوط حمراء حولك، حول كل شيء ليست حبراً أحمر ولكنها دماء من سبقوك، هناك طريق واحدة، واحدة فقط. أستطيع أن أساعدك من خلالها، سوف ترى عدالتنا معك حينها، ولكن إذا تعاونت معنا.

لم يرد منصور أن يبدي أسباب اهتمامه بمقابلة المتهم أبي فيصل، أخيراً أتيحت له الفرصة وتقابلا، احتضنه وهو يتلفت، لا يريد أن يراهما أحد هكذا، عاتبه، صرخ فيه بعنف ولكن بصوت منخفض، أسرع في جمله لم يكن وقت المقابلة طويلاً، نصحه أن يتعاون بكل ما يستطيع، قال له: "الأمر خطير وقاتل، جهيمان وجماعته سوف يعدمون قريباً ولا أريد أن تكون معهم".

استمع أبو فيصل لصديقه منصور، هو فعلاً يثق فيه بالرغم من أنه يراه فاسقاً من مظهره، لكن إخلاص قلبه لا بأس به، العشرة تغفر، وصل قبل دخوله أصلاً إلى مقر الوزارة إلى نقطة الانهيار، تعاون بقدر المستطاع، أخبرهم

عن الوسطاء بينه وبين الجماعة، وكيف نعرف إليهم، وأسماء أشخاص داعمين في الخفاء من أمثاله، أئمة المساجد المتعاونين معه في الرياض، وكمية المبالغ التي كان يقدمها للجماعة، كل شيء كان يعرفه صرح به.

أرسل أبو فيصل إلى سجن الرويس بعد أن خففت عقوبة الإعدام بأعجوبة إلى السجن لأجل مسمى، لا يسمى مؤبد. سلوك التاجر الذي ظهر به أمام المحققين وتاريخه كعسكري سابق ساعده كثيراً. خيبة أمل عظيمة في الجماعة كانت تسيطر على أفكار أبي فيصل، لم يتوقع أبدا أن ينتهي بها الحال إلى أن تندثر المجموعة التي كان مخلصاً في دعمها خلال السنتين الماضيتين. كان يقول إن الإسلام سوف يضيع لأن المدافعين المخلصين عنه ماتوا، طموحات الدولة الإسلامية تبددت، سوف يفسد المجتمع وسوف تظهر النساء في الشوارع، سيأتي اليوم الموعود، يوم يقول فيه الرجل للآخر يراه يزني في الطريق أمام الناس ليته ذهب بها بعيداً عن أعين الناس. سوف تخرج المرأة وترقص مع من تحب، سوف تفعل الفاحشة مع أول رجل تقابله وهي خارجة وآخر رجل وهي عائدة صباح اليوم التالي. سوف تكون كل ليلة مثل ليلة الشعبنة التي قضاها مع منصور قبل سنوات، سوداوية خلقتها المجموعة في نفس كل منسوبيها، شك لازمه حتى في أدق تفاصيل حياته. لم يستطع أن يخلد كل يوم في السجن وحيداً بأفكار مشوشة مشككة قاتلة كهذه، حالات الرعب

والتعذيب المعتادة أضافت إلى آلامه آلاماً، لم يعد يتحمل. طلب من مأمور السجن أن يجري اتصالاً بمنصور، حدثه بأنه لن يستطيع أن يكمل حياته في السجن ولكنه لن ينتحر، الانتحار حرام، أوصاه أن يعتني بطفله نيصل الذي ولد للتو وزوجته فلا أحد يثق فيه غيره. قال له "أخبر ولدي حين يكبر أنني كنت مخلصاً، ولا تنسَ أن تجعله فخوراً بوطنه"، شعر منصور برائحة غريبة في صوت أبي فيصل، أتراه الندم؟ أم هو الإصرار؟ لم تمض أيام قليلة حتى أخبره مأمور السجن أن الشخص الذي أجرى معه اتصالاً قبل فترة انتحر الليلة الفائتة، قيل إنه انتحر.

"لا تخف أن تكون شاذاً في رأيك، فكل الآراء المقبولة الآن كانت شاذة قبل ذلك".

برتراند راسل

19

لم يكد يتصل بسام بشبكة الإنترنت ويدخل اسم المستخدم والرقم السري للبريد الإلكتروني حتى فتح نافذة للحوار..

- هاي بسام حبيبي منور، مشتاقلك موت.
- تشتاقلك العافية حبيبي.
- رأيت إشارة دخولك "الإيميل" وأتيتك طائراً. أخبار حبوبي الصغير؟ "ابتسامة".
- نايم!
- أحلى شيء ما يقوم إلا بفمي!

- عوّرتك الأسبوع الماضي؟
- أنت آه منك أنت تجرح وتداوي "ضحكة طويلة"، لك خاطر الليلة؟
- لا والله أشعر بالتعب قليلاً.
- حبيبي والله سوف أخرج الآن، رقمي عندك إذا أردت كلمني.

يوم الأربعاء ما زال يوماً مقدساً لدى بسام إذ يعود من الجامعة مبكراً. كان كأغلب طلاب الجامعة يرتبون الجدول بعد حرب ضروس ليكون الأربعاء أصغر الأيام. ينام حتى بعد صلاة العشاء، لا أحد يقطع عليه نومه، بل لا أحد يعلم بوجوده أو موته حتى. يذهب إلى الحلاق المجاور للقصر، النعومة مطلب كثيرين، يضع الحلاق التركي اللمسات الأخيرة على وجه بسام وقليلاً من الجل، القليل منه ليترك شعره اللامع يتموج كلما تحرك، لن يغفل نظرات التركي الوسيم، مدحه المتكرر لنوع بشرته، يده التي تمسك كتفي بسام كلما سنحت الفرصة، ولكنه يطبخه على نار هادئة وقد يضمه إلى المجموعة يوماً ما. يلبس برمودا ليكشف عن عضلة ساق منحوتة وناعمة وإن كان قليل من الشعر يضفي عليها شيء من الرغبة لدى الآخرين؛ سوف يخرج أطرافاً من البوكسر الأحمر المقلم من تحت البرمودا، لن يهتم إن نزل قليلاً تحت عظمة الخصر البيضاء النحيلة، ولكن آخرين سوف يهتمون لرؤية أعالي الأرداف الثلجية، يكمل جهازه الليلة،

الساعة الكبيرة والجزمة السبورت ورشة عطر، ولا يدري من يكون الضحية.

يذهب إلى سوق لم يذهب إليه منذ فترة، يرتاده المثليون في أحد شوارع التحلية، ولكنه ويا للمفاجأة سوق للعائلات فقط. المفاجأة ليست إنه للعائلات فأغلب الأسواق هي كذلك ولكن المستغرب أن السوق بمرور الأيام أصبح ملتقى لباعة الهوى المثلي ومريديه. زبائن وباعة ومحترفون وهواة. ترجل من سيارته بعد أن أوقفها بالقرب من مقهى مشهور في نفس الشارع، وأخذ يتسكع قليلاً أمام المحلات الفخمة. تصادف ليلة الخميس أن يمتلئ ذلك الشارع بأجود السيارات وأكثرها جمالاً وغنًى. تتعاطف مع وسامته إحدى الفتيات، هي من تبدأ بالكلام، قد تكون بنت "خبرة" وتتغلى عليه في بداية الأمر ولكنها تلين إذ هي من ابتدأت بالحديث، "البادي أظلم"، يندر أن يكون هو من يبدأ بالكلام، تسأله عن محل ماء، عن سائقها الهندي، عن مقهى جيد في الجوار، عن الساعة، الساعة كم؟ يجيبها، تحتك دم، تبتسم مغتاظة "غباااار"، قد تسأل عن ولد ضائع لابس "برنيطة"، يضحك، "برنيطة" بس، يعني عريان ولابس "برنيطة"، تضحك، "خفيف دم"، يجيب: اشرب منقا في الصباح كل يوم؟! تضحك مجاملة ولكنها لن تظهرها كذلك، ينتهي بهما الحال في أغلب الأحيان في أحد مقاهي ذلك السوق، يتجاوز حرس الأمن بكل ثقة، "واثق الخطوة يمشي ملكاً"

يده تلتف حول يدها، يخبرها بمثليته، تنظر إليه نظرة خاوية من أي معنى، فيها قليل من الاشمئزاز، تقول له "يا خسارة" وتذهب.

أصبح الآن حرًا، يتسكع في السوق، يقترب منه أحدهم، العين لم تفارق جسد بسام، يتلوى اللسان داخل الفم، حين يجد بسام من يغمز بعين واحدة يقول في نفسه "قديمة". إشارات خضراء مرورية كثيرة ترغب فيه وأخرى حمراء يحذر منها لأنها تشبهه، أقطاب، تتجاذب وتتنافر، يبتعد الآخر وهو يتلوى، يذهب بسام إلى ناحية أخرى من السوق، يرى هناك آخرين ثم يعود، يراه مرة أخرى، ما زال يتلوى ولكن خطواته ازدادت تقارباً، مؤشر ثان، ترتفع مؤخرة القدم عن الأرض قليلاً حين يمشي، مؤشر ثالث، يتمايل الخصر بحذر لأول مرة، مؤشر رابع، يبتسم ابتسامة الصديق حين يقابل صديقه، مؤشر خامس، يقتربان من بعضهما ويبتعدان، يبتعد بسام في الاتجاه المعاكس ينظر خلفه كأنه يريد شيئاً غير النظر إلى الآخر، يراه محدقاً فيه ملتفتاً إليه ويشدة، مؤشر سادس.

هل أخطأ المثلي في اختياراته؟ المثلية قد تكون في أغلب الحالات فترة طارئة، أي أن المجتمع السعودي لم وأعتقد جازماً لن يقبل بتشريعات حتى لو كانت غير رسمية أن يمارس مثليته داخل البلد، قد يترك له مجاله في اللعب في الظلام قليلاً حتى تقنعه الأيادي والألسن بالإياب مندمجاً

أو الذهاب بعيداً، ببساطة حين يبلغ الفتى عمر الثانية عشر يبلغ، ويستغرب وجداً من تغيرات طرأت على أنحاء الجسد والمخيلة، قانون الحياة وليست نظريات فرويد من أكد هذا. وقال القانون - أطال الله بقاءه - إن هذا الفتى سوف يميل إلى الأنثى، جنسياً وعاطفياً وأدبياً، وأيده في هذا السيد التاريخ والأستاذ فيلسوف والدكتورة فطرة والشيخ إسلام وبقية الشلة: منطق وعقل وعالم وطبيعة وآخرون. حسناً سوف يذهب الفتى يبحث عن الأنثى، مفاجأة، آلاف الأسوار حولها، تربى على أنها رجس وأنها شيطانة في صورة آدمية، "تربية أيه يا عم" يردد ما يقوله الناس حوله، هو لحظته الآن، يفكر بالمغامرة، معلومة مهمة، إن اقترب منها سيقتل أو سيسجنه أشخاص غلاظ، شداد لا يعترفون بقانون الحياة أو بأي قانون إلا قانون المنكر، أشخاص يلعبون في المضمون وعين محبيهم الكثيرين كليلة، و"الجمس" لن يتوقف، "بلا وجع رأس وبلا مشاكل" قالها الفتى وبحث عن الأنثى بطريقته هو في مدرسته أو الشارع أو حتى البيت نفسه، يبدأ تطبيق الفكرة ويعتادها حتى تصبح العادة جزءاً من حياته، لم يختر إذن بل أجبر عليها، الغلط على مين؟

يصل إلى الناحية الأخرى من السوق، ينعطف ناحية المطاعم، عائلات كثيرة تتناول عشاءها، أغلبها من العائلات الصغيرة، زوج وزوجة وطفل على الأكثر، يلفت الأنظار وهو

يمشي وحيداً، بلا صديقة أو حتى صديق. يجلس على أقرب طاولة إليه، يطلب وجبته المعتادة، يحب البيتزا، يأكل الأطراف فقط، دائماً ما يوصي عامل المطعم بجعل أطراف البيتزا أكثر سمكاً وأن يكثر من الجبن داخلها. ينتظر وجبته قليلاً، يشعر أن ألسناً كثيرة حوله تلوكه، هو الآن في أحلامهم فارس أو مفروس. يفترس الأطراف الساخنة، كان مشغولاً عن خفايا تدور خلفه حتى اقترب منه رجل المؤشرات وقال بصوت يتوسط بين الرقة والخشونة المفتعلة "ممكن أجلس معاك، أصلاً أنا متعود ما آكل لحالي"، يبتسم بسام "تفضل" ويعكف البنصر تحت الطاولة ليضمه للمجموعة، المؤشر السابع.

فارع الطول فعلاً يتجاوز 180 ببضعة سنتيمترات، عمره يخمن أنه تخطى الخامسة والعشرين، بنطلون أسود مقلم طولاً بخطوط لامعة وقميص أبيض مصفر تدلت من عنقه المفتوح ربطة عنق سوداء صغيرة توحي أنه خرج للتو من معرض ما، ربما يكون معرض عطور أو أزياء أو جواهر فخمة كالتي يزدان بها شارع التحلية، أنيق، يعتقد بسام أن الشخص يزداد أناقة كلما كان طويلاً، وسيم باعتدال. تبدأ بعض المؤشرات السابقة تستعرض من جديد أمامه صراحة، حركات اليد الأنثى حين تمسك بالشوكة والملعقة، مؤشر ثامن، يخبره عن جمال "المول" ولكن أشياء تنقصه، دورات المياه ليست مريحة وضيقة جداً ووسخة أحياناً، مؤشر تاسع،

كالعادة السوق للعائلات فقط، يشكو لبسام الشكوى الأزلية التي يوقن أنها بلا حلول، يؤيده بسام في هذه النقطة ليشجعه على التقدم في الحديث، يتعمق في تفاصيل الديكور، تعمق مطلع. "المول" لم يكن خيالاً، جيد إلى متوسط، يتردد بسام هل يعتبر هذا مؤشراً، ينلر أن يتحدث شاب هنا باحترافية عن الديكور، خبرات الشباب عن الديكور سطحية، نصف مؤشر حسناً، يضع الملعقة في فمه ينظر إليه بسام لحظتها يسحب الملعقة في دلع مرتبك ونظراته تلتفت في خوف مبطن، مؤشر قوي جداً يصل بمجموع المؤشرات إلى عشرة مؤشرات، يقرر بسام في نفسه أنه لن يصل إلى نتيجة حتى يشاهد المؤشر الخامس عشر. يتوقف الكلام لدقائق وينهمك الاثنان بجد للانتهاء من العشاء، ينقطع الحوار باعتذار بسام أنه يرغب في إجراء مكالمة مهمة، طريقة للخلاص أو هي لجمع مؤشرات أخرى، يبتسم بسام ابتسامة رفع الحواجب الجميلة منهياً بذلك الجلسة.

لهجته البيضاء وإن كانت تميل إلى النجدية لم تترك أي انطباع لدى بسام، وإن كان يعتبر نبرة الصوت مؤشراً مهماً في عملية التقييم، يكمل اتصاله المقترح، تحدث إلى نواف ليخبره عن موافقته المبدئية بالذهاب إلى أحد المقاهي في المراسي المشهورة في أبحر، يريد أن يتغير البرنامج عن المعتاد، لا يريد أن يذهب إلى حفلة عيد ميلاد عصومي، قد تتمرد شهوة حارقة وهم في المرسى، سيضطر أن يخمدها

فوراً كالعادة، أخبره أنه سيقله بعد منتصف الليل إن لم يطرأ شيء جديد، "يتا ألو" قالها وأغلق الجوال.

يعود مرة أخرى للمشي وحيداً في "المول"، النظرات لا تزال تعريه، هو أيضاً يعري بعض الأشخاص حوله، عالم عار، يدخل محلاً ليشتري ملابسه الشتوية، يشير له البائع إلى قسم الملابس الرجالية، يذهب إلى هناك، المعرض الكبير خال إلا من بعض المتسوقين، يجرب بعض الكانزات الملونة، يرتدي واحدة منها ينظر إلى المرآة، يعيدها إلى الرف، يجرب آخر يدور ليرى التفافته وهو يرتدي الكانزة، صوت من خلفه يفاجئه:

- لائق عليك، صدقني أنت محلي اللبس.

- بعد أن عرف صاحب الصوت: عيونك الحلوة.

يقترب من بسام ينصحه بقطع أكثر أناقة، يقترح عليه فانلة أخرى "بودي"، يقول له لا إحراج إن هو ارتداها أمام الناس، يرتديها بسام فوق ملابسه، يمسك كتفيه في حماس ليظهر إعجابه بالفانلة! المؤشر الحادي عشر، يختفي قليلاً، يحاول بسام الاختفاء أيضاً، يحمل بعض الألبسة ويذهب إلى المحاسب، يتوقف في طريقه عند ركن الأحذية، يعجبه "صندل" بني بسيط، ينادي عليه مرة أخرى من بعيد "حبيبي" "حبيبي"، يقول له إن بنطلون الجينز الرمادي سوف يكون تحفة عليه، يتردد بسام قليلاً، يقول في نفسه إنه اعتاد منذ صغره أن يختار ملابسه بنفسه، قد يجامل أحد أصدقائه،

ولكن هذا الغريب، لا يعرف حتى اسمه، وهو كذلك. أن يتجرأ ويقول "حبيبي"، يحسب هذا كمؤشر، حسناً هو كذلك، يرميه في السلة بلامبالاة، يفاجئه مرة أخرى، "ما راح تشتري بوكسر"؟ حتى أصدقاءه الحميمين لا يسألونه عن هذا، المؤشر الرابع عشر، يرد عليه أن ماركة البوكسر لا يوفرها هذا المعرض، يسأله مرة أخرى، ألن تجرب مقاسات الألبسة، يذهب معه، يبدي لبسام استغرابه من خلو المعرض الكبير، يدخل بسام وحيداً إلى غرفة تبديل الملابس، يقف ولن يدقق في مقاسات الملابس، لا حركة في الداخل، لم يتوقع بسام أن الغريب كان واقفاً خلف الباب، قال له "تحتاج مساعدة"، يريد بسام أن يلهو "مساعدة من أي نوع"، يرد "أنت تأمر"، يصمت ويبدل بسام بنطلون الجينز، قائلة "بودي"، يخرج مسرعاً، شهقة كبيرة، إعجاب مفرط، يحلف له أنه أكثر شاب أناقة في العالم، خطبة مدح. يعود بسام مرة أخرى إلى غرفة تبديل الملابس، يبدأ في تبديل ملابسه، وقبل أن يقفل ضبة المفتاح يسمع طرقاً خفيفاً، يفتح الباب، يهمس في لطف وقد انحنى ليجاور قصر بسام، يقول له إنه يريد أن يرى ماركة بوكسر بسام، يزيح الجينز قليلاً إلى أسفل، الماركة تكتب عادة على الأطراف من الأعلى، لم يكتف حتى لمسه، قال له إن القماش جيد، وفي لحظة لم يلق بسام إليها بالاً بدأت يد الغريب تعبث داخل البوكسر، تذوق عنقود بسام، يغلقان الباب، المؤشر الخامس عشر،

كان الغريب مثاراً للدرجة أن يمارس مع بسام في غرفة تبديل الملابس، ممارسة كاملة، انتشاء شهي، رقص رغم طوله بين أحضان بسام، كتم أنفاسه بالطبع، شعر بلذة الدخول والخروج ولكنه أخبر بساماً أن هذه الجولة لم تكن لترضيه، تبادلا الأرقام وفجأة سمعا طرقاً على الباب من الخارج، ارتبكا قد يكون أحد في الخارج وسوف يلحظ خروجهما معاً، وتقع المصيبة.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت "رديف النبي - صلى الله عليه وسلم - على حمار فقال لي: "يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟" فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً". فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: "لا تبشرهم فيتكلوا".

أخرجاه في الصحيحين

20

شهر مضى وصالح يتردد على منزل مستور في الخفاء، يتسلل ليرمي قطعاً من الحجر الصغير على الباب من بعيد،

يختار أوقاتاً يكون الأب فيها خارج البيت بعد أن رفض الخطبة وقالها صراحة: "يا ولدي حنا فيوض وانتو أولاد قبائل، وأخوك ما قصر معي، ضربني وما قدّر شيبي وكبري، وأنا يا ولدي ما فيني حيل للمشاكل، توكل والله يرزقك ببنت الحلال اللي ترفع راسك!". حاول معه، حلف له بأغلظ الأيمان أنه سيرعى ابنته، سوف يضعها بين عينيه، لم يخبره بحبه لها صراحة، لم يتضرع لمستور كثيراً، قد يشك الرجل في ابنته. قال في نفسه سوف أذهب إلى الشيخ أحمد، هو شخص لا يزال يثق فيه الناس منذ أن رحل مع من رحل إلى الخميس من قريتهم، هو قريب جداً من جميع البيوت تقريباً، يعقد قران الكثير من الأسر هناك، يشارك في كل مناسباتهم الحزينة قبل السعيدة، لن يخيب هذا الشيخ - الورقة الرابحة - ظنه. قال له الشيخ: "أنت فيك مس الحب، أعاذنا الله منه، أنت تعرف إن العرق دساس والرسول - صلى الله عليه وسلم - أمرنا بإجادة النسب والولد طيبه لأخواله، صدقني أنا مثل أبوك الله يرحمه، لكن أنت تعرف إنها بنت فيوض، لا أستطيع أن أساعدك".

انتبهت لصوت الحصى على باب الخشب، فزعت إلى منديلها الأصفر ذو الأهداب الملونة، ارتدته وهي التي لم تعتد أن ترتديه إلا أنها شعرت أنها كبرت قليلاً، نظرت من خلف الباب لتتأكد أنه هو، رحبت به في صمت.

- كيف الحال؟

- أجابته بتلقائية: طيبة، الحمد لله.
- أين أبوك؟
- خرج إلى السوق.
- ألم يفتح الموضوع مرة أخرى؟
- آه أنا والله تعبت، منذ وعيت لم يحتر أبي كحيرته هذه الأيام، أراه دائم السرحان وهو الذي اشتهر بطيبته وإزعاجه الجميل، وأنا لا أخفيك لا أفكر إلا بك، أتخيلك وقد اجتمع الجيران في زواجنا، آه أحبك أقولها لك لأول مرة علها تخفف عنك آلامك وآلامي أنا، كنت أعلم أني أحبك ولكنني تحاملت، كابرت، وها أنا أسقط بين أحضانك كفراشة، هل تريد 'حبة' مرة ثانية؟ لا عيب، صالح يا ولد شاهرة أملي فيك مات، فارحل واتركني.

رحل نعم رحل من بيتها ذلك اليوم، يرغب في الذهاب ليحضر بعض الماء من البئر الشرقية، ينظر إلى قاع البئر، تراوده نفسه على لمس القاع والخلود بجواره، حياة بلا فاطمة ليست حياة، قالها لكل من عرفه، هذى في الأسواق، رق قلبه واعتصرت آلامه نثراً عذباً، وحكماً للمحبين لو أنها خلدت لكفت المحبين دهوراً من العذاب. دفن رأسه تحت أقدام التجار علهم يتوسطون لدى مستور وأخاه معيض، لكن محاولاتهم باءت بالفشل، البعض لامه وعنفه بشدة 'ولد القبائل ما يأخذ فيضية! خبل أنت؟ ولو أنت ابن الأستاذ حسن، منا وفينا'.

هي ذبلت، مرض العشق كلفها الكثير، غارت العينان الكبيرتان، تهدل الشعر تحت المنديل، اللوعة تلون الحياة باللون الأسود، الكآبة تعبق في المكان، اختفى الفرح، وارتسم الحزن على الوجنتين، مات القلب عند باب المنزل وبين شبابيكه، يحجب سور بيتهم رؤيتها له وهو عائد بقرب الماء الفارغة إلى بيت أمه، كانت تنطلق لتنظر إليه من الشبابيك الصغيرة.

أمه! حين يتذكر تلك الأيام، تخنقه العبرات ولكنها تتمكن منه فيقتله البكاء، من قال إن الرجل لا يبكي إلا في الشدائد وحيداً، لا هو سيبكي حين يتذكرها أينما تذكرها يبكي بصوت مرتفع، ستقطع شهقات الدموع الساقطة قلوب الناس من حوله، هي التي ربته على حب حسن وهو الذي لا يتذكره إلا كحلم ليلة، رجلاً حنوناً دافئاً يشعره بالأمان. علمته أن حبه لها هو أعظم شيء في حياتها، هو الشيء الوحيد الذي عاشت على ذكراه، الحب حين يقاس كمادة حياة لا يقدر بثمن، هو مجموع التفاؤل والعزيمة والرغبة والطموح والرجاء والسعادة، هو الحياة، الحياة بمعنى جميل أخاذ. ربتهما وقالت لهما إن الحب لا يوجد هنا منه كثيراً ولو أنهما عرفاه لتكالبا عليه. حكت لهم قصة غيرة نساء القرية حتى حسدوا حبها وحياتها فمات حسن، قد يكون جهلاً منها اعتقادها هذا، ولكن حقيقة الحب الفريد والفراق الغريب لا بد أن تبرر. قالت لهما إنها ماتت حين سمعت بموته، وإنها

عاشت معهما تربيهما جسداً بلا روح. قال لها طفلاهما "في نفسيهما" إنها تبالغ أحياناً في وصف حبها لحسن. هو الآن يتجرع نفس الداء والدواء، هو الآن تغطي أمه أفقه الصغير، هي الصدق في عينيه، هي الحب في وجدانه، تكبر الأم في قلبه كلما غرف من عشق فاطمة. خطان متوازيان، إجلال وحب.

مسحور، رددها أهل الخميس عن صالح، أغرت الأمهات الجارات شاهرة أن تذهب بولدها المسحور إلى المطوع، أصبح حديث الصباح والمساء هذا المسحور. كل جارة حكت عن قصص الإعجاز عن هذا المطوع، يشفي المجانين، والمبطونين "داء البطن"، والمسحورين، وكل داء يعجز عنه أطباء المستشفى العسكري المطور الذي افتتح للتو في المدينة. قلن إن سحراً مثل هذا سوف تحل عقدته بين يدي المطوع، خافت أن يكوي المطوع ابنها الصغير، قالوا لها إنه لن يفعل إن لم يكن مضطراً لذلك.

كل يوم وصالح يمشي كأنه يتهاوى مطأطئ الرأس إلى الأسفل يطوف بأسماله البالية، حين أتى معيض من جيزان رأى صالحاً في حالته تلك، أقبل نحوه مسرعاً، ارتطمت يده على خد صالح الأيمن، دوي في المكان، يسقط والكل ينظر إليهما في باحة السوق، لا أحد يريد أن يتدخل بينهما، الأصوات لا تزال تدوي في صمت بلا صراخ ولا بكاء. صالح الدمية، معيض البطل، عيون رحيمة رقت لحال هذا

الفتى، دعوات صادقة صعدت لهذا المسحور، شماتة مقززة ابتسمت لهما معاً، لم يطق معيض - المنطلق كالصاروخ في مجتمع المدينة - أن يرى أخاه هائماً مطأطئ الرأس في الأزقة والساحات، وافقت الأم على مضض أن يذهبا به صباحاً إلى المطوع.

ركز المطوع نظره إليه والدخان يحجب رؤية الأشياء من حوله، سأل ولكن صالحاً لم يجبه، أمره أن ينزع ملابسه للكشف نظرت الأم خائفة، هي لا تريد أن يكوى ابنها، قال لها المطوع لا تخافي، ولكنها لا تزال خائفة. أشار إلى معيض أن يخرج أمه خارج الغرفة، أخرجها وعاد هو ومساعد المطوع. أسياخ الحديد كانت تتوقد منذ الفجر، كان قد اعتاد أن يعد الأسياخ لزبائنه مبكراً، يقرب بخبث السيخ الأحمر من خلف ظهره، يفاجئ بطن صالح بلمسات سريعة بطرف السيخ، رائحة اللحم تخبر الجميع مرارة الألم، ملوحة الدموع، نكهة العشق. لم يصرخ، أطبق على أسنانه حتى سمع صريرها، انفجر الغضب دموعاً حارة، ترك ساقيه ترتفع وتتحرك، ولكنه لم يصرخ كان يشفق على أمه أن تسمعه وهي خلف الباب تتصنت، حين أنهى المطوع لمساته الكاوية، هذى صالح "فاطمة" وغفى.

حين يهطل المطر يفرح صالح، يخرج لتغسل القطرات ذكرياته، لتخفف أحزانه، لتعلو همته، ليعيش من أجل هذه نورة، ثمرة حبه، أمله وحياته، يتفاءل بالمطر ويفرح به فرحه

ذلك اليوم، وكيف ينسى. كان يوماً ماطراً، هطل المطر بغزارة، غرقت شوارع الخميس وقتها، سقى الله البلاد بعد جفاف أشهر، كانت أيام الصيف تزهر أوراقها، ارتوت سدود المدينة الطينية، لم يمنع كل هذا أن يطرق الباب الأستاذ عبد العزيز، استغربت الأم هذا الطارق تحت المطر، فتحت وكانت تتوقع أنه ابنها قادم من ترحاله الدائم. صالح في زاوية المجلس تقرفص كحبة "كاجو"، آلام الكي لم تندمل بعد، صامت، ملّ الكلام، أو كاد أن ينساه. دخل عبد العزيز على صالح، فزع الأخير وقام ليذكره هذا بأيامه في المدرسة مع معلمه عبد العزيز المهيب، رحب به، أجلسه وجلس أمامه وبلا مقدمات:

- قم جهز نفسك وأنا عمك، سوف أذهب معك إلى مستور بنفسي لأخطب لك ابنته.

- ....!

- ماذا؟ ألا تسمعني؟ إذا على أخوك علاجه لديّ، ألا يكفي أنه هرب من المدرسة ولم يحصل على الشهادة الابتدائية.

لم ينبس ببنت شفة حتى قطعت الأم حديث عبد العزيز:

- كيف يتزوجها؟ إذا تزوجها لا ولدي ولا نعرفه، بنت الفيوض، فترة وتعدي ويرجع ولدي صالح مثل الأول وأحسن، هو مسحور، الله يلعن من سحره.

- يا أم معيض الله يهدينا وياك ولدك ليس مسحوراً،

أنت تعرفين أنه عاشق، ولا دواء للحب إلا الوصال، وإلا لا تلومي إلا نفسك، الولد سوف يضيع بين يديك، الناس تغيروا والأخلاق والدين قبل الأنساب يا أم معيض، ومستور وابنته ما يحتاج، ونعم الدين والأخلاق والتربية.

لم ولن تقتنع الأم بفاطمة، هي تعرض كل يوم فتيات الخميس واحدة تلو الأخرى أمام صالح ولكنها في نفس الوقت تعلم أنه لن يختار غير فاطمة. التناقض صعب ويصعب عليها مهمتها كلما سمعت عن خلاف يطرأ بين ابنيها حول هذا الموضوع. وأخيراً صمتت، وتفت بالحياد، أو أن الملل تسرب من صالح إليها، لم يفوت الفرصة عبد العزيز واصطحب معه صالحاً إلى بيت مستور. فتاة في الأعلى تنظر للمطر الفرح، أشرقت شمسها وسطعت ألوان قوس قزح، عقبة أخرى لم تقف طويلاً أمام هيبة الأستاذ عبد العزيز، رفض مستور الفكرة، قال إن زواجاً كهذا حتى لو كتب له البدء والحياة فإنه لن يعيش طويلاً. الناس لن يتوقفوا عن الحديث عنهما، ستؤدي الخلافات إلى أن تعود فاطمة بورقتها إلى البيت، أيمان مغلظة، ووجوه قبيلة، وعود رجال سوف تحمي هذا الزواج، هذا ما قيل في المجلس، لم يتحدثوا عن الحب، حديث الحب محرج.

كان يفصل الموضوع كعادته ليناسب مناخ الحال، دقة في المقاسات تفيد في مواقف كهذه. حين وافق مستور على فكرة الزواج لم يهدر عبد العزيز وقته ليظهر سعادته في تحقيق

حلم صالح الذي بدأ بالحديث والابتسام. طلب من مستور أن يحدد مهر فاطمة وموعد الزواج، واقترح على مستور أن يعجل بهذا الزواج ليقطع خطوط العودة على معيض ولكنه قطع على نفسه عهداً أن يمضي هذا الزواج قدماً مهما كلفه الأمر. معيض الجاهل لن يقف في وجهه هو الأستاذ الذي يبدد ظلام الجهل وهو الأستاذ الذي ينشر نور العلم.

"تحتاج إلى بعض الوقت لتدرك أن قاعة المحكمة هي آخر مكان في العالم يمكنك أن تتعلم فيه العدالة".

أليس كوبر

21

بعد بضعة أيام أخبر مالك المؤسسة خالداً بوجود السيارة في أحد الشوارع، أخبره أن المؤسسة تشكر له جهوده خلال الأسابيع الماضية، كان يأمل أن يعود أكثر حرصاً على كلام عبد الحق، لم يستمع لنصحه بالابتعاد عن توصيل أشخاص إلى أحياء ومناطق من جدة عيّنها له بالاسم. قال له إذا أتى الليل فاتجه إلى الشمال فهو أكثر أمناً وأغدق مالاً، لم ينتصح حتى وقع ما وقع وخسر وظيفته. ذهب يجر مواكب الخيبة إلى مؤسسة سيارات أجرة أخرى، نفس المقابلة ولكنها

لم تكن مع صاحب المؤسسة السعودي الاسمي وإنما مع الهندي الصاحب الفعلي، أبلغه بلغة تقطر حقداً شروط المؤسسة، وأوامره المنفرة. قبل خالد الأمر وقد تعلم لغة الصمت. جلس مرة أخرى خلف المقود ولكنه الآن بدأ للتو خبث الكار وحنكته، أكل العيش مرّ ولكن الرجولة تكمن هنا. لم يطل يومه حتى عاد منتصف الليل إلى المقهى، مصطفى منزو على غير عادته، سارح حتى طال أمد وهو على حالته تلك، تلقف تحية خالد ببرود، كان من عادته الثرثرة مع كل من يحيط به.

– أيه يا عم سرحان في أيه، وحشوك؟

– اليوم كنت في القنصلية، الموضوع سوف يطول، أريد الذهاب إلى بلدي، حين كنت في مكة دعوت الله بصدق أن يعيدني إلى مصر.

– اللي صبّرك خمسة عشر عاماً يصبرك شهوراً قليلة.

في ربيع العام 1988 تلوح بوادر انتهاء الحرب العراقية–الإيرانية، حرب لا ناقة ولا جمل لأحد فيها من الطرفين. كان العراق مقتولاً بأسعار البترول المتدهورة وباب الحرب المفتوح، ولكن نية الحكومة تتجه آنذاك إلى بدء تنمية ولو كانت شكلية لتخرس أفواه آلاف المعارضين وهم في ازدياد. جينات أحمد الشيخ المهاجرة دفعت مصطفى إلى بيع مكتبه، أخبر أصدقاءه أنه ذاهب إلى أستراليا. عقود كثيرة كان قد تلقاها من صديق له في بغداد ليعملا سوياً وبسرية في إدارة

هذه العقود لشركات ومرافق حكومية هناك، لم يكن يعلم أن موافقته على ألاعيب كثيرة سوف تغرقه في بحر ملايين بدلاً من آلاف القضايا المتعبة في مصر.

ودعه مطار القاهرة واحتضنه مطار بغداد، ولم يخب ما توقعه من أحلام الثراء. لم يكد ينتهي عقد الثمانينيات حتى أصبح من أكبر محامي العراق، كان يقول إنه سيكمل خمس سنوات ثم يعود إلى مصر ليتزوج ويقضي بقية حياته بعيداً عن المشاكل التي أوغل نفسه في وحلها يوماً بعد يوم. تورط كثيراً في صفقات مشبوهة تحت غطاء الأقوياء، وكانت ذهنية المصري أنجع الوسائل لتمرير مثل هذه الصفقات خفية عن أعين القانون الدولي. تجرأ يوماً ورتب عملية شراء أسلحة روسية متطورة من سمسار أمريكي ذي أصول شرق أوروبية كان مشهوراً على مستوى تهريب الأسلحة للدول المتمردة والخارجة عن القانون. قوي إلى درجة احترافية متهورة، مدعوم على مستوى شبه رسمي، قتل أثناء عملية بيع أسلحة للمتمردين في رواندا منتصف التسعينيات. حين تمت الصفقة وبالسرعة المطلوبة المدهشة لمع نجم مصطفى، وانضم برغبة منه أو رغماً عنه إلى فرقة الستار الخفي، كان ضمن البطانة التي تحيك خريطة العراق وتحاك حولها الأسرار العظيمة. حتى قبيل غزو الكويت كان يعتقد أنه في المسار الصحيح ويحلم كل يوم بالعودة إلى مصر. سيشتري قصراً كان قد رآه في مدينة 6 أكتوبر وسيفتتح مشاريع كثيرة حول النيل لتغسل

مياهه أموال الفرات وسيتزوج كل سنة من فتاة تصغر عن الأخرى بعام وسيكون متوكل عصره، ولِمَ لا؟ سوف يعيش مرة واحدة ولن تتكرر حياته، سيعود إلى بغداد من حين إلى آخر فقد أسس شركة مقاولات، ولكنه بالطبع قال سوف ولم يقل إنشاء الله، يعتقد ذلك.

حين انسحبت القوات العراقية بداية العام 1991 من الكويت كانت محاولات مصطفى المتلاحقة للخروج من العراق تبوء بالفشل. نجا بأعجوبة في ليلة شتاء من قصف الصواريخ الأميركية، شتاء قارص ملتهب دفعه للحصول على مطعم يدفئ جعبته بطعام ساخن من شارع الرشيد. حين عاد بحث عن منزله فلم يجده إلا كومة مسلحة وأشلاء أنقاض. اشتط عقله فهو لم يكن يتخيل أن يحنو عليه القدر بنجاة كهذه وقرر بعدها الرحيل بأي شكل، ولكنه فشل في الهرب وأودع السجن كآلاف غيره من الخونة والعملاء والجبناء. رأى سجناء من الكويت ومصر وسوريا والسعودية والعراق في سجن واحد كبير، هو العراق، وآخر يضيق بآلاف يتوافدون من الجنوب والشمال ولا أحد يقدر أن يشتري، ولو بأموال وعلى غير العادة، رحيله. ارتباك تلك الفترة، ثورات العراقيين ونداءات المعارضين ونزعات الأكراد للاستقلال، ونزيف السقوط والهزيمة والانسحاب والعزل والسكوت جعل من العراق وحشاً يئن ألماً متأثراً بجراحه. من سُجن تلك الفترة

وبأي سبب لم يكتب له الخروج من السجون المتكاثرة إلا محمولاً على الأكتاف، حتى آلاف المصريين الذين طردوا أيام الغزو لم يكن من ضمنهم؛ قدره البائس وتاريخ مطعم بالأسرار كانا السبب الأقوى لمكوثه في السجن. نسي مصطفى لا جرم ولا محاكمة، أمل الخروج يبادره كل صباح، معجزة العودة نسيها أو تناساها بمرور الصباحات. اثنا عشر عاماً فتح بعدها ضابط السجن الأبواب. كان قد نزع بذلته الخضراء وأخفاها بنياشينها ورتبها وفخامتها، ظهر لهم إنساناً آخر، قال بلكنة المهزوم الخائف وهو الذي بكى لأول مرة: "العراق يعتذر عن جرائم النظام السابق ولكننا الآن نريد كل شريف منكم أن يسهم معنا ببناء عراق جديد حرّ، الأميركان وعدونا أن يجعلوا من العراق واحة الأمن والديموقراطية، آمل ذلك وأعتذر مرة أخرى"..

سلمه مسؤول آخر "ساعة سيتزن، بذلة كاملة، مجموعة مفاتيح تتدلى من ميدالية تحمل علم مصر، دفتر أرقام، آلاف الدنانير التي لا تساوي حتى قيمة طباعتها الآن، "كروت" شخصية، وورقة تحمل عنوان شخص كان يعمل على الحدود الأردنية ورقم هاتفه. صورة عقد بناء لمجموعة فيلات باذخة كان قد وقعه بتاريخ يناير 1991".

- الست قالت "إنما للصبر حدود". ابتلعت الصبر كؤوساً لمجرد تفكيري بلوغ الحدود فقط، وأنت تقول الصبر

لي أنا؟ أنت أخبرتني أن أربعة أيام غيرت فيك حدوداً لأشياء كثيرة وهي أربعة فقط! فما بالك باثني عشر عاماً. قال صبر قال!

– أتوقع أنك بعد هذه السنين افتقدت خريطة نفسك. لأكن أكثر صراحة أنني حين لقيتك أول مرة في الفندق لم يأخذني عقلي بعيداً عن وصفك إنساناً عادياً بمعنى الكلمة، لكنك الآن تبهرني بأسطورتك. مصري من أصول فلسطينية يسجن في العراق وهو أمامي الآن في مقهى في جدة، أي فزورة أنت؟

حين خرج من السجن، انطلق إلى بيته الجديد الذي استأجره بعدما أزيلت آثار منزله المقصوف، طرق الباب، أجابه رجل في الأربعين، صرخ في وجهه، قال مرتبكاً 'هسا الأميركان عند بابنا'. استفسر عن أغراضه ومنزله فتوسعت مقلتا الساكن من قصته، هل يعقل أن يحتفظ أحد بأغراض مستأجر لاثني عشر عاماً؟ شعر مصطفى أن خيوط الحقيقة تبعثرت، كل شيء يثبت ماضيه تمزق. لم يتغير حال بغداد منذ الغزو الكويتي، طرق قليلة عبدت، منشآت ولدت وارتفعت، ولكن المعالم الخالدة البائسة لا تزال قائمة. كان الفقر والخوف من المجهول هو الذي يغذي أحاديث البغداديين حينها. تردد على أماكن كثيرة يعرفها في بغداد، تعاطف معه بعضهم ولكنه لم يطق شفقتهم. سأل عن أصدقاء الكفاح الذين كان يردد أسماءهم ضاحكاً ذات يوم. كثير منهم

كان قد فقد أثره وآخرون اقتنصتهم ألاعيب الخيانة للزعيم العظيم والأمة المزعومة، من بقي منهم ظاهراً خبأه الجبن والخوف. وجوه جديدة تظهر على السطح العراقي لم يكن الأصدقاء من ضمنها. اعتاد حياة التشرد ومواجهة رصاص الموت في أي لحظة، رصاص كان قد أسهم في جلبه بصفقاته المشبوهة. ذكريات السجن المرعبة أخذت نصف تفكيره، فقد الكثير من نفسه وتهاوى سقف المبادئ لديه، وتشوه مفهوم الحياة فيه، فكرة العودة بأي ثمن تدفعه للعمل كيفما كان. لم تكن وثائق المحاماة أو حتى وثائقه الشخصية لديه، عمل صياداً للسمك ثم في مطعم للمسكوف(*) العراقي، قرأ إعلاناً للعمل مترجماً، لم يتردد وذهب من وقته إلى مقر قوات التحالف، أخبروه أنه سيذهب مع فرقة من المارينز إلى الرمادي كانت الرمادي عاصية متمردة وما زالت بطبع أهلها السنّة ومجتمعها القبلي، بؤرة القلق للقوات الأميركية والأمن العراقي، حاضنة للمجاهدين العرب والقاعدة، كل ذلك لم يمنع مصطفى من إغراء ضباط الجيش الأميركي، 3000 دولار شهرياً، ثروة في بلد مضطرب. أعمال الترجمة يعتبرها العراقيون نوعاً من الخيانة، وتهديداً في كل لحظة بموت بارد فوضوي. رحل معهم، قال في نفسه: "سوف أعمل حتى أكتفي من تجميع أموال العودة"،

(*) المسكوف: أكلة السمك المشوي على الطريقة العراقية.

تأوه "وحشتيني يا مصر"، طفولة الحب، حب الوطن. لم يكد ينقضي شهره الثاني حتى بدأ يلملم بقايا جسد وإنسان لا ينتمي إلى القديم مصطفى الذي مات في بغداد. لم يكن ذلك المحامي المشرق بل حثالة مترجم خائن بأعين الكثيرين حوله، ينقل ما تتفوه به شفاه المناوئين والإرهابيين والمناصرين في الخفاء وفي العلن بمن فيهم الأبرياء والمجرمون. قبيل مغادرته الرمادي بأيام أحضرت فرقة من الجنود بعض هؤلاء بثيابهم الرثة ووجوههم المكتئبة الكئيبة، كان من عادة الضباط اختيار المترجمين بالنظر لجرائم المقبوض عليهم. كان أفراد هذه المجموعة متعبين حقاً، لم تستغرق مقاومتهم سويعات ذلك الصباح، ولكن جرأتهم المدفوعة بالشهادة حصدت بعض أفراد الفرقة بين قتلى وجرحى. لم يلفت انتباهه سوى ذلك الخليجي ويعتقد أنه من السعودية بذقنه المطلقة للتو، وبدا من شحوب وجهه وذبول عينيه أنه قضى ليلته ساهراً. لم تكن محاولات التحقيق سوى لاستجلاب عناصر معاونين أو متعاونين، حتى الأحاديث التي اعتاد أن يترجمها عن ديموقراطية أميركية قادمة لم تلقَ أذناً مصغية لدى أغلب المقبوض عليهم. كان يختصر كلمات كثيرة من الترجمة حين يرى تململهم ويقول في نفسه "دنتو عندكم فلوس عاوزين أيه هنا؟" تمنى لو سأل ذلك الشاب المندفع حينها هذا السؤال. كان من عادة المحققين أن يتركوا المقبوض عليهم مع المترجم لدقائق بعد التحقيق وكان

الغرض من ذلك أن تكون للضحايا فرصة للتراجع أثناء الحديث مع المترجمين الودودين. صامت لم يتكلم هذا الخليجي، وقبيل انقضاء هذه الدقائق وضع في يد مصطفى ورقة مطوية بعناية وآثار أصابع متربة تلفها. وهج من الداخل دفع مصطفى إلى أن يخفي هذه الورقة في جيب قميصه. كان يعلم أنه حين تلقى لورقة ألقى معها عنقه بين يدي مجرم أو إرهابي أو شخص ما بلا أسباب. تهور أو جنون أو انتحار أو أشياء كهذه كاد حلم العودة أن يموت وقتها لو نطق، لم تتوقف دقات قلب مصطفى عن الخفقان كثيراً حتى توجهت شاحنة إلى الشرق، إلى بغداد إلى سجن أبو غريب تحمل في طياتها شاب من الرياض في مقتبل العمر كزهرة لم يحن قطافها بعد، وأخرى توجهت إلى الغرب إلى دمشق، لا يدري إلى أين بالتحديد. شجرة ترفس الأرض بجذورها لتصل إلى ماء أصولها.

خبر عاجل: عملية إرهابية قامت بها مجموعة من مسلحي القاعدة بهجوم على عدد من الشاحنات والمركبات الأميركية في الطريق الواصل بين الرمادي وبغداد صباح اليوم، وسوف نوافيكم بالمستجدات حالما تردنا...

"للرجل العظيم قلبان: قلب يتألم وقلب يتأمل".

جبران خليل جبران

22

فكرة واحدة ظلت تراوح بين عظم الفكر وقشور التصرفات. لم يكن اللواء المتقاعد والمستشار حالياً ليخل بوصية صديقه، اعتنى بالزوجة وخالد في الرياض، لم تزل زياراته المتكررة طوال السنوات ترسخ ذنب نصح الصديق، حين استنشق رائحة متطرفة يلوكها أقرب أصدقائه، لم ينزع لقمة الموت منه حتى ابتلعها، لم توجع اللقمة إلا منصور، وأرملة تتنازع بين الأزواج الأقارب ليحموا ثروة الشرف والمال، وطفل يتيم يدعى فيصل في إحدى مدارس الرياض، مصانع الرجال!

حين عمت أيديولوجيا الإسلام المتصاعد بشدة البلد، كممت الصحوة أفواه أجيال الثمانينيات، وقذف الاختلاف من شاهق وكتب في الصحيفة انتحار. أصبح رعاة الأغنام في قرى حفر الباطن يشبهون صيادي السمك في فرسان، نفس الصور ونفس الأفكار. لم تكن نبتة كفيصل يمكن أن تسخر لها أجواء أفضل وماء يروي في بيت جده ومع أخواله حتى ظهر حمدان واهتم به اهتمام العيش. زوج أمه حمدان، شاب يطارح الثلاثين من عمره لم يكن لقب زوج الأم سوى أنه "رجال فيه خير"، هكذا قالها عميد الأسرة وهز الأخوال، وهم على شاكلة حمدان، العمائم. "حمل وانزاح"، "المرأة ما لها إلا زوج يحفظها أو قبر يحتضنها"، جمل نقشت في عقول الحاضرين ليلتها. تمم الأب مراسيم الزواج، واستبشرت بصلاة ليلة الزفاف هذه، لم يثر فيها جسده المتعري وبسرعة إلا روحاً من الوحشة والخوف. ليلة زفاف تدلى سروال الخير هذا وأقبل ثم تهاوى في دقائق، توقف القلم ومزقت الورقة، وهكذا بدأت حياة أسرة فيصل الجديدة.

زمجر حين دخل. شرر يتطاير في الأنحاء وأرواح شريرة تفسد الأجواء. دفع بجهاز التلفاز بعيداً لتتناثر أجزاءه على الأرض، وصوت يدوي ليوقظ فيصل من قيلولته: "هذا الخبيث ما يدخل بيتي... فاهمة". يسمع ويصمت وتكبر صورة للكفر بلون واحد معتم بكل أطرها. جلس يبحث البركان

العارم والحديث الغاضب الذي تبعه بسؤال الطفولة الدائم، لماذا؟ "التلفاز حرام"، إجابة قريبة مقنعة والأهم أنها قاطعة. يهجر النوم عينيه بعد رعب التلفاز هنا ولكن تسللاً خفياً يجذب خده الصغير نحو الوسادة فيغط في نوم لذيذ، ويتمادى النوم لينهض هلعاً نحو الخارج. تتسارع خطواته لعله يلحق بالجماعة الأولى لصلاة العصر، يقف مرتجفاً في الجماعة الثانية فقد قطع عليه النوم جنان الجماعة الأولى وترك له جحيم الجماعة الثانية. استرق السمع للحظات وهو واقف يصلي عله يسمع انشغال معلم التحفيظ بتسبيح أو صلاة، أحرقته نظرة المعلم النافذة وأيقن شدة العقاب. يكمل حلقة الدرس لتكتمل الدائرة حول المعلم ويد المعلم تشير نحوه ونحو بعض من المتأخرين، تتكسر العصا على الأيادي والأرجل إن تمردت اليد وانسحبت، وكلمات لاعنة تتقاذف لتقول إن يد الحق التي تضرب بقوة سوف تعدل الاعوجاج. يعود مرة أخرى مع المجموعة العاصية لتمسك اليد المحمرة صفحات القرآن ولتراجع العين الحائرة الآيات المقررة، وليسرح الخيال في التناقض بين ما يحفظ وما يرى. لن يخطئ ولن يتلعثم، إن فعل فإن أسناناً سوف تقرض أذنه بشدة وقرف. يتذكر كثيراً حركة المعلم حينها، يقول له، حين تتلعثم الحروف بين الشفاه، وهو يمد الكلمة هازئاً "تعال أبوسك"، تمتزج خيوط اللعاب بالأذن الصغيرة، فيشتد القرص حين يتوقف ويخف حال الانطلاق في القراءة. يصلي

المغرب وقد تجمدت الأعين بين الدفتين والأجساد لتشكل أقواس الحلقات لساعات.

حين تسرد الأم حديث الذكريات لابنها المتسائل تنهره بشدة قائلة له إن أباه توفي في حادث سيارة وهو رضيع وتطيل الصمت وتتسرب من لحظات الخوف تلك وتسرد حكايات أخرى، كانت تخاف على ابنها من نفس المصير وتخاف أن تجعل من الفخر قيمة في دفتر حياته. ولكن مع الأيام هبت عاصفة الثلج وكبرت كراتها وسقط الجليد وعلم أن أباه لم تدهسه السيارة الكبيرة جداً ولكنه قضى حين لعب لعبة الكبار وخسر حياته، لحظتها شعر بروح الفخر تنفخ جعبتها. فسر نظرات الإعجاب والشفقة والكره أحياناً من أشخاص حوله وهو الطفل الأبله معهم، وفسر له، أيضاً، أمر زيارات رجل شارف على الستين كالطود يسأل عنه ويضمه في حنان غامض، لم يكن منصور ليخبئ مظاهر الأبوة لابن صديقه. حين تزوجت حمدان لم يعد له مجال أن يحدثها، وهي لم تكن في باله كزوجة، ولو كان ذلك لوهب فيصل مستقبلاً أفضل. في زيارته الأولى بعد الزواج كان حمدان يستقبله في مجلس الضيوف، ويرحب به بكلماته الكريهة، والعين تسلط دائرتها حول كعب الرجل، فالثوب مقياس الالتزام، وستمترات من قماش تكفر الرجل أو تجعله ملاكاً.

- الله يجزاك يا منصور لماذا أنت مسبل ثوبك؟

"منصور لم يبقَ من العمر أكثر مما مضى أطلق لحيتك وعد لله بالتوبة النصوح".

- يبتسم منصور لمضيفه ويرد بدبلوماسية: "الله يجزاك خير يا شيخ حمدان، الواحد فينا ما يتوب حتى يشوف الموت بعينه، طبيعة ابن آدم هكذا".

- يرد وهو ينظر بتعالٍ: "نعيب زماننا والعيب فينا".

- يبتسم منصور مرة أخرى ويقول في نفسه "أي حوار عقيم هذا"، حسناً أنا لم أتكبد السفر من جدة كي نتناقش في مواضيع أهدرت ضعف عمرك أتأمل دوائر الأيام حولها. أخي حمدان أنت تعرف مدى تعلقي بفيصل بعد أن أوصاني والده عليه، أرجوك أن تعتبر فيصل ابناً لك وهو في الحقيقة ابنك، أنت قريب للمرحوم وسند وظهر للعائلة، وسلم لي على أم فيصل، إذا أردت أي شيء لا يردك إلا لسانك.

- لم يكد منصور يكمل جملته الأخيرة حتى تنفخت الأوداج وانهمرت الكلمات حمماً كالمطر: "أنت ما تستحي؟ تسلم على زوجتي أمامي؟ يا قليل الأدب! ألأنك في الوزارة تعتقد أني لن أرد إهانتك؟ ما رأيك أحضرها لك تسلم عليها بنفسك؟ والله لولا كبر سنك لجعلتك تلعق من دمك. اطلع فارق! وبلا قصة وبلا شراكة وبلا خرابيط. ومن الغد سوف أبدأ في إجراءات الفصل لشراكتنا معك. أنت لا تستحق أن يتعب الإنسان نفسه للحديث معك، يا شايب يا عايب! لو أنا محلك أذهب أصلي وأصوم. أنت انتهيت رجل في الدنيا

والأخرى في القبر. والله شي يقهر، تأتي بيتي وتسلم على زوجتي؟ آه اطلع برا"!

ينظر إلى فيصل وهو مقبل ذلك المساء من المسجد ويضمه وقد قارب عامه الثاني عشر، ملامح السمار اللذيذ تكسو وجهه البريء، يخبره أنه لن ينقطع عن زياراته وقد أفرحه كثيراً حين تحدث فيصل؛ غشاوة أبيه في سلك الاتجاه الحقيقي، لم تكن غشاوة طريق ولكنها غشاوة اختيار. حينها علم منصور أن عقل الطفل وإن كان قد تحرر من عقد الأقرباء حوله إلا أن وحل حمدان حضر من بعيد ليبتلعه. أفرط في المبالغة حينها وطوال طريق العودة وهو يفكر، هل يمكن أن يعيد التاريخ صفعته إليه مرة أخرى؟ لا سوف يكبر ولسوف يتحقق الحلم. سيجعل منه أكبر مهندس يبني الوطن. لا، طبيباً ليطبب جروح الناس وآلامهم، لا، صيدلياً يصنع علاجاً ليسكن أنين المرضى وأوجاعهم، لا، سيجعله أديباً مفكراً ينبش بقلمه ذخائر الكتب ويعزف طعم النجاح، المهم أن يجعله يفخر بأبيه وأن يكون أبوه فخوراً تحت التراب به، ربما في العمر بقية عله يحقق الأمل.

ما زالت ملحمة حمدان تظلل فيصل وتحميه من نفسه، فلطالما تحدث حمدان عن فساد عظيم وآخر أكثر فساداً وانحلالاً مقبلاً. كان يسخر كل مناسبة ليؤكد نظرية التشاؤم تلك؛ حين بدأت قضية البوسنة والهرسك بالاشتعال في تسعينيات القرن الماضي كان من أوائل المتحمسين لها. هتف

مع المشتعلين وقتذاك واستولى على أموال كثيرة من الشركة بعد أن أغرى أم فيصل بثواب التبرع للحملة الشعبية المدارة من قبل الحكومة، الأموال التي ترصد في حسابه لن تدثر بقايا المسلمين المقهورين من البرد القارص على حد قوله، لم يكن بطبيعة الخبث فيه ليبخل بثروة زوجته وابنها. ازدادت أرباح الشركة باطراد رغم الكساد وتدهور الأسعار والأزمات ولن يقوى على الأزمات إلا بعض المتسلقين على شاكلته، فازداد الكرش بروزاً مع الأيام ولم تخنه اللحية فتفرعت في كل الجهات. سواك يطوف بين الأسنان ورائحة لعود رخيص يشوب ثيابه، وما أقرب اليوم من البارحة. ولكن أي سواك مخلص في الماضي وأي لحى تطاولت لتكسب أصحابها عمقاً وإخلاصاً وشرفاً. شوهت الفطرة بالطفرة مع ازدياد علم الناس وفطنتهم زاد الدهاء والخبث، وأصبح الناس يلتمسون الربح ببيع القيم.

في المدرسة لم يكن الحال أفضل، حمدان بوجوه أخرى، حين تأتي حصة الجغرافيا يخبرهم المعلم - خارجاً عن النص - عن قصة موسى وفرعون؛ قال له أحد التلامذة: وكيف انفجر البحر ثم عاد إلى ما كان عليه؟ لم تكن الإجابات الشفهية لتقنع هذا الطالب وغليل معلمه لم يشف إلا بكف لولبي مفاجئ؛ طارت معه نظارته الصغيرة ذات الإطار الأسود وطارت معه هموم أخرى ومستقبل أمة كان يحكى عنه، ألم أقل لك أن تترك الجدال، ألا تحترم

معلميك! يدخل معلم التوحيد بصمته المخيف ونظراته الحادة، كوحش ينتظر فرائسه ويشير إلى أحد طلاب الصف الأول بغمزة ذات مغزى، يفهم منها أسمى المغازي، فينطلق الطالب بقراءة ما طاب له من كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب. في مقدمة الكتاب يقول الكاتب إن التوحيد هو حق الله على العبيد، تطفل العقل لصبي وقال، فأين الواجب؟ يبدأ المعلم إجاباته الجميلة ونظراته المتطايرة ونهايات حوار تنتهي إلى الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، تهمش البشرية ويجيبه طالب آخر هو أكثرهم تطرفاً وهو فيصل بقوله هل دراسة كتب الكفار عبادة؟ نحن نتعلم اللغة الإنجليزية والعلوم الطبيعية وكلها علوم كفار هل هذه عبادة؟! يذكر حماس هذا الطالب معلمه بحماسه في سنواته الأولى في كلية أصول الدين في الرياض، ولأول مرة تنفرج أسارير المعلم بصدق ويسمع فيصل من الإطراء ما يجعل الطاووس يفرد طيفه الملون، هو إذن يبحر نحو الأمان والسعادة الأبدية، الأرض والجمهور معه.

حين تخرج من الثانوية لم يكن للرغبة أملاً أن تعيش، رغبة كانت تثيرها الصورة الحالمة لمستقبله إن هو دخل كليات نصحه بها منصور كثيراً حين كان يلقاه بين الفينة والأخرى. لا يعلم لماذا يطمئن إلى كلام منصور، يصدقه كثيراً ويأتي منه الحديث بلسماً على روح فيصل الحائرة الثائرة، لو أتت نفس الأفكار من ثغر آخر لكفر صاحبها

ولكنه هنا ينصاع بسلاسة، ربما تكون ذكريات الأب المجهول التي أتحف بها منصور فيصل عن أبيه هي السبب، ذكريات جميلة تجتمع قطعاً متناثرة غامضة منسية لتشكل صورة الأب في شخصية فيصل. القدوة رغبة ملحة لحياة أي فرد، هي عند فيصل تراوح في تردد بين حمدان ومعلميه ومنصور وإمام المسجد.

"أنا أعرف مصلحتك أكثر منك" قالها حمدان ومحى الرغبات الثلاث من استمارة القبول في الجامعة، وبخط متعرج كتبها ثلاثاً: أصول دين، أصول دين، أصول دين، وثبتت النسبة العالية لفيصل أصول حمدان في نفسه وليدخل الجامعة طالباً في تلك الكلية.

"إذا حاولت السقوط ونجحت! فأيهما فعلت؟.. هل سقطت أم نجحت؟".

جورج كارلن

23

لم يفارق العامل مكانه أمام حجرة تبديل الملابس، احتار الاثنان في الداخل، كان المركز ينعم بالهدوء حتى لتسمع حراك الأنفس، كتما نفسيهما وتوقف الجسدان عن الحركة وحدقت الأعين وتفتحت ورود الوجوم. للحظات رأى بسام نفسه يقبض عليه رجال الهيئة، شهور يغرد لجدران السجن، ربما ينسى بقية عمره هناك بلا محاكمة حتى يمل حياته المهانة من كل شيء ومن أي شخص، يصرخ ويضرب عن الطعام حتى يساق أمام القاضي، يتلو عليه آيات تحريم اللواط، يسكب أقذع الكلمات تحت مسمى التوبيخ، يختم

الخطبة "أتغير فطرة الخالق يا عدو الله" ويصدر الحكم. سيقرأ والداه نعيه الفضائحي في الجرائد، وستبكي أخته سارة وتخبر أهله جرمهم في الإهمال، نعم هذا ما يشفي غليله.

لم يكن ليكمل تخيلاته تلك التي ذهبت به بعيداً حتى شعر بقبلة ساخنة تنطبع على شفتيه، "زال الخطر" همس ضاحكاً وتسلل وترك بسام وحيداً في الغرفة، نظر إلى الملابس، "ما فائدتك، وسيلة للستر أم للعري أنت؟" لم تجبه الملابس الصامتة، تلفت وتسلل هو الآخر ولم يتح من ذلك المركز الستر.

يستوي على مقاعد أحد المقاهي الفخمة شمال جدة، يحييه العامل ويعد وجبته ومشروبه المنضل، نفس المقعد يحجزه في مقهى الإنترنت، تنفتح ساحات وغرف عالمه الخفي، يحب التجديد في كل لقاء، وتظهر فريسة في الفضاء يحادثها فيخلط الجد بالمداعبة الحانية، العملية مهمة ليصل إلى مبتغاة في أقصر الأوقات. تركت فيه سنون الضياع تلك ملكة الحدس، يشتم رائحة الجاد والصادق ويلقي بالآفاقين وراء ظهره، علمته الأساليب الملتوية وهو الذي تعود أن يلتوي أكثر ليسكت أصحابها. يميل إلى الصرامة في بداية المحادثة وتتضاءل هذه الحدة كلما طالت فترة الحديث وكثيراً ما نجحت أساليبه هذه. خريطة البريد الإلكتروني تحوي طلاسم لن يعرفها إلا هو، يسجل معلومات كل شخص في

دفتر صغير، ويحتفظ بسجل آخر لكل من كانت له مغامرة تحت الظلام.

لا يزال نواف يهدي شاشة جوال بسام بريقه واهتزازه، والأخير يتجاهل كل هذا لأنه لا يتحمس للقاء شخص ذي سوابق معه مرة أخرى ثم يجيب بعد أن يتأكد أن شرارة الرغبة لن تصمت. يخبره نواف بموعد انطلاق المركب السياحي بعد منتصف الليل ويتمنى أن يغلف سكون الليل حباً وليداً متخيلاً في نظره بعيداً عن أعين الناس، "حسناً مسافة الطريق" قطع بسام حديث نواف الحلم. حين وصوله لم تفاجئه عشرات الوجوه الكاسية والعارية، المألوفة والمربكة، الألوان الزاهية المنحطة وبعض الثياب البيضاء المتعجرفة وأناس بين الفريقين ينظرون وينتظرون، ربما يحن السواد الفاتن على أحد هذه الوجوه فتخبئه تحت العباءة، الكل ينشد وصال الشاطئ الآخر. لم يطل وقوفه حتى أطل نواف بملامحه المميزة بالقرب من بوابة المرسى، يحيي بساماً على استحياء ويبادله ملامسة الخدود ويشده بيده، ثم يمرق بين دفتي البوابة وتبتلعه أروقة المرسى بين ضحكات وآهات. أدخنة تتصاعد وعمال يخدمون ويشعلون جمراً لا ينطفئ، وحجاب يسقط وآخر يفرج عن الأسارير وعن أشياء أخرى. هناك لا أحد يجرؤ إلا على الدهشة، وإن كانت أجواء حميمة كهذه معتادة لدى بسام، وأخيراً يصلان إلى إحدى

الغرف المطلة على شرم أبحر الساحر. ساحل يمتد كبريق سيف في دياجير ليل جدة، آلاف السهرات تخلد على ضفتي الشرم، خصوصية الأماكن تجعل من المكان إرهاصة لمغامرات نهايات الأسبوع وصباحات الأعياد.

- أطلب لك شي؟

- معسل تفاحتين، براد شاي منعنش.

- لا المعسل سوف يشوه شفتيك هاتين "يرسل قبلة في الهواء"، أنا قصدي شيء تشربه، حسناً شاي ممتاز.

- بدأنا نتآمر منذ الآن، طيب اصبر قليلاً حتى "أدوب في دباديك" ويطلق بسام ضحكته المدوية.

وحي الحياء يبدو وابتسامة الخجل ارتسمت وهي التي طالما عنونت ملامحه، ولكن لم يكن الصمت سيد الموقف حتى تسأل عن عباءة تكسر حمم العاطفة لتشاركهن الجلسة، أو حجاب ساهر يلتف بخفة فوق الرؤوس كتلك الرؤوس اليانعة في الخارج.

- "أنا في حمية الكبير".

- وأي كبير هنا؟

لم يكن الكبير هذا سوى رجل "واصل"، وكم تخيف كلمة كهذه، اعتاد أن يسهر في مناسبات مفتعلة أو حتى حقيقية في إحدى شاليهات جدة وكان المرسى من ضمنها. لم تطل الأحضان حتى انقطعت وأعلن عن إطلاق المركب، توافد رواد المرسى على اختيار أبعد الأماكن وأكثرها ظلاماً

ليمارسوا حديث الحب المحرم، رجال وفتيات، ورجال جماعات، وتماثيل من أشباه الجنسين تتلفت بخوف على شهوة أو حب لا يكاد أحد أن يميز.

الجينات العربية وما تنتجه من عقول قد لا تغامر في الصراحة وخوض غمار حرب الصدق والشفافية، وما أكثر ما ينفي العرب وما أكذب ما ينفون، ونحن أصول العرب في السعودية لسنا بعيدين عن مبادئ كهذه، وحقيقة مرة أن تكون أصنام المثلية شاهقة أمامنا ونتحاشى الخوض فيها، حتى إننا لا نتخيل مجرد التخيل أن يكون للإعجاب والميل ومن ثم الحب والعشق بين الجنس الواحد أي تأييد أو حتى شفقة لهذه الطبيعة أو حتى حيادية في موضوع كهذا، ولكننا كثيراً ممن نرى يخطبون بما تجود ألسنتهم ليعززوا موجة الاستنكار هذه لتصبح سوراً عظيماً نعيش خلفه. حين تسلط الأضواء على أسباب مجد العربي في موجات العصر العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية يجد منبر الشعر يؤدب مجلس الخليفة، حراً أبياً صريحاً والأهم أنه ليس متناقضاً:

"وعاذلة تلوم على اصطفائي

غلاماً واضحا مثل المهاة

قالت قد حرمت ولم توفق

لطيب هوى ووصل الغانيات

فقلت لها جهلت فليس مثلي

يخادع نفسه بالترهات

الختار البحور وعلى البراري

وحيتاناً على ظبي الفلاة؟

دعيني لا تلوميني فإني

على ما تكرهين إلى الممات

بذا أوصى كتاب الله فينا

بتفضيل البنين على البنات*.

أبو نواس

نصوص كهذه محرمة لأنها تخدش الذوق العام المتخيل، تستبدل كثيراً بأشعار تمجد سفهاء كثراً حولنا وتعتني بأمجاد لا حقيقة لها ولن نرى القيمة الأولى وهي لسان الحال في كثير من الأشعار. أبيات تندفع إلا مع طبول القبيلة وقرع أجراس العصبية، ويخل الأدب أن يوغل سيوفه نحو عيب الحرام وحرمة العيب، وهكذا يظل الشعر كمنتج ثقافي ذو دلالات والمثلية كحراك اجتماعي حر بعض الشيء متنافرين ولكن اجتماعهما رمز على اجتماع الأدب والاختلاف وهما قليلاً ما يلتقيان في مجتمعات الاتجاه الواحد.

تجاوز الخمسين وإن لم يطرق باب الستين. لا يعلم إن كان تقديره صحيحاً. كان واقفاً يتحدث بلباسه الأنيق، بنطلون من القطن الرمادي المنسدل في خفة وقميص يميل إلى الأزرق الفاتح يضم أعلى الجسد في وسامة راقية وساعة تلتف في فحش حول معصمه الأيمن. أما الشعر المصبوغ

بالسواد الصارخ فكان يصطف كمجموعة عساكر في احتفال تخرج. كان يتحدث في ثقة مع إحدى الفتيات وهي متعلقة بأستار عينيه، كاريزما طاغية وإن كانت تجاعيد الزمن تجعل الملامح عن قرب أكبر وأوحش، هو ذا المعلم الكبير، الواصل ذو الهيبة المستمدة من الغموض. حين ركبا المركب أقبل نواف ليتحدث قليلاً إليه، وحين اختلى ببسام أشار نحو الواصل وقال هذا منصور، مسؤول كبير في الحكومة تعرفت إليه بمرور الأيام، إنه قمة في الأخلاق، "لو في منه عشرة كان البلد في أحسن حال" قالها نواف وهو ينظر بفخر نحو منصور. يبدي بسام علامات الاستغراب، لم يصدف أن رأى منصوراً هذا بالرغم من تردده على الشرم والمرسى كثيراً. "تايتنك" حركة العشاق المعتادة على المركب، حركة يختلي فيها الاثنان في حالة مستوحاة من فيلم سفينة التايتنك الشهيرة، فيتهامسان ويتحاوران ويتعاتبان ثم يشتد العتاب ويعتلي الفراق ويتقبلان بظهريهما وفجأة "يطيح الحطب" وتسمع من بعيد صوت اصطكاك الحنان يملأ الشرم الحالم بقبلات الفجر.

حين انتهت رحلة المركب عاد بسام إلى المرسى وحانت لحظة الفراق ونواف ما زال يداعب تحت خط الاستواء، "لا تفضحنا" قالها بسام وهو يودع نواف. استوى على مقعد السيارة وهو يفكر في غموض هذا، منصور كاد أن ينسى اسمه، هل كانت له قصته مع نواف؟ هل مارس معه؟ هل

كل ما قيل عن هيبة رسمية تثار حوله تخول له صلاحيات كهذه؟ ألديه زوجة؟ بالتأكيد. وأبناء، ممكن. إنه قصة غامضة فعلاً وتزداد غموضاً حين يضم نوافاً إلى حميته، لماذا؟ هل هي خيوط يربطها حول نواف وأمثاله، وإذا كان يمثل الأمن بهيبته فلماذا كل هذا التناقض؟ كاد التفكير أن يفقده روعة ليلته الحالمة كعادته ليلة كل جمعة. حين اقترب من وسط جدة اتصل بشخص كان قد ضرب له موعداً يلقاه فيه، وصف له المقهى وذهب بسام يتبع الوصف، توقف أمام المقهى واتصل، وما هي سوى لحظات حتى ظهر فتى يقارب الرابعة والعشرين تخطو قدماه برشاقة واثقة نحو سيارة بسام.

- آهلين، أنت بسام؟

- آهلين، إذا أعجبك الوضع تفضل، وإذا لا، كل واحد يذهب إلى حال سبيله.

- أكيد أعجبتني، حسناً إلحق بي.

دائم الترحال يعمل مضيفاً في شركة طيران، ومتجدد الأفكار يجد لمثليته في رحلاته ما يسد رمق جسده الرشيق. حين قلبت نظرات ذوق الأسرة في ترتيب أثاث المنزل حارت دمعة لم تثر منذ فترة. استأذن في أن يأخذ دشاً سريعاً ليتجدد نشاطه، وتسلى بسام بالتجول في بيت من أسماه في سجله الأسود "خطوط"! حين اقترب من الحمام سمعه يغني بفرح، ابتسم واستمر بالتجوال. فتح غرفة مقفلة ونظر في الظلام، ثم أغلق الباب وذهب إلى غرفة بجوارها، أشعل الأنوار ونظر

إلى ورقة معلقة، إنها رسالة معلقة على الحائط مكتوبة بخط اليد تحيط بها زخرفة هادئة جميلة.

"أبي العزيز... إلى من تعب حياته حتى تستقيم حياتنا

أبي ومن حقي أن أفخر بأبوتك وكل فتاة بأبيها معجبة

أبي لطالما انتزعت اللقمة من فيك لتلقمنا أخلاقنا الحميدة

أبي أشكرك من الأعماق على احتفالك بي وبتخرجي في الجامعة

أبي هذه أنا ابنتك عزيزة تكتب لك كلمات من القلب إلى القلب".

انتزع الورقة ووضعها في جيبه، لم تمنع كلمات حانية وخجل أن يلوث بيت كهذا، تذكر أخته وراودته أفكار سوداء. لم ينكسر نوران الشهوة حتى ناما معاً، أخمدت الرغبة لديهما في إحدى غرف منزل العائلة الغائبة، وتبادلا القبل حال الخروج، ثم أخبر بساماً أن سمعته على المحك في الحارة ولن يعيد كرة اللقاء مرة أخرى.

"يحسن أن يخسر المرء بعض المعارك وهو يكافح من أجل أحلامه، نذلك أفضل من أن يهزم دون أن يعرف لماذا يكافح".

باولو كويليو

24

الزواج الغلطة، لم يحضر زواج صالح بفاطمة سوى مستور وعائلته وقلة من زملائه في المدرسة، ومعلمه الأثير ومجموعة من أفراد القبيلة على استحياء وما زالت كلمات التهديد والوعيد ووعود القطيعة تجد صداها بعد معركة غلف فيها سقف البيت لوعة الشوق. لم تكن تلك الليلة إلا حلم، أضغاث أحلام تداعب خياله وتملأ حياته. حين يشتهي يتذكر ليلته تلك فتطيب النفس وتقر الحواس. علم بعد سنوات أن أمه كانت تقف خارج المكان تسترق السمع والنظرات، فرحة

ويكاد الحزن أن يفطر القلب، ولكنها حين رأت إشراقه في الظلام فرحت وتوارى الحزن. عادت إلى المنزل ولكنها لن تظهر سعادتها بل ستحارب هذه الزوجة الدخيلة القذرة حتى تعود أدراجها. غيرة الأم وحبها لابنها يجعل منها مخلوقاً غير معروف، تصرفاتها دفعت صالح إلى التفكير جدياً - بعد أن مكث لأشهر في بيت منعزل - بالرحيل إلى أي مكان بعيداً عن مشاكل تتوالد حول حياة رغيدة لا يبتغي أكثر منها. رمى طعم عزمه على الرحيل إلى أمه، فبكت وعنفته وقالت إنه ابن عاق. لا يدري أي قسوة دفعت أمه لتعنيفه إلى هذا الحد، ولا لماذا كان يرى سهام نظرة الكره نحوه تشتد حدة، فضاق به الحال واضطرته قسوة الحياة وفحشها ولحظات الطفرة إلى الرحيل.

تستر السحب القمر المضيء في جمال ليلة الربيع تلك، تستره كأشياء كثيرة تستر الجمال وضياء الأشياء. سواد الليل يغمر النفوس الخائفة بالأمان وخطوات تتلاحق بخفة كخفة سقط المتاع المحمول، صالح وفاطمة يتجهان نحو جلة، هو منفوخ الرأس بعقل يفكر في حال أسرته وحبه وهي منفوخة البطن بثمرة الأسرة والحب. هناك سوف تقل حدة سهام كثيرة، سيخلد إلى فراشه كل ليلة بعيداً عن حكايات التوبيخ لزواجه الواطي، لن يسمع أقذع الكلمات من أخيه معيض، "البعيد عن العين عن القلب أبعد"؛ هذا ما سيخفف عن أمه

حرقتها على ابنها، والزمن كفيل بتغيير كل فرمانات القبيلة الجاهلة تلك، كان يعول آمالاً عظيمة على ذلك.

حين شارفا حارات جدة القديمة ظهيرة ذلك اليوم، لفحت المدينة برطوبتها برد القرية، ولم يثبط الاشمئزاز من أجواء كهذه عزيمة البحث عن مصدر الرزق. استأجر منزله الأول والأخير في البغدادية، ثم ابتاعه بعد سنوات. نجمة هو في سماء الجهل القريبة تلك، فقد سهّل حصوله على الشهادة الابتدائية وفكه للخط الحصول على وظيفة حكومية. حمل ورقة المرسوم بالتعيين، إنه موظف بالمرتبة الثالثة في إحدى الوزارات، وراتب يقارب آلافاً ثلاثة لم يدعه ينام ببساطة، إذ لم يصدق أن يمرر الحظ فرصه المتوالية بلا مقابل.

أزف وقت الإنجاب، وآن للحمل الوديع أن يظهر، سيكون وزراً على نفسه وعاراً يحتمل التجريح والاحتقار. شعرت فاطمة بآلام تراود أسفل الانتفاخ، لم يستمر سكون الليل ويطل فجر اليوم التالي حتى دوت الصرخات، ارتبك صالح ولم يشعر إلا بيده تطرق بشدة على باب جارهم. علمت سمية زوجة الجار أن ولادة جارتها قد حانت، حدثتها لتبدد خوفها وداعبتها علها تخفف ألم الوضع هذا. دقائق مضت في الطريق إلى المستشفى، وصراخها يسمع من خلف الكواليس، بدأت تلعن صالحاً ويوم التقت به ويوم عرفت حبها معه وتهذي راجية الطبيب أن يدعها أو يخمد الألم فيها

ولا تلبث أن تكرر كلماتها إلى الممرضات والطبيب مرة أخرى.

لم يكن يعلم أن رحلة الولادة تستغرق عشر ساعات متوالية، ترنح بين أروقة المستشفى وساحاته، يمرق بين الفينة والأخرى ليختلس لحظات في عيادات الأطباء المزدحمة دوماً، ويسأل عن حال زوجته وابنه أو حتى ابنته هو لا يدري. كلمات الطمأنة المعتادة لا تسكت نداء الخوف، كان يرى وجوم وارتباك الطاقم والطبيب فيزيده ذلك خوفاً وينذفع مطرق الرأس ساهماً، ثم يعود ليسأل ويجد نفس الإجابات المعتادة والمبهمة ولكن بصيغة أعنف ونظرات أقسى، فيحمر خجلاً وينسحب موفور الإهانة ويلوم تلقه وارتباكه الزائد هذا، "لن يحصل إلا كل خير" ثم يتضرع إلى الرب أن لا تنقطع سلسلة حظه الجميل. جلس لأول مرة منذ ساعات، وشعر باندفاع الدم النابض يسري بشلة في جزء من جسده الأسفل. صرير العظام الصامدة والعضلات المشدودة يشارك في تناغم سيمفونية زقزقة البطن الجائع. أخذ يبحر ويبعث عذب التفاؤل عله بذلك يكسر ملح التشاؤم؛ إن أتاه ولد سيسميه ماذا؟ سيسميه خالداً. نعم خالد وجه الخير، نعم ملك الخير؛ سنوات حكمه السبع السمان نقلت الكثيرين من عتبة الخيام والحجرات إلى القصور يطلون من الشرفات، ولو تصاغرت أسباب التسمية، فهو من يعتقد أن له اليد الطولى في توظيفه. في السعودية الحكومة هي الملك والملك هو

الحكومة. وماذا لو كانت بنتاً، حسناً! سيترك التسمية حينها لفاطمة، لقد خففت فكرة التسمية عنه رعب ذلك النهار.

أقبل الطبيب بنظراته الواثقة، وقف أمامه، "أنت السيد صالح أبو ذيب؟" أجابه بحماسة "نعم أنا هو"، "ممكن تتفضل معي للعيادة"، "خير في شي؟" لم يجبه وانطلق مسرعاً ولم يكن في يد صالح سوى اللحاق به.

- زوجتك في حالة خطرة وحرجة، أثناء الولادة تعرضت لنزيف حاد، عملنا جميع إجراءاتنا ولكن كميات الدم لا تزال كبيرة جداً.

نظرات الرجاء نبيحة، ولكنها مرارة الموقف، منذ صغره لم يعهد إلا تكالب الأقدار عليه، ولم يكن حظ الأيام صديقاً ودوداً، تزداد النظرات عمقاً ومغزى، ويبدأ مشروع الألم، وتنطفئ قداسة الفرح. تتسابق الخطوات وتتراجع بكسل، بجبن، بخوف وهو يقترب من غرفة العمليات، ثم يفتح الباب المغلق، ويتناسى تحذيرات الطاقم الطبي. يقبل جبيناً بارداً متجمداً ثم يشتم عبق الجبال، رائحة الريحان، أريج الكادي، ألوان التين، تموج الروابي. يتراءى أمامه الجسد الخطيئة فيضمه وكأنه الصنم، بينما تنهمر الدموع خجلى فيمسحها بيده ويتهاوى كأوراق مبعثرة، يتساقط كتساقط أوراق الشجر، لقد سبق الخريف ربيع العمر، وقتل الموت الحلم.

ابتلع المستشفى فاطمة، ولكن عدالة ما جعلت العدد

لحظة الدخول هو نفسه لحظة الخروج. طفلة وديعة في أحضان رجل محمر العين، حاد النظرات والخطوات، كئيب المظهر في وقت الناس فيه سعداء الطفرة، زاهون وهو رث الثياب.آوى إلى بيته، تخنقه العبرات ويئن من شدة الألم. تتضارب الأفكار في رأسه، هل يعود بطفلته (قطعة اللحم) إلى أمه، علها تغفر له، سوف تموت بين يدي؟ يسأل نفسه مراراً، هل يتجرع شماتة تفوق إحساس الدفء بجوار أمه. لن يصبر على الفشل: على العودة كتلميذ بليد إلى أستاذه المتعجرف، كرامتي أولاً، يقولها ويصر عليها، يدمر الأبناء غرور الآباء، وتعود فكرة الحياة والموت مرة أخرى. ستموت وتلحق بأمها، تطرأ فكرة جديدة، "علها تلحق بمن قتلتها"، يتعوذ من شيطانه الرجيم، يبزق بخجل، يزداد البزاق في كل الاتجاهات، يصرخ بغضب ويلعن يومه الأسود وحظه العاثر وحياته البائسة وروح الشباب المنطفئة ويتم الصغار وثرثرة الأطباء وفكرة الأخطاء ودولة الإهمال. غضب عارم ينتهي بهطول الدموع، دموع ساخنة، تكسب الوجه إجلال الحزن وحكمة التعلم، وروح الأب القادم.

لم تكن بيئة جدة راقية في مجملها، منزل العائلة في حي البغدادية القديم نسبياً، هجرة قاطني الحي الأصليين سخر أفواجاً من العمالة الفقيرة لتستوطن الحي، رغماً عن كل الظروف أينعت ثمرة الحب في بستان الحنان.

كرت الأيام وتعلمت طفلة الأب الجبل والجارة الحانية

معنى الأدب والاستقامة، وروح العيش بالفطرة وفلسفة ابن طفيل حين ترتقي حياة الإنسان إلى صفاء النبوة، كان يسخر جل يومه للعناية بها، إنها عائلة في شخص الأب.

تلهب تساؤلات الأطفال عقول الكبار، فترمي الداء ولا تنسل، بل تقف لتحرق المجيب بنظرات التطلع البريئة. عمق باتجاه إجابة واحدة، إجابة واضحة وحقيقة مدهشة وذكرى مرة:

- بابا فين ماما؟

- بلامبالاة متعمدة يجيب: عند الله؟

- طيب، تستطيع الحضور للمدرسة غداً فقط ثم تعود إلى الله؟!

- انتفت علامات اللامبالاة: ولماذا، ماذا فعلت؟

- يريدون أن يقدموا لي جائزة؟!

- جائزة!

-جائزة الطالبة المثالية!

- من أخبرك بذلك؟

- مديرة المدرسة، وقالت لي أن أحضر أمي معي، أرجوك دعها تأتي معي.

تعلن مديرة المدرسة عن برامج المدرسة في ختام أنشطتها السنوية. صغيرة سمراء تتلهف دوي حروف في قاعة المدرسة، تكرم قدامى المدرسات وتحتفي بالوجوه الشابة، تحسس انطلاقتها القادمة وهي تقف لتنح الكراسي، تكرم

كالعادة بمزيد من البهجة منلوبة الوزارة ومرافقيها، قفص نابض يحيط بقلب عصفور حالم.

- أما الآن.. فجائزة الطالبة المثالية، لا أخفيكم لقد كثرت الترشيحات حتى آخر لحظة. طالبتنا لهذه السنة كانت عنواناً للطالبة النابغة المجتهدة ومثالاً متميزاً للأخلاق والمثل العليا في الأدب والتعامل، وبالرغم من صغر سنها إلا أنها كانت كبيرة في تعاملها سواء مع معلماتها أو مع زميلاتها، ولن أنسى دعمها ومشاركتها بالطبع في الأنشطة المختلفة. أقدم لكم الطالبة المثالية لهذا العام وهي سارة بنت سلطان آل إبراهيم، موقف يلح في الذاكرة، ويعتمد فلسفة حياة.

"تعودنا أن نعيش ونحن نأمل بطقس جيد، وبمحصول وفير، وبقصة غرام لطيفة، نأمل بالثروة أو بالحصول على منصب، ولكنني لا ألاحظ أن أحداً يأمل بأن يزداد ذكاء، ونقول لأنفسنا: عندما يأتي قيصر جديد ستتحسن الأحوال، ولا يأتي، وتزداد الحياة في كل يوم تعقيداً، وتمضي الحياة في اتجاه ما من تلقاء نفسها، أما الناس فيزدادون غباء بصورة ملحوظة، ويصبح عدد متزايد من الناس على هامش الحياة".

أنطون تشيخوف

25

هناك نحو الشمال، يشير دوما عبد الحق، عين تغمز

وراس يهتز. يعود خالد مرة أخرى بعد الموت مندفعاً نحو الحياة، يحصي قبيل العشاء محصول اليوم، يفوق الحصيلة المطلوبة بقليل. ينجه بارتياح نحو الشمال، يقف على استحياء، يتطلع من بعيد وحيداً نحو مركز التسوق الكبير. تردد بالوقوف في رتل سيارات الأجرة الممتد لأمتار المليء بإطلالات شابة تجعل من السيارة وسيلة لنقل التحيات المعطرة. طول مدة الانتظار تجعل من الرتل أكثر إثارة، وحين تصل نقطة الإركاب يبرز الحظ: مجموعة أجانب، عائلة وأطفال، فتيات وطفل في المقدمة، امرأة واحدة، ويشرع كل سائق في عرض قائمة الخدمات الأسطورية بأسلوب مغر.

حسناً! هي إذن حظه اليوم، ممتلئة ولكن البياض يكسب اليد القطعة البارزة رقة الأنثى، واثقة في إغراء، يكسبها الحدس خلف العباءة أواخر العشرين من العمر. يقترب منها قليلاً، تفتح الباب وتستقل سيارة الأجرة، تندفع نبرة الغيظ بعد طول انتظار، تخبره العنوان وتصمت. أي أسلوب يبدأ به ليطرق الباب؟ يتوقع نضوج المرأة، فيصدح محمد عبده بأغنية لتكون مقدمة المسلسل، "ماهقيت إن البراقع يفتنني". خد باسم تحت السواد، تبدأ بإلقاء اهتمام لهذا السائق التعس، هي معبودة الجماهير، هو الفلاح الغلبان، "لين شفت ظبي النفوذ مبرقعاتي"، خد ضاحك تحت السواد، رسائل تحت الهواء، ويسقط البرواز.

- السوق اليوم فاضي!

- انتي عارفة وسط الأسبوع..

- صح!

حميمية الصوت ورقة الجمل وجمال المخارج وعذوبة تتساب بحركات مصطنعة، امرأة في مثل عمرها لا تسخر هذا التغيير إلا لمغزى.

- شكلك جديد على التاكسي؟

- يعني تقريباً.

- باين عليك صابونة جديدة هاها!

تلعثم، لم يعتد جرأة الأنثى، تعودها صامتة مطيعة، تهمس في حديثها، يؤرخ لساعات غضبها، ما أقبح الجرأة في غير موضعها، وما أمرّ الاختلاف في موضعه. تلك الليلة، تذكرها، سلمى، تحس إيهامه، كم هو جميل إحساس القرب وما أروع آلام الذكرى، يتطلع نحو القبح، هل يجيبها؟ يسترجع أساسيات عبد الحق، صورته بلحيته الخفيفة، رائحة التنباك، تأتأة الملوك المميزة، الزبون دوماً محق، يصمت، يكظم عنفوان الرجل، شرقية الجنوبي، وفجأة تهجم الكلمات الارادية.

- عندك وساخة أنظفها؟

- يا وسخ، يا قليل الأدب، يا ولد الشوارع، يا صايع، تفو عليك وعلى أهلك........

سيول لم تنقطع، سيل من أقذر الكلمات، سيل من أحر

الدموع، سيل من الاعتذار، سيل يقترب، ويد تمسح اللموع، وهي تسكب قسوة الحياة بين أحضانه، تخبره عن والدتها، عن الحب المتهاوي، عنها هي، الجسد المطمور في وحل الضياع، عن الحياة بلا حلم، والعيش بلا هدف، في الهامش بلا تعريف، مغبرة على الرف.

- بعد وفاة والدتي، أصبحت وحيدة، "مقطوعة من شجرة" إلى حد ما، وكان حبي الأول على أبواب المدرسة، نسيت أن أخبرك أنني معلمة، معلمة دين! لم يكن أي قسم يقبل بنسبتي سوى قسم الدراسات الإسلامية. حلمت ذات ليلة بزوج وأبناء، أتتني تزف البشرى، زوج ضعف عمري، تحاملت بقانون "الرجل الظل"، تحاملت شهوانية الحيوان، انقضاض الافتراس. وهمجية الفعل، وانتهت رسالتي معه سريعاً، ونفس الخاطبة تزف لي ورقة الطلاق، وتوالى مسيار الحلال فوق صدري حتى أدماه، وتفتق الخصر واعتاد المرور. رأيت الشيب يثور من جديد، ولحى تحلل الموقف، وألسنة تنمق الكلام، وآمالاً تخترق السماء. نفس الوجوه، نفس القذارة، أموال ترمى حول السرير، ذباب حولي يلعقني ويبتعد، وأنا السلعة، وأخيراً أنا السلعة، جارية بأسلوب عصري، جارية تجر إلى السيد بثمن لا تريده. تحول الحلم إلى كابوس، وشك المدينة والقرية يحيط أسلاكه المتسائلة حولي، ينبذ كل شك، ويقلف كل شبهة. أتيت إلى جدة،

نعم لكي أنفتح، وأتردد على أرقى الأسواق، والتقط أوسم الشبان وأمارس وأعبث، وأنثر أنا الأموال حول السرير، أنا السيدة، وهم العبيد. كرهت الظل ورجاله، ولا أخفيك كرهت الحياة، ومن يحبون الحياة. كرهت الحب والتفاؤل وإشراقة الشمس والأحلام. كل يوم تخبرني طالباتي بزواج إحداهن، أبارك وأحترق، أكتم العبرة، وشهقات البكاء أدفعها في مرحاض الحمام، وأعود بعد دقائق وأردد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أقف طويلاً أمام آيات كنت أرتلها بقناعة خالصة، هل أشرح هذه الآية بسوداوية حياتي أم أسرد ألوان الكتاب الأنيق؟ تقتلني سهام التكفير لتشل جرأة الفصل حتى منتصف الليل.

- ألا زلت معلمة؟
- نعم، هل تريد أن أعلمك هاها!
- ارتطام كف عله يوقظ: أنت مجنونة؟
- تخلع بقايا الملابس وتشير إلى أسفل البطن: هذا الذي يجنن!

يغادر مسرعاً، يسمع اعتذاراتها، يتجاهل شيطان الشهوة، وكل الأحضان، وينطلق بسيارته. تتقلص اضطرابات القلب وهو متجه نحو الجنوب، ولكن موج العقل يهب ليكسر سكون الليل، فيذهب باتجاه المقهى، لن يصدق أحد مشهد المعلمة الـ.. هناك في زاوية المقهى، يقف مصطفى

مرحباً كعادته، يخبئ الفرح غموض السنين، ويلون تعرج الجلد ابتسامة الحياة، وتتهرب كلمات المعاناة لتطل قفشات الضحك.

- أذهب أو لا أذهب؟

- الرسالة أمانة، والرجل ائتمنك أن توصلها!

- أنت تعرف وضعي في السفارة، والرجل واصل وكبير.

- طيب ما هو الحل؟

- والله أنا تعبت من التفكير، أحياناً أفكر في تمزيق الرسالة وأخلص، ثم أتذكر منظر ذلك الشاب الآسي، فأتمنى لو أعلم ما هي العلاقة بينهما؟ حاجة تجنن.

- هاها أرجوك لا! كفاية جنون الليلة.

- هاها ماذا حصل؟

- حسبي الله عليك يا عبد الحق. تخيل معلمة، ولا أقولك الله يستر على عبيده.

- حوش حوش يسيدي ستر انتا!

- طيب أنا أوصل الرسالة؟

- لا يا خالد، أنت شاب والعمر أمامك طويل، أنا ليس عندي شيء أخسره.

- لا أنا سوف أوصل الرسالة، أنت أملك بالذهاب إلى مصر اقترب، وعلى العموم لن يسمحوا لك بالدخول.

- ولماذا، وإن يكن سأحاول.

- فاكر نفسك وين؟ إذا أبناء البلد يدخلون بواسطات وإجراءات تطول لأيام.

- لماذا؟ من سأقابل أنا؟

- سياسة الهيبة. ألا ترى خيلاء القصور ورونق الميادين. كل هذه الهيبة وتريد أن......... حسناً أنا الساكت المذهب. ولكن قبل أن أسكت لا تنسَ الأسبوع المقبل، يجب أن تحضر الزواج، قد لا آتي إلى المقهى كثيراً.

- عقبالك.

- في حياتك يا مصطفى.

"لولا الهوى... ما حُمولني ريح الصبا
شوقاً إلى أهل النقا والمربع
لا هبت الأنسام من أطلالهم
أو لاح برق نحو ذاك المربع".

يخدر محمد عبده ثورة الحديث بمركبه الهندي، يتطفل أحاديث المعسل، آمال فتية على المركاز، ذكريات الكبار صغاراً بين الأزقة، ويبقى المقهى مفتوحاً، عامراً بالحراك والسكون، وهو خارج لم يدر بخلده أنه لن يعود إلى مقهاه الجميل.

يعود إلى البغدادية، حيث بيت عمه، يدخل على مهل وتكاد تلامس أطراف أصابع القدم الحصائر، يطرق ويتنحنح. في بيت عمه يمتص المرض شموخ الأحياء، يغرس خنجر الاندثار، فينصهر الجسد المختبيء خلف الغطاء وتقترب

الأرجل لتعلن حضور الموت، ولكن ذلك المحب يقاوم انتحاباً هامساً خلف الجدران، اعتاد أن يقرأ، أن يذهب إلى المكتبة العامة وينبش غبار الكتب، ينبش جيبه، رسالة مصطفى، كان قد قرأها مع مصطفى عدة مرات، قرأ عنوان المرسل إليه، تخيل الموقف، ألم يعتصر البطن فجأة، كابوس الخطوات السبعين، ظلام السجن يظهر من جديد، شيء ما يدفع تخيل لحظة القبض، اليد القوية تكسر لوحة الاعتراض، أمامه الآن مشهد الحرم الجامعي، يرج رأسه كعادته عله يبعد عنه خزعبلات كهذه.

يركن سيارة الأجرة أبعد ما يمكن، يترجل بحذر، يضفي لمسات أخيرة على هندامه أمام مرايا السيارة. بدايات نهار الصيف تهديه بعض قطع العرق، يتلفت في حذر ويتحسس موضع الرسالة في جيبه، كل دقيقة تمتد اليد لتطمئنه. يحدث نفسه "مهمتي إيصال الرسالة، كسعاة البريد فقط، وأي رسالة أتيت بها؟" يعتقد أن سعاة البريد أناس محبوبون، يقف أمام بوابة المبنى الحكومي، وينطلق نحو المدخل الرئيسي.

"أصابعي تفر من أصابعي
وأدمعي حجارة تسد مجرى أدمعي
وخلف السور أضلعي
محمرة تفور بالضرام
تحمل في ثانية كلام ألف عام
لكنني بيني وبيني تائه!
ها أنا من فوق قبري واقف
وها أنا في جوفه أنام!
وأحرفي مصلوبة بين فمي ومسمعي
ما أصعب الكلام.. ما أصعب الكلام..".

أحمد مطر

26

مرسيدس 600 سوداء تقف أمام نفس المبنى، وأخرى

لا تقل بهاء للمواكب، وقطع الأسمنت تملأ المكان لتحميه. تظهر ملامح ثوب خلف الزجاج الأسود، وتترجل الخطى السبعينية، سواد الزجاج يستمر ليدفن تعرج الأجفان، ويد الجندي ترتفع ليستقيم مثلث الاحترام، الله ثم المليك والوطن. شاب بالجوار يرعبه المنظر فيتراجع، بينما يواصل البشت الأسود المسير، خيل الصباح الجامح هذا، موسيقى الأقدام فوق الدرج توزع أنغامها، ويبتلعه المبنى أخيراً. خطوات في صمت نحو نفس الجندي، مثلث الاحتقار يرتسم على نفس الوجه.

- ممنوع!

- طيب ممكن أعرف لماذا؟

- اذهب وإلا استدعيت رجال الأمن، الديوان لأصحاب الأمور المهمة والمستعجلة فقط.

- حسناً! أريدك أن تخبر الأستاذ منصور أن لديّ رسالة له تهمه ولا تحتمل التأخير.

- حسناً! رسالة هاهاها كان غيرك أشطر، إذا عندك معروض ضعه في صندوق القمامة احم! آسف صندوق المعاريض هناك، أعدك أن نوصل معروضك له، لا تقلق هاهاها رسالة، يتمتم "شحاذين".

- علمته الوطنية حكمة الحلم ليرد بكل برود: لو سمحت أنا ليس لديّ معروض، أنا رسالتي خاصة وشخصية وأريد أن أوصلها إلى يده مباشرة.

- طيب أعطني الرسالة لأقرأها وأرى إن كنت صادقاً أو "تلعب علينا"!

- وعلمته أيضاً لذة الصبر أن يعلن الاغتياظ اللطيف: سوف تكون مسؤولاً إن لم أقابله وسوف أخبره عن اسمك.

- ينظر وقد اختل الغرور قليلاً: حسناً، لا تمت، انتظر قليلاً.

يعلم أن العرب كرماء لا يرضون بالقلة أبداً، واقف يعبد الشمس ساعة الضحى، رتبة تشير نحو القاع تقترب، تنظر بنظرات فضولية، تتعمق في بوليسية، وتقترب نحوه.

- ماذا لديك يا مواطن؟

ويتكرر حرف القاف، القراءة أو صندوق الق... صندوق القيم، النجمة تكلم النجوم، انتظر قليلاً، انتظر بالخارج لو سمحت، لديه اجتماع، غداً، الأربعاء، من أنت؟ حسناً أخيراً تذكرتك، تفضل، لم يأتِ اليوم، يسمع الحديث المتداول "أين ستلعب هذا المساء؟" يقترب من النجوم، يخبره "كل مطرود ملحوق" تعال الأسبوع المقبل. صديقه الجندي يرحب به، يسأله عن أحواله، أم النجوم تكلم التاج، تجتمع النجوم والتيجان، تبحث الأمر الجلل، حرف القاف يعود بجدية أكثر، ويحضر السيف يوم الاثنين، ويقرر المقابلة أخيراً يوم الأربعاء، ويأتي اليوم الموعود، ويفتح الباب، يتحسس الورقة المتهرئة، الجبين المعرق، بعض الشفاه المرتجفة، يسلط العين على منصور.

- تفضل يا بني، طلبت مقابلتي، آمر أهناك أمر تريد أن تطلعني عليه؟

اختفت كل الكلمات وكل المقدمات، وحتى يده تحت الجيب اختفت، وتقلمت الورقة الرسالة، تلقفتها يد مخيفة في لطف معتاد، اعتاد أن يرى أوراقاً كهذه تمتلئ بعبارات المدح والاستجداء.

"أنا فيصل بن سليمان العبد السلام، سعودي من الرياض، أوقن أنك عرفتني، بلا مقدمات لأنني أكرهها، حين تصلك رسالتي هذه أكون في عداد الموتى، أكتب عزائي بيد، وأحمل السلاح بالأخرى.

أبي منصور لا أجزم أن تصلك رسالتي وأنا في صحراء العراق وظلام المكان يمنعني من إكمال رسالتي، ولكنني أتحامل وأكتبها، أكتبها إعلاناً لإرادة قبل الموت، ورغبة قبل الانتحار، وندم بعد الفوات، نعم ندم! اختلت قناعة الشهادة حين قتلت أول الأطفال، وانطفأت روح المجاهد حين سرقت، سرقت واحترفت السرقة، ولم أكن أشعر إلا بالرضا، كنت أبتهج بكل ما فعلت وما زلت، كنت أتحمس كابن الحرمين في كل العمليات، إصرار، نعم ما زلت مصراً، متأرجحاً بين الإصرار والندم، أشعر بالضياع، أنا ضائع فعلاً.

ولكنني تذكرتك ولا أدري ما السبب، أتذكرك حين تطربني بحديثك عن أبي، ملامحه تغيرت في مخيلتي حين

رسمته لي بكلامك، أبي بلا رتوش، أبي بلا فخر غزوة مكة، أبي بلا ماض شابه غموض قتله، أبي الإنسان، وأندهش حين أتذكر مقولاتك عن مستقبلي، طبيب، آه قاسم ممرضنا بعد العمليات، مهندس الشيخ صالح هو من يخطط الهجوم، مفكر، كاتب، معلم، أشياء نسيتها، كلها أنا، هنا أنا! أنا لا شيء! كرة من الدم ستنفجر أو تفجر في أي لحظة.

أخبرهم يا مركز القيادة، عن الجامعة الجامع، عن التعاليم الصنم، عن الأستاذ البياع، عن حمدان التاجر السارق، عن أمي المطلقة، عن ملايين كلمات النصح، عن أخوالي الأشداء دوماً، عن جدي الجمل، عن سباقات الجمال، لا أنا أتكلم في السياسة هنا. بل عنهم هم! نعم هم! كل منهم يؤكد محاربته لي، أنا الإرهابي، أنا الشرير، أنا الصورة الكريهة، أنا الفئة الضالة، أنا العار الوطني، هل أنا تراب أو شجرة تنبت في العراء، أنا ويكل أسى إنسان، تعلمت لغتي هنا، وتشوهت هنا، شربت هنا، وتسممت هنا، يوقظني رعب الإمام صباح مساء كل يوم، تسخر الأشياء حولي وتخرس الأفواه المجاورة لتهيئ الشيخ القادم بقوة، أصبحت هكذا بينهم وكل يد تصفق لي ولا تدللني، وكل ابتسامة ترحب بي ولكن اللسان لا يخبرني عن أخطائي، الكل يحميني، في الشارع حولي ومن أعلى مني، غشاوة مقصودة إلى حد ما، رسمية إلى حد كبير.

ماذا عنك أنت، أنت مع من؟ أنت أكبر متناقض منافق عرفته، كنت أقرب المصفقين وأكثر الأفواه ابتساماً، تبدي حزناً لا أخفيه، تبدي خوفاً لا أنكره، وغموضاً لا أفسره، ولكنك كنت قريباً بعيداً.

لذلك كتبت لك بالتحديد، لا أشعر بالاحتقار وأنا أكتب فشلي بيدي، وأنا أبدي ندمي، أمامك لا تعني لي الأشياء كثيراً، ولا تتضح الصور كما هي مع غيرك بالنسبة لي، ولكنها ستصبح ذات معنى ووضوح بالنسبة لك.

سلامي إليك وإلى من عرفني، إلى أمي وأنقل لها سلام الأحياء، إلى حمدان وله سلام أهل الجنة، إلى أساتذة الجامعة سلام السلف الصالح".

فيصل بن سليمان العبد السلام

العراق – الرمادي

1425

نظر إليه بحدة، ازدادت الحدة كلما تعمق في الرسالة، وأخيراً سقطت الورقة، جلسة الخية، يعتقد خالد أن الرسالة الشؤم هذه لها ضحايا هو أول ضحاياها.

–عن إذنك يا أستاذ منصور، أعتقد أن مهمتي انتهت بإيصال الأمانة.

– يردد منصور بصوت منخفض: زي الهوى يا حبيبي... زي الهوى... وآه من الهوى يا حبيبي... آه من الهوى...

وأخذتني من إيدي يا حبيبي... تحت القمر سهرنا وغنينا... وفي عز الكلام سكت الكلام... رحمك الله يا فيصل.

- أحسن الله عزاك.
- ينظر ويستغرب وجوده: من أنت؟
- أنا لا شيء! عن إذنك.

خرجا معاً، اندهاش يعم المكان، من ولماذا وعلامات استفهام، ولحظة الخروج مثلث الاحترام، لا يدري خالد أي مصيبة خرجت معه، ماذا يريد منه منصور، هل سيأخذني إلى الم...... لالا ألهذه الدرجة؟ ركبا السيارة.

- قد السيارة؟
- إلى أين؟
- كل الطرق متشابهه لا فرق.
- صمت ثم قال: أين تسكن؟
- في البغدادية.

دموع تتساقط في كبرياء، يده العظيمة تمسح علامات الألم، يكتم العبرات ويجاهد الصوت المخنوق على الصمت، ينفذ أنين من بين الشفاه النحيلة، وفجأة بكاء يدوي، وآهات زمن تفضح، وكلمات الكنز تظهر، شيئان لا يطاقان، صراخ الأطفال وبكاء الشيوخ.

- من هو فيصل هذا؟
- ضحية، فيصل ضحية! وما أكثر الضحايا هنا.
- ضحية! لماذا؟ ومن السبب؟

- وطن!

- وطن، هل جننت؟ إلى متى نلقي اللوم عليه، ألا يتجرأ كل منا على إصلاح عيوبه أولاً، أنت تستظل عمرك كله تحت ظل الوطن، والآن تذمه، أي نكران هذا؟ أي خيانة هذه؟

- كل الطرق مقفلة لا فرق.

يصلان إلى أزقة الحي الضيقة، يوقف السيارة الفارهة بعيداً كي لا يلفت الأنظار، آثار احتفال ما في المكان، ألوان بهجة تجمل الأزقة، أطفال يمرحون، وسيارات تضيق الخناق المزدحم أصلاً. يلامس جدران البيوت، كل زاوية له فيها قصة، كل ركن هتف فيه بحماس، كل ساحة مشى فيها بخيلاء، وكل بيت نطق هذا منصور يعود.

ويسمع من بعيد وقد اقترب من بيت خالد، صوتاً ألفه ذات يوم، صوت كبر ولكنه يصر أنه سمعه ذات يوم، يلتفت نحو الصوت، يحرك بيديه نظارتيه ودهشة تعتريه، ثوان أعوام، خالد أطرش الزقة، أعوام ثوان، وتخرج كلمة واحدة.

سمية!

"لن يخبروك في الجامعة بأن الجزء الأكبر من القانون هو أن تتعلم كيف تتحمل الحمقى".

دوريس ليسنغ

27

أجزم أن الواقع يحرق جدية الموضوعية، وأؤمن أن النظرة الشابة خاطفة ولكنها جديرة بالرعاية، وأنا حين اخترت موضوع المثلية في السعودية فقد أشرت إلى فوهة البركان ولامست الجرح، وند تستمر نظرتنا التقليدية للجامعة، وإليها أقدم مقالي على أنها بيت العلم المؤدب، وستظل بعيدة عن واقع المجتمع وساحة الشارع.

كطالب قانون أعلم أن السكوت حجة وغياب الشفافية ذكاء، لذلك تكثر بيننا عبارة "ايش دخلك"، لتغلق أبواباً نريد أن نطرقها، أن نكسرها، أن نرى ما خلفها، أن نشتم

رائحة الا خوف، ان نستمتع بروح الإرادة، ان نتذوق طعم الحرية.

هل بدأت أهذي، أخذت الكلمات تملأ المكان، شعراً ونثراً. حكمة أمثال، زمان لا يرحم الأخطاء، أمزق أوراقي، لا أجرؤ على تقليم مقالي، أشك والشك يقتل الضعفاء، لا لن أضعف، ولكنني لن أجني سوى الفضيحة، "أي فضيحة"، كتابتك للمقال لا تعني أنك تؤيد أو تعارض، "اكتب للكتابة عينها"، حسناً ولكنك أعلنت عدم حياديتك، طلقت الموضوعية، ولكن الجميع يفعلون ذلك، يكتبون بلا موضوعية، يحشرون آراءهم، لا بل يجبرون الآخرين على الانقياد لها. أستاذي هذه أوراقي، حيرتي، مزقها إن شئت، بيدك لا بيدي، سأحزن كثيراً، إعلنها إن شئت، بصوتك لا بصوتي، وسأصفق كثيراً.

بسام عبد المحسن العامر
طالب في قسم القانون

في القصر وحيد، يعلم قرب موعد مغادرة سارة بعد نهاية إجازتها القصيرة إلى كاليفورنيا، سوف يختفي الجزء الناطق، وإحساس العائلة الحنون، قلما يرى العائلة في أرجاء القصر. في أواخر الليل خطوات الأب المنهكة تشق طريقها نحو غرفة النوم، لا يعلم سبب الإنهاك، وفي الصباح تخرج الأم السيدة من غرفة نوم أخرى لتدير مجتمع السيدات، لن

يتوقف الطموح، وفي كل الأوقات تمرح جوري، وتستمر المغامرات.

فندق على البحر، ضخم ثلاثي الأوجه، يقبع بسام في مقهى البهو، دخان أبيض يتطاير من الشفاه، نسمات الصيف المشبعة بالرطوبة تجعل المكان مزدحماً بعض الشيء، لقد اعتاد الذهاب إلى المقهى قبل الفجر، وفي تلك الليلة كتب آخر جزء من الموضوع، خوف ما جعل نهاية الموضوع مربكة، شيء ما يمنعه من الاستمرار أو حتى التوقف، أما موظف الاستقبال فلم تتوقف نظراته عن تعرية كل رواد المقهى والفندق. يجمع نقاطه الخمس عشرة حوله، فهو يعرف جيداً مدير المقهى العربي الجنسية، ولن ينسى جوابه حين سأله عن تسريحة شعره الناعمة لحظة العبث: "السعوديون همجيون لذلك أصفف شعري بجدية وأتعامل مع الجميع بخشونة ولا أكثر الابتسام كي يحترموني". أثرت فيه تلك الكلمات، صرخ في وجهه لحظتها وأخرجه من غرفة النوم، وبعد أيام قدم اعتذاراته الحارة بطريقته الحميمة الخاصة.

مضى على وصوله إلى المقهى نصف ساعة، وعندما همّ بالخروج، قدم له العربي الكريم طلبه الثاني، فجلس على نفس طاولة آخر الزبائن بلا استئذان.

- حبيبي، كيفك؟

- الحمد لله، كيفك أنت؟ كيف الزبائن معك؟ 'يبيضون الوجه'؟

- حبيبي، باختصار في واحد يريد مقابلتك؟

- من هو؟ كيف عرفني؟

- لا يعرفك، ولكنني سأعرفك إليه؟ إنسان كبير ومهضوم وواصل في البلد!

- أنت تعرفني عندي حساسية نحو الكبار.

- حبيبي، لا يروح فكرك لبعيد، القصة كلها ونسة وفرفشة.

- يعني!

- قم معي.

هو منصور، يبتسم له ويرحب به، تمتد نفس اليد المخيفة، يسأله عن نواف، 'لا نواف ولد ابن حلال'، يندهش من قوة ذاكرته وهو يردد في نفسه 'ابن حلال!'. يتسرب العربي من تحت الباب، يطل الاثنان من بلكونة الجناح، متحدث جيد، ينساب كلامه المقنع ليخدر، يسأله عن رأيه في أمور كثيرة، فيجيبه بسام في دبلوماسية، لا تلبث أن تبعثر، نفس الدبلوماسية المرتبكة. يحدق منصور في قلب محدثه، رجل مباحث سابق، يعتقد بسام ذلك، حديثه استجواب. ملخص حديث تلك الليلة يبرهن مقولة نواف 'لو في منه عشرة في البلد كان البلد في أحسن حال'. كان يتكلم بصفة اللائم المتفائل، ويبهر سامعيه بمعلوماته الفريدة

والمتشعبة. حين كان بسام يسترق النظرات حوله، تأكد من رجل يجاوز السبعين، وفضاء وقصة مخبأة، وحفيف أنثى يقترب، ويلتفت:

- هذا صديقي بسام.
- مرحبا بسام شرفتنا.
- يرد وقد اعتراه قليل من حياء: الشرف لي!

انصرمت الليلة وأشرقت الشمس، وخرج ذلك الصباح. ابتسامة عربية تلمحه حال الخروج، يعود إلى القصر وهو مطرق الرأس سارحاً. أمه تستعد للخروج، وبهجة الصباح لا تذهب وحشة الوحدة، الصبا والليل، وهو الخائف تحت الغطاء، يتساءل: "لماذا فعلت هذا؟".

يدخل بقوة ويغلق باب القاعة بعنف، وتنتشر العين الحادة، يقف المحجر وتحتد النظرة، يقلب الفم المتعجرف، وتستقيم حركة اليد والأرجل، يندفع الجسم الغاضب نحو طاولة الأستاذ، قدسية الجامعة لا، رهبة الأستاذ لا، رغبة المعرفة لا، فكاهية الفضول نعم، لأجل ذلك عم الصمت، وأخذ يطرب القاعة:

- قلة الحياء في مادتي مرفوضة، وإذا كان مكان الوساخة الطبيعي في الشارع فلماذا نجهد أنفسنا في إحضارها إلى الجامعة؟ وأنا حين أخبرتكم بحرية الكتابة في أي موضوع، لم أتوقع أن ينحط البعض منكم إلى مستويات متدنية من القذارة ليكتبوا في مواضيع شاذة. وأكاد أجزم أنه

استغل ديموقراطية التعليم المطبقة في الجامعة لينشر فكره المنافي لتعاليمنا الإسلامية، ولينشر الفساد وليجعل بغباء أسلوبه بالإضافة إلى غبائه الشخصي من شذوذه هو شيئاً طبيعياً..........

- يقطع صراخ المحاضر صوت من آخر القاعة: إقرأ لنا مقطعاً من هذه المقالات!

- حسناً حسناً! اسمعوا ماذا يقول هذا الفيلسوف العظيم "ولكن العلم وعلم النفس بالذات يقترب من حقيقة مؤلمة للبعض باعتباره فطرة أكثر من كونه شذوذاً. قرأت في مكان ما أن نسبة الشذوذ أو تلك الفطرة بعد دراسة متفحصة تقارب 11%. هم في السعودية يتجاوزون المليونين والنصف. في كل مجتمع بغض النظر عن ديانة هذا المجتمع أو ثقافته أو تاريخه نسبة معينة ولكنها تزداد بالطبع كلما كان المجتمع أكثر شذوذاً، إنه شذوذ الانفتاح الفاحش أو الانغلاق المقيت".

تضج القاعة بالضحكات، والأحاديث المتضاربة. هرج ومرج واندهاش مصطنع، وعبارات إنكار وإشارات تأييد، وشخص واحد قلق وآخر يقف فوق المنصة يرصده، ويضيق الخناق.

- سيد بسام! ما رأيك في الموضوع؟ أنت مع المليونين والنصف أم ضدهم؟

مرة أخرى تضج القاعة بالضحكات، وتلون النظرات الحارقة احمرار الخجل عند بسام، ويقف الزمن لحظة الرد،

ويكرر آخر الجمل في الموضوع "أستاذي هذه أوراقي، حيرتي، مزقها إن شئت، بيدك لا بيدي، سأحزن كثيراً، إعلنها إن شئت، بصوتك لا بصوتي، وسأصفق كثيراً"، وها هو يعلنها ولم يصفق، هل أخطأت الطريق، نعم إنه فعلاً في المكان الخطأ.

- أستاذي لا يهم أحد في هذه القاعة إن كنت معهم أو ضدهم، القضية أكبر من تفاهتك وتقليديتك، المقال أرقى من أن يتناوله عقل مثلك والأمر أوسع من محجر عينيك الضيق، الحكاية أننا شاذون، حتى في تناقضنا نحن شاذون، والمحصلة تعرفها جيداً. ستخرج من هنا مسرعاً لتبحث موضوع فصلي، وسيخرج كل هؤلاء الساخرون، وسيأتي الليل، وسنسمع آهاتنا المحرمة، وسنأتي غداً، ونقول نحن الشرفاء، نحن الأتقياء، نحن العزة، نحن القدوة، ونحن الكرامة. وستأتي غداً زاهياً كالطاووس بقرار فصلي، وسيصفق لك كل الطلاب بعد كل محاضرة، وستعتلي عقليتك المتحجرة رئاسة الجامعة، وسنتأخر كثيراً، وسيلومني أبنائي على تخلفي، وسيضحك الآخرون على أحفادي، ولكنني سأقطع عليك طريق الزهو، وبيدي لا بيد رجعيتك، ها هي بطاقتي، أقدمها قرباناً لك ولأمثالك، أرجوكم مللنا وجوهاً معقدة كوجوهكم.

يخرج بسام ويخلف وراءه أمواجاً من التصفيق، ورجل غاضب يريد أن يكتم هذه الأمواج. يتذكر بسام لحظته

الحاسمة تلك وهو يمسك قدح القهوة ذات مساء صيفي ممطر. ما زال اندفاع الجمل الصادقة، والعبارات التي لم تخنه في لحظات كهذه يضج في فكره. يزداد البرق في الخارج، ومعه مطر جدة المغرق. يقلب قنوات التلفاز أمامه، موجة من الرعد والبرق تعطل جهاز الإرسال، قناة الطفش الأولى مسيطرة الآن، والبث الرسمي ينفرد، يذكّره بتفرد الأستاذ بالحوار الممل كل يوم، يندهش حين يرى استمرار النشرة الإخبارية في سذاجتها، "ودّعَ واستقبلَ"، الساعة الثانية عشرة والنصف صباحاً، يشعر بالفجر في آخر ليلة له قبيل سفره.

"العالم لم تغيره إلا الأفكار، أي الكلمات، وقد حصل هذا منذ أقدم العصور وحتى الآن، وبالمقابل فإن ملايين الرصاصات التي ملأت الدنيا صخباً ودوياً انتهت إلى الصمت المطبق... إلى الموت... دون تغيير شيء".

عبد الرحمن منيف

28

- الرأي رأي البنت، يجب أن أسألها.

- يجيب قبل اختفائه بالداخل: ما يصير إلا الخير، سوف أخبركم بردي غداً.

وقبيل الفجر، مريض يقتله ألم، وإنسان يصرعه التفكير فيحدث نفسه: "أزوجها لابن سمية، وماضيها، ولكن مراجعة الماضي إفلاس، وابنتك موافقة، لا، سأضع سمعة أحفادي

في القمامة، ولكنه موظف في شركة مرموقة، يعرفها وتعرفه أنت منذ تجاورتما، خلقه يسبق وجوده، والأهم أنها تحبه وهو كذلك، أغشيم في الحب أنت، ولكنها صغيرة ولا تقوى على تجرع الحب، ألم تهاجر من أجل الحب؟ ألم تربها يتيمة بسبب الحب؟ لا علل للرفض، وأمه من رعت الطفلة، وكبرت بين أحضانها، وها هي تسترد ابنتها، وأنت ميت، غداً، بعد أيام، ستموت، أخبرك الطبيب في زيارتك الأخيرة بقرب موتك، ألم يطلب منك أن تشتري كفنك، أين الكفن أين الكفن، أين الكفن؟" ويوقظه الكابوس.

– منصور؟ هل أحلم؟

– سمية، لماذا أنت هنا، ألم تنتقلي إلى الشمال؟ الجميع انتقلوا.

– يقال إنني نُسيت هنا، لم أكن أعلم أن مصادرك وقوتك جعلتك تحضر زفاف ابني، على لعموم تشرفنا تفضل. خالد أتعرف منصور؟

– يجيب خالد وقد قتله الفضول: كنت أعرفه لكنني الآن أشك في ذلك!

– طيب خالد ممكن تتركنا قليلاً؟ تسأل سمية.

يطيلان النظر، معالم خمس وثلاثين عاماً تتكشف فجأة، ومحيط يختلف كلياً، وأصوات فرح تذكر بليالي أنس قد مضت، عبير رائحة بعيد أجواء حفلات بلا مناسبات، المكان هو المكان والمعضلة هو الزمان.

– ألهذه الدرجة أنت دقيق الوفاء لتحضر الليلة زفاف ابن صديقك سليمان.

– ماذا؟

– نعم، وإلا ما هو الذي ذكرك بالقدوم إلى هنا، لحظة كيف تعرفت إلى خالد، عفواً نسيت أنك تعمل لديهم، ولكنك كبرت كثيراً، ألم تزل تعمل هناك؟...

– يقاطعها: من هو ابن سليمان؟

– ابنه عبد الرحمن، عريس الليلة، ابني. لا تقل لي إنك لا تعرف، ألم يقل لك.

– تقصدين سليمان العبد السلام رحمه الله.

– وكيف عرفت أنه مات، هل مات فعلاً؟

– أوَلا تعرفين أنه مات؟ وتقولين إن الليلة هو زواج ابنه! ألا زلت تشربين؟

– تخيلت موته، ولكنني لم أجزم ذلك، كانت تأتيني أخبار متواترة وليست أكيدة عن وفاته، ولم أستقص كثيراً، لم يكن عندي الوقت لذلك، كنت أسخر وقتي كله لعبد الرحمن، كنت أرى فيه نفسي وحلمي وشرفي الذي أخذ الناس فجأة يتذكرونه بثقوب الماضي وحروقه، ولكن ها هو ابني رجل أمامي.

– متى وكيف تزوجتما؟

تقطع الحديث تحية شاب عادي الملامح، رجولي التفاصيل، يبهر إلى حد ما بتقاسيم جسده المنمقة، ختم

الزواج يرتسم شعرات مهذبة حول الفم والذقن، وعطر يفوح، وثوب ناصع.

- أعرفك إلى جار قديم لنا، منصور.

- تشرفنا يا عم منصور.

- مبروك يا ولدي، منك المال ومنها العيال.

- الله يبارك فيك، وعقبالك يا عم.

- يبتسم ويحدق في عبد الرحمن وهو يغادر: والله وكبرت وكبرتي يا سمية.

- لم تجاوبي، متى وكيف تزوجتما؟

- حين قدم أول مرة، لا أذكر أنك تنسى تلك الليلة، حلف لي أنه سيتزوجني، أعتقد أنه كان يصلح بزواجه مني ذنباً ارتكبه، لم أكن أحلم بزوج مثله، وتزوجني بعد تلك الحادثة بأشهر. خوفنا منك تلك الأيام منع كلاً منا أن يخبرك، اشترى لي هذا البيت وظل يتردد عليّ بين فترة وأخرى حتى انقطعت أخباره ووجوده فجأة، كنت أعلم أنك تعرف مكانه ولكن خوفي على ابني من عائلته كتم صوتي، وجعلني أعيش وحيدة في الظل.

- وكيف عشتما، من أين كنتما تأكلان؟

- كان الله معنا في كل لحظة.

- وكيف......

- يتدخل خالد: السواليف أخذتكم، عمة سمية البنات يريدونك بالداخل، ولا تنسي تستعجلي على نورة.

وعلى أهازيج المزمار، وفرحة التبريكات، ودعوات الفلاح، انزوى اثنان هما منصور وخالد، بعيداً عن كل الأشياء، وتطرقا إلى كل الأشياء. أخبره عن أبي فيصل وعن فيصل وحمدان وسمية بكثير من التحريف، عنه هو عن غموضه، عن حزنه، عن سره الدفين، عن ماضيه، عن أحلامه الصغيرة، عن طفولته المتخيلة، عن حاضره، عن خطوط حمراء، وعن أسرار مبهمة. المخيف، حتى السبعين درجة، كان يحتفظ بمعلومات عنها. كان خالد يسترق وقت الانشغال بزفاف بنت عمه، الذي لم يحضره الكثيرون، ولكنه مثقل بهمّ الزفاف المعتاد، تظهر في الأنحاء عربة، يدفعها خالد ببهجة، ويطل الجميع ليرحبوا بالضيف، وتهطل القبلات، ويعتصر الأب الميت ابتسامته الأخيرة. يتقدم منصور وقد تعرجت الخطى فيهوي بقبلة ساخنة على الجبين، وهو ينظر نحو صالح، ويهمس في أذنه بكلمات، ثم يهديه قبلة أخرى حانية وينهي لقاءه بابتسامة، وتتبادل النظرات بينهما من بعيد، وتلمع السماء حبات المطر وعبرات الصيف، وتنقضي الليلة باكراً، ويتفرق المعازيم، ويبقى أصدق الأصدقاء، حفاوة تدفع صالحاً إلى المجاملة، فيمد استطالة الابتسامة، وينفي نكهة الدموع من طبخة الليلة، ويقذف وهن المرض، ويتوشح رداء زفافه ليتيم. هل تعيد الأيام نفسها، ينظر إلى ساعته، إنه منتصف الليل، تبادله الساعة نظرات الحزن، ومنصور هناك، يتحدث مع خالد وعينه مع صالح، الوداع،

وصول الرسالة، أداء الأمانة، انقضاء الأشياء، التفاف السجاد الأحمر، انطفاء الأضواء، سكون الليل، ويتسلل الأصدقاء، والاندهاش في إحدى الزوايا لا يزال يسرد حكاياته. يطلب منصور ورقة، ويخرج قلمه الذهبي، يودع الأب ابنته، فتنة الكحل على الخد المنبثق في أنوثة، وينزوي في غرفته، يغلق الشباك والباب ودولاب الملابس ويطوي سجادة الصلاة. يتمدد على السرير، يجلس، يمد يده إلى إحدى الحقائب، يفتحها بصعوبة، يبحث قليلاً، ويخرج مصحفه المهترئ، يضعه على وجهه، ويتنفس بشدة، تصرعه موجة من الألم، فيضع الحقيبة جانباً ويشرب قليلاً من الماء. يدخل خالد، يودعه ويبارك له زفاف ابنته، لا يجاوبه، يهز رأسه بإيجاب، يتمدد مرة أخرى ويمسك بقطعة قماش زرقاء، قطعة من فستان قديم، عيناه، عين تنظر إلى قطعة القماش والأخرى نحو الساعة، وكلاهما تدمعان حرقة الأيام وسعة الحياة وليلة القدر.

وفي الزقاق المطر يغسل القلوب، يكشف عفن السنين، يظهر اختباء الحقيقة، يكتب أحجية اليوم، مطر صيف جميل يذكر صالحاً بصيفٍ ممطر مضى.

- جدك حسن!
- نعم هكذا حكى لي عمي قبل فترة.
- وزوجته شاهرة!
- من أنت؟ ألهذه الدرجة تعرفون كل الأشياء؟

- لا سمعت قصة مشابهة لقصة عائلتك تلك، قصة عبرة!

- لم أكن أعلم أنها مشهورة إلى هذه الدرجة!

يحكي له القصة، ويفاجئه منصور بإكمال أجزاء منها، وتقبل سمية وترى منصور، يغريها منظره وإن كانت اعترته الأيام وفعلت فعلتها، تستأذن خالداً في حديث خاص مع منصور، يضع منصور ورقتين في يدي خالد، يقول له افتح اليسرى في الوقت المناسب، واليمنى غداً، يغادرهما خالد، يفكر في الأوقات المناسبة، يجلسان معاً، صامتان، وتهمس بصوت لا يزال يحتفظ بشيء من الماضي:

"سبحانه وقدروا عليك
وخلوك تنسى أحبابك
ولا بتسأل علينا خلاص
قفلت بوجهنا بابك
ولا عاد طله أو زله
بحقلكم لنا الله
وما شفناك لنا مدة
نسيتنا واحنا في جدة
ونسيت أيامنا الحلوة
وسبحانه وقدروا عليك
سبحانه وصرتوا كبار
وصار يتقال لكم أشعار

وناس.. توصل ليل بنهار
عشان تروي.. وتطفي النار
دا.. بكره تنجلي الأسرار
وصبرك.. دا الفلك دوار
وسبحانه وقدروا عليك
وخلوك تنسى أحبابك».

سري للغاية: توفي الأستاذ منصور عبد العزيز في ظروف غامضة إثر تناوله جرعة كبيرة من المسكر في أحد أحياء جنوبي جدة، هذا وما زال التحقيق جارياً لمعرفة أسباب الحادثة الغامضة، الغامضة جداً.

ما في المقام لذي عقل وذي أدب
من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضاً عمن تفارقه
وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب

الشافعي

29

تعلن الخطوط الجوية البريطانية عن موعد رحلتها رقم 1274 والمتجهة بإذن الله إلى مطار هيثرو بلندن، الرجاء من الأخوة المسافرين الكرام التوجه إلى صالة المغادرة لإنهاء إجراءات سفرهم.

اثنان، شاب يرتدي الملابس الحديثة، ويحمل قطعة

صغيرة على كتفه الأيمن، والسائق يحمل بقية القطع. نظراته ساحرة، مساء جميل. والآخر، يحمل حقيبة رجل الأعمال، جاد الملامح، يدفع عربة عليها قطعة أخرى، ويلمح في المرايا والأشياء اللامعة أناقة بذلته الباهظة، مطار مزدحم.

ينظر رجل الجوازات إلى الجواز، لا ابتسامة ولا حديث، تأفف، يعيد له الجواز. تأكد بسام أن رواية العربي عن احترام الأجانب حقيقة وها هي تتجسد أمامه، دور الآخر.

- وغمزة لها معنى: اها سعودي، وصغير، الله يستر عليك.

- يرد بسام بابتسامة باردة: شكراً.

- يكثر الغمز: لا شكر على واجب حبيبي!

وبعد دقائق تأتي البذلة الباهظة، تقف أمام رجل الجوازات باحترام صامتة:

- خلص يا صديق، لازم تأخر السير، حمار!

- يخرج جوازه الأخضر من الحقيبة: تفضل.

- آسف، ما توقعت أنك سعودي، الله يستر عليك.

- يتمتم خالد: كفاية ستر.

- ماذا؟

- لا شيء، الله يستر عليك، أراك على خير.

عباءات تنتشر في الطائرة، رجال اعتمروا عمائمهم، ويجلس الاثنان إلى جوار بعضهما البعض.

- مساء الخير.
- مساء الخير.
- يهمس أحدهم: وأخيراً!
- ينظر الآخر: وأخيراً، ماذا؟
- سأترك إلى الأبد التخلف خلف ظهري، سأعيش حياتي بلا تناقض بلا خوف بلا تردد.
- إلى متى.
- إلى الأبد، ما تعرّفنا؟
- يقدم بطاقته، رئيس مجلس إدارة المنصور للتجارة: أنا خالد أبو ذيب، رجل أعمال.
- تشرفنا أنا بسام العامر أعمال رجل.
- ماذا!
- لا عليك، دراسة أم سياحة؟
- بحث.
- عن ذات؟
- إلى حد ما.
- لا جديد.
- في عينيك إصرار.
- وفي عينيك جرح.
- إصرار طموح.
- جرحك ينزف.
- ابحث عن الوقت المناسب.

- في السماء أنسب الأوقات.
- ربما!
- يمد يده: ثق بي.
- يمد يده: من سار على الدرب وصل.

يعلن الطاقم عن موعد الإقلاع، فيقف المضيف النحيل، ليشرح بحركات من جسده خطط الطوارئ، ويركز ليعلم بساماً طريقة الإخلاء، يقترب من بسام، يعرفه بالتأكيد، يتسلى بالصحيفة أمامه، يقلب الصفحات، نفس المقال، عين الحقيقة. قاسم الإسكندراني مرة أخرى، صفحات أخرى عن حالات انتحار في البلد، والتبرير أمراض نفسية كالعادة. مساء جدة من الأعلى، أنوار فتية ترقد على الشاطئ، جميلة هي الأشياء من الأعلى، سور من الظلام يحيط بها، وأسوار بأيدينا بنيت، لعينة طويلة تقتل جمال الليل، وحب الوطن. وفي السماء، يطلب الاثنان كأسين من الخمر، يشربان، يحلقان، يصبحان حميمين، وتمتد العلاقة في لندن، يخبر خالداً عن أستاذه في الجامعة، عن طفولته، عن القصر، عن المغامرات، عن الجنس الخامس. كأس أخرى تسعف، وفكرة تموج، لقد حان الوقت المناسب، يريد أن ينام، وبسام ما زال يتحدث. حلم القصيبي يريد أن يأتي دوره، قبر عمه بجوار قبر منصور، ملك الموت الذي أتى تلك الليلة ليخطف الروحين في نفس الوقت، بكاؤه، تحقيق السلطات معه، رسالة منصور الأولى، انتقال كل أملاك منصور إليه.

مذكراته التي أوصاه أن يقرأها بعد أن يأتي الوقت المناسب، سلمى، حبه الذي يستحي أن يتحدث عنه كثيراً، الحب سذاجة هنا، فكرة الرحيل، حسناً، هذه اللحظة مناسبة، يخرج الورقة، يرجعها إلى نفس المكان، الدافئ في جيب البذلة، يخرجها مرة أخرى، يفتحها، سطر واحد فقط، يقرأه وبسام ما زال يتحدث.

عشت سبعون عاماً كومة من الغموض، ورأيت من الأهوال ما يفوق عمري، وأخطأت حتى اعتدت الخطأ، ورميت وراء ظهري كل القيم، وفعلت كل الأشياء بلا خجل، وندمت على كل الأشياء بلا شك، ولكنني أموت الآن وأنا أمام حقيقة واحدة، حقيقة وصلت إليها بعد تجربة، بعد حرقة، بعد موت.

من يصمت طويلاً يعتذ ممارسة الأخطأ
فالحرية هي النجاح.

جدك منصور

السطر الأخير

نكتب، لأن الحياة وحدها لا تكفي..!

محمد الصالحي

بعد وفاة والدتي، أصبحت وحيدة، «مقطوعة من شجرة» إلى حد ما، وكان حبي الأول على أبواب المدرسة، نسيت أن أخبرك أنني معلمة، معلمة دين! لم يكن أي قسم يقبل بنسبتي سوى قسم الدراسات الإسلامية. حلمت ذات ليلة بزوج وأبناء، أتتني تزف البشرى، زوج ضعف عمري، تحاملت بقانون «الرجل الظل»، تحاملت شهوانية الحيوان، انقضاض الافتراس، وهمجية الفعل، وانتهت رسالتي معه سريعاً، وتفس الخاطبة تزف لي ورقة الطلاق، وتوالى مسمار الحلال فوق صدري حتى أدماه، وتفتق القهر واعتاد العرور. رأيت الشيب يثور من جديد، ولحى تحلل الموقف، وألسنة تنمّق الكلام، وأموالاً تخترق السماء. نفس الوجوه، نفس القذارة، أموال ترمى حول السرير، ذباب حولي يلعقني ويبتعد، وأنا السلعة، وأخيراً أنا السلعة.

سعيد الوهابي، كاتب سعودي من مواليد جدة عام 1986.

ISBN 978-9953-71-423-1